

مكتبة الجيلاني

٤

آداب السكوت

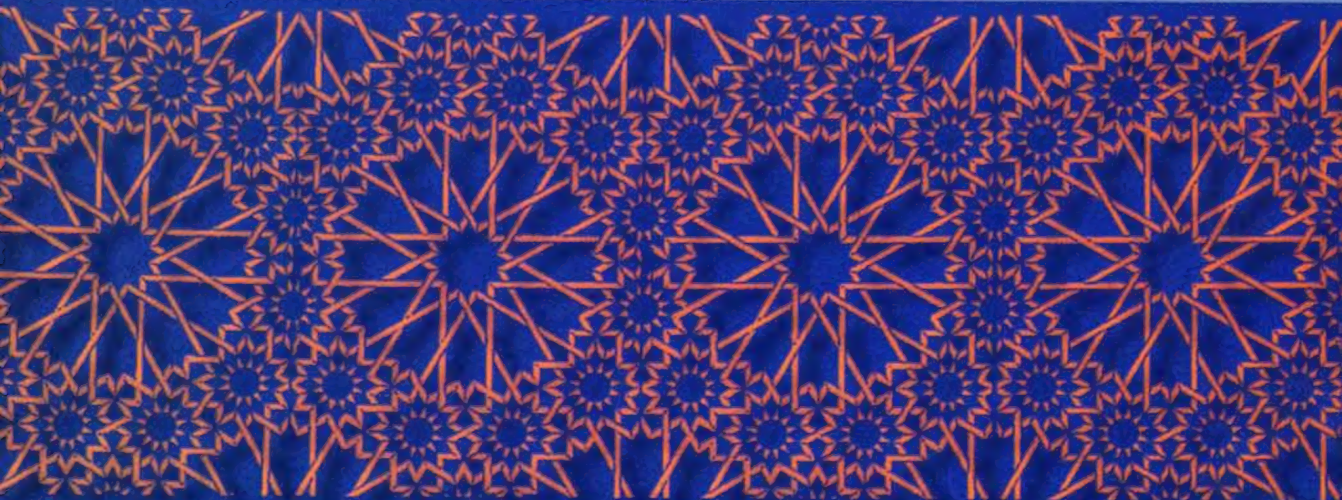
باري

تأليف
الشيخ عبدالقادر الجيلاني
قدس سره العالي

تحقيق

محمد حسن نصوص عزقول

قدم له الأستاذ
محمد زكريا الزعيم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

آدابُ السُّلُوكِ
والتَّوَصُّلِ إِلَى مَنَازِلِ مَمْلُوكٍ

آداب السلوك والتوصل إلى منازل الملوك / تأليف أبي محمد عبد القادر بن أبي صالح
عبد الله بن جنكي دوست الجيلاني الشافعي الحنبلي ؛ تحقيق محمد غسان نصوح عزقول . -
دمشق : دار السنابل ، ١٩٩٥ . - ٢٠٠ ص ؛ ٢٥ سم .

١ - ٢١٨، ٩٦ ع ب د آ ٢ - العنوان ٣ - عبد القادر الجيلاني ٤ - عزقول
٥ - السلسلة .

مكتبة الأسد

الإيداع القانوني

ع - ١٩٩٥/٩/١٣٣٧

آداب السلوك

وله توصل إلى منازل مملوك

تأليف

شيخ الإسلام و سلطان الأولياء

أبي محمد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله بن جنكي دُوسِتَ أجيلا في الشافعي الحنبلي
رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

(٤٧٠ - ٥٦١ هـ)

قدّم له الأستاذ
محمد زكريا الزعيم

تحقيق
محمد غسان نصوص عن قول

كتاب السلوك

الكتاب الحادي عشر
الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ = ١٩٩٥ م
جميع الحقوق محفوظة



يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير
والنقل والترجمة وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من : دار
السنابل للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق .

دار السنابل للطباعة والتوزيع والنشر : سورية - دمشق - ص . ب
(٣٠٦٠٨) - س . ت . (٦٤٢٩٢) - هاتف (٢٢٣١٣٩٢)

لله

إِلَى الرَّجُلِ الصَّالِحِ وَالْعَالَمِ الْمُتَبَلِّغِ الْكَوْرِعِ .
الَّذِي كَفَّلَنِي لَطِيْمًا وَأَنَا ابْنُ أَشْهَرِ
أَدَبَنِي فَنَشَأْتُ غَرْسَ يَدَيْهِ ، وَغَصَنَ دَوْحَتِهِ
وَشَعَاعَ مَصْبَاحِهِ .

إِلَى الَّذِي أَمَضَى حَيَاتِهِ وَأَفْنَى شَبَابَهُ فِي خِدْمَةِ
كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
ابْنِهِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ الَّذِي قَصَّرَ عَمْرَهُ عَلَى خِدْمَةِ
أَبْنَةِ الصَّنَادِ ، وَالْفِيَامِ بِشَأْنِ الثَّقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ
وَالْإِسْلَامِيَّةِ فِي رُبُوعِ دَارِ الْفِكْرِ ، الَّتِي تُعَدُّ غُرَّةَ
دُورِ النَّشْرِ فِي هَازِهِ الْبَلَدَةِ .

إِلَى عَمِّي الْمَرْحُومِ الشَّيْخِ

عَبْدِ الْوَهَّابِ عَزَّ قَوْلُ

أُقَدِّمُ هَذَا الْعَمَلَ ، سَائِلًا الْمَوْلَى الْفَدِيرَ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا
الْكِتَابَ صَدَقَةً جَارِيَةً فِي صَحِيفَةِ عَمَلِهِ ، وَأَنْ يَحْشُرَهُ
مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ .

أَبْنُكُمْ

تقديم

بقلم الأستاذ

محمد زكريا الزعيم
بإمضاء

سُئِلَ سَكِيرٌ نشوان يوماً وقد لعبت بعطفيه الشَّمُولُ ما الخمر ؟
فأجابَ : ويحكم وهل في الخمر غير النَّشوة ؟ !

لذا كلَّما هتفتُ بالقلم أنْ يحومَ حول حمى التَّصَوُّفِ صاحَ بي :
أَقْصِرْ ، وكلَّما حاولَ الفِكْرُ النَّظْرَ في معانيه ، والتَّأَمَّلُ في أسرارهِ ، تأبَى
البيان وقال له : أَمْسِكْ .

وقد حَقَّ لليراع أنْ يقفَ أمامَ جلال هذا الموضوع حائراً وجلاً
لا يتقدَّم ولا يتأخَّر ، فالتَّصَوُّفُ ليس فكرةً فلسفيَّةً كَسَلَى كسائر الفكر
المنطقيَّة المجرَّدة تُحدُّ وتُضَبِّطُ وتُعرَّف ، ثمَّ تغفو باسترخاء على سُرُرِ
السُّطور وأرائك المكتبات !

بل هو فكرةٌ نشطة ثائرة ، هبَّت من عليائها إلى ميدان الحياة لتثَقِّفَ
السُّلوك وتهذِّبَ الخُلُق . فإذا أذعن لها القلب سكبت فيه نشوةً ولذادةً
أُترعت كؤوسها من كوثر العرش ، وأنهار الجنان !

فقد جلَّ التَّصَوُّفُ أنْ يكون فكرةً تحفظها الواعية ، ويلوِّكها اللسان ،
وسمّا أنْ يكون علماً تحتويه الأسفار ، أو مذهباً تعتقه الألباب !

فهو ليس في حقيقته إلاَّ رياضةً ومجاهدةً ، أمّا ثمرتهُ اليانعة المُشْتَهاة
فقد تأبَّت أنْ تُجنَى إلاَّ بعد هذه الرِّياضة وتيك المجاهدة .

وليس للتَّصَوُّفِ في شَرِيعَتِنَا السَّمَحَةُ إِلَّا مفهوماً واحداً ثابتاً راسخاً مُستمدداً من أصول العقيدة ومشكاة الثُّبُوءِ ، ألا وهو : (إخراج الدُّنْيَا من القلب لا مِنْ أَصَابِعِ الكَفِّ) .

على ذلك أَجْتَمَعَت كلمة السَّلَفِ ، وَأَتَّحَدَت مشاربهم ، وتسايرت أهواؤهم ، ولكن مع توالي الأَيَّامِ وَأَتَّسَاعِ الفتوح وأمتزاج العرب بالأمم والشُّعُوبِ سرت في التَّصَوُّفِ فلسفة العُجْمَةِ ، وولغت في ينبوعه العذب الفرات أَباطيل التَّطَرُّفِ ، وأوهام الفلسفات ، وشطحات المذاهب .

فأصبح زُهداً نصرانياً ، وتبتلاً بوذياً ، قوامه تعذيب الجسد ، وفِطَامِ النَّفْسِ ، فانقطعت الوشائج ، وحُلَّتِ الرِّوَابِطُ ، ووهت الصَّلَاتُ بين ما كان عليه وما آل إليه !

وغدا مفهوماً عقيماً ساذجاً لا يتواءم مع إيقاع الحياة ، ولا يمتُّ إلى أصول العقيدة بسبب !

ومتى أمرنا الشَّارِعُ أَنْ نُعْرِضَ عن الدُّنْيَا ، ونُديرَ لها الظَّهْرَ ، ومتى وَجَّهْنَا إلى أَنْ نزهد في رحابها ، ونقعد عن أمرها ، وهو الَّذِي لا يفتأ يأمرنا بعمارتها والقيام بشأنها ، أليس الله قد أَسْتَخْلَفْنَا فيها لنحمل الرِّسَالَةَ ونؤدِّي الأمانة ؟

ومنذا الَّذِي لا تتردَّد بين جوانحه أَصداءُ النَّداءِ السَّماوي الخالد ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة التَّوْبَةِ ١٠٥ / ٩] .

والتَّصَوُّفُ ليس كما يزعم بعض المؤرِّخين مذهباً فكرياً نشأ وليدَ رَدَّةِ فعل لحالة اللُّهُو والعبث والمجون ، الَّتِي تَفَشَّتْ في المجتمع الإسلامي

منذ صدر الإسلام حين عمَّ الرِّخاء ، وظلَّت المجتمع سحب الرِّفاه والازدهار .

كلا ! فليس الأمر كما زعموا !

فقد كان الصَّحابة منذ عهد الثُّبوة متصوِّفين حقيقيين بفطرتهم السَّليمة ، وسرائرهم الطَّاهرة ، وقلوبهم المؤمنة ، دون أن يخلعوا على مسلكهم هذا ثوباً فضفاضاً من ضلال المذاهب وأوهام الفلسفات !

ولكن حين عمَّ الرِّخاء وساد الرِّفاه اتَّضحت الصُّورة وتمايزت الألوان ، فقد استبدَّ التَّرف ببعض السُّفهاء فانصرفوا إلى اللُّهو والمجون ، مخدوعين بسراب الحياة وبريق الحضارة .

بينما ظلَّت طائفة من المؤمنين مخلصه للعهد ، سائرة على الصَّراط المستقيم : كتاب الله وسُنَّة رسول الله ﷺ .

فأُطلق على هذه الطَّائفة ألقابٌ مختلفة تصوِّر حالهم ، فتارة الزُّهاد وطوراً الثَّسَّاك ، ثمَّ نسجوا لهم لقباً جديداً لحمته وسداه من خيوط الفلسفة ، فصاروا يُعرفون بالمتصوفة وأرباب الأحوال !

وليت الأمر وقف عند هذا الحدَّ ! فقد أصبح مصطلح التَّصوُّف مرتعاً للآراء الفلاسفة وأقوال المتكلِّمين ، وذهب الخُلُفُ بينهم كلَّ مذهب ، ففترقت بينهم الدُّروب ، فأصبحت لا تجمعهم جامعة ولا يربط بينهم سبب ، فضربوا كحاطب ليل في فيافي الضَّلال ومفاوز الظَّلام ، ولما لم يقعوا على طائل ، اختلفوا في الاشتقاق اللُّغوي للفظه التَّصوُّف ، ناسين أنَّ التَّصوُّف حالة شعوريَّة لا فكرة فلسفيَّة .

ومهما يكن الأمر لا يخرج عن كونه رياضة ومجاهدة للتَّطهُّر من أهواء النَّفس ، وأجتثاث الدُّنيا من ثرى القلب ، وإيداعها بين أصابع الكفِّ ، ثمَّ

المضي بثقة في رحلة الحياة لأداء الأمانة التي أشفقت من حملها الجبال !
وليس هذا فحسب فقد أطلت علينا طائفةٌ أخرى من (متصاوفي ومتفلسفي) العصر العباسي المتأخّر ، الذي كادت أن تسكن فيه رياح الإبداع ، وتخبو في سمائه شعلة المعرفة ، فرفعت عقيرتها داعيةً إلى مفاهيم جديدة ، ربأ متصوّفوا الرّعيّل الأوّل بأنفسهم عنها ، ونزّوها عقيدتهم من أضلالها وأوهامها .

من ذلك (الفناء ، والحلول ، والاتحاد ، ووحدة الوجود)^(١) .
وقد أحتجّ بعضهم زوراً وبهتاناً بأنّها وردت في أقوال القدماء وكتبهم ، وقد فاتهم أنّ مصطلح الفناء الذين يدّعون إليه لم يكن مفهومه عند القدماء كما يشتهون ، بل كان يعني فناء المؤمن عن الخلق ، وحفظ النفس ، وإيثار أوامر الله على أهواء القلب ورغائب النفس ، والدّهول عن

(١) أفكار فاسدة من وحي التّصوّف الفلسفي
وحدة الوجود : وجود المخلوقات هو عَيْن وجود الخالق ، فوجود الكائنات جزء من وجوده !!

الحلول : حلول الله في المخلوقات كما يذوب السكر في الشّراب !!
الفناء : أنّ يذوب المخلوق في الخالق ، ثمّ يمتزج به ويختلط ! كما تمتزج قطرة الماء في الموجة ، ثمّ تتلاشى فيها !!
الاتحاد : هو الامتزاج بالخالق والاختلاط به كامتزاج القطرة باللّجّة !!

ردّ وإيضاح

- الصّانع لا يمتزج بالمصنوع ولا يتحد به .
- وجود الله أزلي قديم ، ووجود المكوّنات محدث وطريف .
- الصّانع غير المصنوع ، يخالفه في الصّفات والجوهر ، فكيف يتحدان ؟!
- من المحال أنّ يمتزج المخلوق بالمخلوق ، ويختلط الشّيء بشبيهه ، فكيف يمتزج المخلوق بالخالق ولا وجه شبه يجمعهما ؟!
- الله أكبر من السّموات والأرض ، وهو المحيط بالأكوان ، فكيف يحلّ ويذوب - جلّ شأنه - في صغائر الأشياء ؟!

الخلق والأخلاء في حضرة المحبوب الأكبر ربّ الأكوان .
أنت فوق الصَّحْبِ عندي فإذا غَبْتَ عن عيني لم أَلْقَ أَحَدَ
أَمَّا مفهوم وحدة الوجود الَّذي تُسبب للشيخ الأكبر محيي الدين بن
عربي فهو لا يعني - كما ذكر المحقِّقون - إلّا معنىً واحداً يُعدُّ من صلب
العقيدة الإسلاميّة السَّميحة ، فلا وجود إلّا للخالق ، أمّا وجود سواه من
المخلوقات فهو ظلال وأشباح وتبع له ، كما يقترن الظلُّ بالشَّيء ، أو كما
تُحرِّك الدُّمية يدُ الفنان في مسرح العرائس !

أَمَّا المفاهيم الأخرى الَّتِي نَعَقَ بها النَّاعِقُونَ من المتأخِّرين كالحلول
والاتحاد فما تحرَّك بها لسانُ وِرعٍ ، وما خطرت على قلب مؤمن من
أولئك المتصوِّفة الأبرار !

ذاكم هو التَّصوُّف الَّذي حدَّثتكم عنه ، أجتذبه الجانب الرُّوحي في
الإسلام ، فطاف حوله ، وحوِّمَ فوقه ، وقصرَ نفسه عليه .

إنَّه دوحه باسقة لا عيب فيها ، إلّا أنَّها حُقَّت بأعشاب البدع وأوشال
الضُّلال .

فما أجدرنا أنْ نقتلع تلك الأفكار الطفيليَّة الَّتِي تعشَّقت ساقه ،
فأعاقت نماءه ، ورثَّقت صفاءه ، وأخرجته عن سنن الإسلام ونهج
القرآن !

ولنطرح عنه ما علِقَ به من شعائر الوثنيَّة . ومظاهر التَّنْي والرَّقص
والغناء .

ذاك هو التَّصوُّف يا أُخَيَّ الَّذي شَنَّفَتْ آذانَكَ بسماع خبره ، وأطلعتُك
على حقيقة أمره ، فهلُمَّ هَلُمَّ يا صاح إلى حانة الهوى ، وفسطاط
الإيمان ، نسهر معاً مع السُّمَّار تحت جناح اللَّيل في اللَّيالي والأسحار .

فثَمَّةُ نورٍ لَمَّاحٍ يَخْطِفُ الأبْصارَ ، ويملأُ الحانَ من مشكاةِ الرَّحمنِ ،
ونفحاتُ سَماوِيَّةٍ تَهْبُّ عليه رَحيَّةٌ نَدِيَّةٌ ، معطِّرةَ الأَرْدانِ بأنفاسِ الحورِ
وأريجِ الجِنانِ ، مخضِّلَةً الأذْيالَ بَبَرْدِ الكوثرِ وأنهارِ السَّماءِ .

فطوبى لِمَ كانَ هذا مَقامُهُ ، وفي تلكَ الأيكةِ مَعْرِسُهُ وأَحلامُهُ !
فهلَّا بدأتَ الرِّحْلَةَ يا صاحٍ من هذا الكتابِ الَّذي شَرِفتُ بمراجعتِهِ
والتَّقديمِ لَهُ . فقد وَجدتُ في أَثناءِ وِريقاتِهِ آدابَ سَلوِكٍ ومنهجِ حِياةٍ ،
تَجعَلُ السَّائِرَ في دَرَبِ الحِياةِ راسِخَ القَدَمِ ، ثابِتَ الفؤادِ مَطْمَئِنِّ النَّفْسِ ،
يَخطو على صِراطٍ مُستَقِيمٍ ، فلا تَنبَهِهُمُ أَمامَهُ المَسالِكُ ، ولا تَتَشَعَّبُ في
مَسراهِ الدُّروبِ .

ولسوفَ تَجِدُ - كما وَجدتُ - في كُلِّ فَصلٍ من فِصولِهِ مَعْرِساً ، وفي
كُلِّ خَاطِرَةٍ مُستَراحاً ومَقيلاً .

فَتَخالُ نَفْسَكَ تَطوِفُ على مَقاماتِ الإِيمانِ ومَنازِلِ الفِضيلَةِ ، كما
تَطوِفُ الشَّمسُ على مَنازِلِ الكِمالِ ودِرارِي السَّماءِ . وَيَنقَلِ الطَّيْرُ على
أَفنانِ الأشجارِ في رِحابِ الرِّياضِ .

إِرحلْ إِرحلْ من الخَلقِ إلى الخالِقِ ، ومن الكونِ إلى المَكوَّنِ ، فما
أَظَمُّها من رِحلةٍ ، وما أَقدَسُها من سِياحَةٍ .

وطوبى لِمَ كانَ في تلكَ الأيكةِ مَقامُهُ وأَحلامُهُ .

محمد زكريا الزعيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمته لتحقيق

إِنَّ الحمد لله نحمده ، ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يُضِلِّ فلا هاديَّ له .

وأشهد أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحده لا شريك له ، وأنَّ محمداً عبده ورسوله .

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا وَسِنْدِنَا وَشَفِيعِنَا وَذُخْرِنَا وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ
صاحب جوامع الكلم ، وسيد سادات المخلوقات ، وعلى آله الطَّيِّبين
الطَّاهرين ، وأصحابه الأخيار المخلصين ، الَّذِينَ أَحْسَنُوا أَتْبَاعَهُ فِي
الْحَرَكَاتِ وَالسَّكِّنَاتِ ، وَعَلَى التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ مَا دَامَتِ الْأَرْضُ
وَالسَّمَاوَاتِ ، آمِينَ .

وبعد

فهذا الكتاب هو الكتاب الرابع من مكتبة الإمام الجيلاني - رحمه الله تعالى - الذي سيصدر في دمشق بلد العلم والمعرفة ، محققاً تحقيقاً علمياً جيداً كسابقه : (سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار) ، و (الطريق إلى الله) و (جلاء الخاطر في الباطن والظاهر) .

وكتابتنا هذا - آداب السلوك والتَّوَصُّل إلى منازل الملوك - يعدُّ من

أعظم مؤلفات الإمام الجيلاني - رحمه الله تعالى - في أصول التَّصَوُّف والسلوك الأمثل المستمد من كتاب الله العظيم ، وسُنَّة رسوله الكريم صَلَّى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم ، ومن آثار الصَّحابة والتابعين .
فهو كتاب جليل النَّفع عظيم الفائدة ، جمع الإمام - رحمه الله تعالى - بين دفتيه الأسس المُثلى لمن أراد الوصول إلى الحق وطريقه عزَّ وجلَّ .

فهو يستهله فيما يجب على كلِّ مؤمن ومُسلم ، ثمَّ ينتقل للكلام عن الابتلاء ويحذّر من الدُّنيا ويحض على الإعراض عنها ، والفناء عن الخلق ، والتقرب إلى الله تعالى ، ثمَّ يبيِّن حقيقة النَّفس الإنسانيَّة وأحوالها ، وثمرات المجاهدة وخصال أهلها ، ثمَّ يشعّب الحديث عن الأحوال والمقامات كالْتَوَكُّل والصَّبْر وحُسن الخُلُق والشُّكر والصَّدق والرِّضا والتَّسليم ، والرُّهد والفقر وترك الحظوظ ، والمحبة وما يجب في حقِّها وما إلى ذلك ، ثمَّ يبسط القول في الولاية ومفهومها ، وفي التَّصَوُّف وأصله من العقيدة والعلم والعمل ، وختاماً - وفي الختام مسك - ينهي كتابه ببعض الوصايا الفريدة ودرر الحكمة الثمينة .

والناظر في هذا الكتاب وعباراته يجد أنَّ الإمام - رحمه الله تعالى - يلج دائماً على قاعدة أساسيَّة وهي أنَّه لا سبيل لبلوغ الغاية إلَّا من طريق الشرع .

فأحكام الشريعة وعقيدة السلف فيما يرى - رحمه الله تعالى - هي لبُّ التَّصَوُّف وآفاقه .

والم تأمل في كلامه - رحمه الله تعالى - يدرك أنَّه لا يحبُّ الخوض في دقائق المعرفة ورقائق الولاية ، ما دام كلامه للمريدين وأهل الابتداء ، ولا ريب أنَّ في إحجامه هذا خشية على العامة والمبتدئين من الافتتان بما

هو فوق طوقهم وإدراكهم ، وتطبيقاً حرفياً لدستور أهل التَّصَوُّف التَّقِيّ
الَّذِي نادى به أبو عمرو الدَّمَشْقِي حين قال : كما فرض الله على الأنبياء
إظهار الآيات والمعجزات ليؤمنَ النَّاسُ بها ، كذلك فرض الله على
الأولياء كتمان الكرامات حتّى لا يُفْتَنَّ بها الخلق .

وحسبي قبل أنْ أختتم الكلام عن هذا الكتاب أنْ أذكر القارئ الكريم
أنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - قد تناول هذا الكتاب فشرح
بعضه ، وقد جمع الأستاذ الدكتور محمّد رشاد سالم ذاك الشَّرح في كتابه
(مجموع الفتاوى) .

ولم يكتفِ ابن تيمية - رحمه الله تعالى - بهذا الشَّرح فحسب ، بل
أطنب في مدح الإمام الجيلانيّ حيث قال في بعض ما ذكره : والشيخ
عبد القادر من أعظم مشايخ زمانهم أمراً بالتزام الشَّرع والأمر والنَّهي ،
وتقديمه على الذَّوق والقدر ، ومن أكثر المشايخ أمراً بترك الهوى وكبح
جماح النَّفس .

فلينظر القارئ الكريم لهذا الكتاب نظرة متأمل متفتِّح الدَّهن ،
وليصغِ إلى كلام الإمام - رحمه الله تعالى - ويعتبر به فيكون من الفائزين .
وليعلم المرء أنَّ أهل الحقِّ والوصول لا يعرفون إلّا بشيئين : أحدهما
ظاهر والآخر باطن .

فالظاهر : يتجلّى في التَّمسُّك بالشَّريعة الصَّحيحة أمراً ونهياً .

والباطن : أنْ يكون سلوكه على مشاهدة البصيرة ، فيرى من يقتدي
به ؛ وهو النَّبِيُّ صَلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، ويكون واسطة بين الرَّبِّ تعالى
وبين روحانيّة النَّبِيِّ وجسمانيته في محله ، فإنَّ الشَّيْطَانَ لا يتمثَّل به ،
فيكون منه إشارة إليه ، وإلى مريديه السَّالِكِينَ ، فلا يكون سلوكهم على

العمى ، وهاهنا دقائق العلامات في التَّمييز لا يدركها إلا القليل .
فمن أراد السَّعادة الأبدية ، فالواجب عليه أن يمثل أمر الله ويجتنب
نهيهِ ، وأن يقوم على شكره .

نسأل الله أن يرزقنا دوام التَّوفيق ، وأن يوفِّقنا لما يقرَّبنا إليه في كلِّ
الأوقات ، وألا يجعلنا من المفتونين إِيَّه الفتاح العليم ، المنان الكريم
ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العليِّ العظيم .
تنويه :

لا بد لي في هذا المقام أن ألفت النَّظر إلى أمرين :
أما الأوَّل فيتعلَّق بطبعات الكتاب ، فقد طبع هذا الكتاب سابقاً
وبدون تحقيق علمي ، باسم (فتوح الغيب) ، وهذا خطأ واضح جلي ،
خصوصاً عندما نقرأ كلام الإمام - رحمه الله تعالى - في مقدِّمة هذا
الكتاب : (فمن جملة ما أمكن من تعبيرها اللِّسان ، وأظهرها
الكلام . . . كلمات برزت وظهرت لي من فتوح الغيب ، فحلَّت في
الجنان ، فأشغلت المكان) .

فيظهر لنا أنَّ أَسْم الكتاب قد أُخِذَ من مقدِّمته ، وأنَّ أَسْمه الحقيقي
ما قد ذكرته ، وإليه أشار المصنِّفون الَّذِينَ صَنَّفُوا في الكتب وأَسْماء
مؤلِّفيها .

أما الأمر الثاني فقد اعتمدت في نسخ هذا الكتاب طريقةً إملائيَّةً ،
لا أدعي لنفسِي السَّبق فيها ، فقد سبقني إليها كثيرٌ من الأساتذة والكتاب ،
الَّذين عرفوا بسعة الاطلاع والعلم ، أذكر منهم على سبيل المثال
لا الحصر : الأستاذ الكاتب والمحقِّق حمد الجاسر ، وأستاذنا الدُّكتور

محمّد عليّ سلطاني الذي له باع طويل في هذا المجال^(١) .
فمن هاذة الطّريقة :

١ - عدم احتذاء الرّسم القرآني ، لأنّه قد روعي فيه طرائق الأداء في
القراءات القرآنيّة لا القواعد الأساسيّة .

٢ - محاكاة الرّسم للصّوت في الإثبات لا في الإسقاط ، لأنّ هناك
كلمات خطؤها واضح لا يختلف فيه أثنان ، ويبقى الخطأ قائماً بلا سبب
سوى التقليد !! وهو غير كاف . وسأضرب أمثلة على ذلك .

٣ - ألزام القواعد وأطرادها ، ونبد كلّ استثناء يفلّ القاعدة .

إذن يجب علينا أن نفصل بين الرّسم القرآني وبين الرّسم الإملائي
المطابق للنطق ، لأنّ القاعدة القياسيّة فوق المألوف ، والخطأ لا يغدو
بشيوعه صواباً ، حيث إنّ الكتابة العربيّة في أيّامنا هاذة شهدت تعدّداً غريباً
ومشتتاً في طرائق الرّسم والكتابة ، وكلّ طريقة يدّعي أصحابها الاعتماد
على قواعد العلم الصّحيحة !! ممّا دفع ببعض المربّين أن يتّخذ أسلوباً
غريباً لحلّ هاذة المعضلة ، إذ عمد إلى تحكيم طلبة المدارس الإعداديّة
والثانويّة لاختيار ما يريدونه من هاذة الطّرائق الإملائيّة المتعدّدة ، ثمّ بناء
القاعدة على أكثرها شيوعاً بينهم ، فازدادت الحال سوءاً ؛ لأنّ مواقف

(١) . وقد قام الدّكتور سلطاني بوضع كتاب أسماه (قواعد مقترحة لتوحيد الكتابة العربيّة)
وهي محاضرة كان قد ألّقاها بندرة (مناهج اللّغة العربيّة للتعليم ما قبل الجامعي) ،
وقد نالت هاذة النّدوة الموافقة عليها بالإجماع مع التّوصية باعتمادها أساساً لتوحيد
قواعد الكتابة والإملاء من الوفود العربيّة المشاركة في هاذة النّدوة ، التي أقيمت في
رحاب جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة بالرياض .
وقد تشرّفت دار الفكر بدمشق بنشره ، التي عُرِفَتْ بنشر الموضوعات الهادفة
والرّصينة . فجزاهما الله خيراً .

التَّلاَمِيذُ تقومُ على الرِّغباتِ لا العلم ، وعلى المصادفة لا المنهجية والاطِّراد ، وتكليفهم بمثل هذا العمل الجليل وضعُ للأمور في غير نصابها .

وإنَّ النَّظَرَ في طرائق الرَّسْمِ القائمةِ ليكشفُ عن وقوعها في كثير من التَّنَاقُضِ والاضطراب وحالات الاستثناء ، ممَّا يجعل الحاجة مُلِحَّةً لايجاد ضوابطَ منطقيةً ميسرة ، تربط حلقات التُّراث العربي في طريق صاعدة ، تأخذ بالمعقول المطرود وتدع الشاذَّ المضطرب .

فاللُّغة ملكٌ للأجيال ، وكلُّ فردٍ إلى زوال ، والحقيقة العلمية فوق كلِّ اعتبار .

تجدد الإشارة هنا إلى أنَّ الرَّسْمَ العثمانيَّ للقرآن العظيم ليس توقيفي ، إنَّما وُضِعَ للقراء دون غيرهم ليتَّسع الرَّسْمُ لأكثر من قراءة ، مثال ذلك :

﴿ أولئك ﴾ [سورة البقرة ٢ / ٥] ، رسمت بلا ألف بعد اللام ليتَّسع هذا الرَّسْمُ لقراءةٍ أُخرى بتغليظ اللام ، وهي قراءة الأزرق وورش .

﴿ هؤلاء ﴾ [سورة البقرة ٢ / ٣١] ، رسمت بلا ألف بعد الهاء ليتَّسع هذا الرَّسْمُ لقراءةٍ بالقصر ، وهي قراءة حمزة الكوفي .

ولا بأس أنْ أذكر في هذا الموضع إلى أيِّ قد جعلتُ الأخطاء الإملائية ، وصوابها المعتمد في كشافٍ صغيرٍ في صفحة منفردة في غرة هذا الكتاب .

وأخيراً : وبعد أنْ فرغت من تحقيق هذا الكتاب ، دفعته إلى أستاذي وأخي وصديقي : الأستاذ محمَّد زكريَّا الزَّعيم ، لينظر فيه ويقوم خطاه ، فقام بذلك على أتمِّ وجهٍ ، وتفضَّل عليَّ بصياغة عناوينه الدَّاخلية بأسلوب

بلاغي ممتع ، وقدّم للكتاب بكلمة جامعة ، أحاطت بالموضوع ولمّت شتاته ، ولخصت قواعده وسبرت أغواره .

فله شكري ومحبتّي وعظيم أمتناني ، انطلاقاً من قوله ﷺ : « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ » .

كما أتوجّه بالشُّكر الكبير للأخ الفاضل زياد الشُّروجي (صاحب مؤسسة البصائر للصفّ التصويري) على جهده الاستثنائي والمتميّز من أجل إخراج هذا العمل ضمن الوقت الضيق .

والشُّكر أيضاً لأستاذي ومعلمي فن الخطّ والكتابة ، الذي أزدان الكتاب بريشته ، الأستاذ المِفَنّ أحمد الباري خطّاط بلاد الشام .

والشُّكر الأوفى لصديقي وأخي في الله المهندس محمّد مازن الفوّال على جهده ونُصحته لي في أطوار تحقيق الكتاب وطبعه .

والشُّكر الأوّل والأخير دائماً لوالدي الشَّيخ المُقرئ نصح محمّد أمين عزقول ، الذي لم يألُ جهداً في تربيتي وتوجيهي ودعّمي بكلّ ما أوتي من إمكانيات متاحة .

وأتوجّه لكلّ من ساهم في إنجاز هذا العمل بجزيل الشُّكر والمحبة والامتنان ، داعياً لهم المولى عزّ وجلّ أن يسدّد خطاهم وأن يوفّقهم لما يحبُّ ربُّنا ويرضى .

نسخ الكتاب

أ - المخطوطة :

النسخة الأولى (وهي الأصل) : نسخة دار الكتب الظاهرية بعنوان : (فتوح الغيب) ، تقع في ثمان وستين ورقة ، سطورها سبعة عشر سطراً ، وهي نسخة جيدة الخط ، ذات خطٍ نسخي جميل ، وورقها جيد وتجليدها فاخر ، ذات الرقم (٥٩٠٨) ، عليها تملُّك باسم محمَّد المبارك الحسني . وقد اعتمدت هذه النسخة أصلاً .

النسخة الثانية : هي نسخة دار الكتب الظاهرية بعنوان : (آداب السلوك والتَّوَصُّل إلى منازل الملوك) ، عدد أوراقها سبع وثمانون ورقة ، ومتوسَّط عدد أسطرها ثلاثة عشر سطراً ، خطُّها نسخي معتاد ، ذات الرقم (٦٢٢١) ، استكتبها لنفسه إسماعيل المواهبي القادري ، المدرِّس بحلب .

النسخة الثالثة : نسخة دار الكتب الظاهرية بعنوان : (الكشف وفتوح الغيب) تقع في خمس وستين ورقة ، عدد أسطرها خمسة عشر سطراً ، يرجع تاريخ نسخها إلى سبع وتسعمئة للهجرة ، خطُّها نسخي متقدِّم ، بها خرم في منتصفها ، قام بنسخها أحمد بن عمر الحنفي الشَّهيد بابن عبد السَّلام ، تحمل الرقم (٨٣٣٧) .

النسخة الرابعة : نسخة دار الكتب الظاهرية بعنوان : (فتوح الغيب) ، عدد أوراقها تسع وخمسون ورقة ، وهي ضمن مجموع ، يبدأ الكتاب من الورقة تسعين وينتهي بالورقة تسع وأربعين ومئة ، عدد

أسطرها تسعة عشر سطراً ، خطُّها نسخي معتاد ، بعض الأوراق بها خرم ، رُقمت وكتب مكان التَّرميم بخطِّ مغاير ، قام بنسخها سُليمان بن محمَّد الحواط ، رقمها (٨٦٥٥) .

النُّسخة الخامسة : نسخة المكتبة الأحمديَّة بحلب بعنوان : (فتوح الغيب) ، تقع في اثنتين وخمسين ورقة ، عدد سطورها واحد وعشرون سطراً ، خطُّها نسخي معتاد ، ليس عليها ما يشير إلى أَسْم ناسخها ولا تاريخ نسخها ، وقد تركت فراغات بها لتُكتب رؤوس الفقر بمداد ذي لون مُغاير ، رقمها (١٤١٠٣) .

وهناك نسخ أخرى لم أَعتمدها لأنَّها متأخِّرة النَّسخ .

ب - المطبوعة :

الأوَّلَى : طبعت في أَسْتنبول سنة ١٢٨١هـ ، وهي محفوظة في دار الكتب الظَّاهريَّة برقم (٢٥٣٠) . وهي نسخة جيدة أمام مثيلاتها ، لا تخلو من التَّصحيف والسَّهو ، خصوصاً أنَّ ناشرها قد أَعتمد على نسخة خطيَّة واحدة^(١) .

الثَّانية : طُبعت في المطبعة الميمنيَّة سنة ١٣١٧هـ ، وهي نسخة مليئة بالأخطاء والتَّصحيف .

الثَّالثة : طُبعت في مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٢٩هـ ، بهامش كتاب (بهجة الأسرار ومعدن الأنوار) للشطنوفي .

الرَّابعة : طُبعت في مطبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٣٨هـ ، بهامش كتاب (قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر) للتادفي . وكلتا الطَّبعَتين (الثَّالثة والرَّابعة) مليئة جدّاً بالأخطاء .

الخامسة : طُبعتُ في مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٣٩٢ هـ .

وقد قام الناشر المحترم بإلحاق جملة قصائد بهاذة الطَّبعة ، نَسَبَهَا للإمام الجيلاني - رحمه الله تعالى - وهي ليست للإمام الجيلاني ، إنما هي للإمام عبد الكريم الجيلي ، ومنها (قصيدة النّادرات العينية) ، ويبدو لي أنَّ الناشر كان على علم بأنَّ هاذة القصيدة وغيرها ليست للإمام الجيلاني ، لأنَّه قد قام بحذف الأبيات الَّتِي ترجم فيها الإمام عبد الكريم الجيلي لنفسه ذاكراً تاريخ مولده ، فحذفها وكتب مكانها : (بياض في الأصل) !!؟

وهاذة الطَّبعة مليئةٌ بالأخطاء والنقص والخرم .

السادسة : طُبعت في مكتبة دار الألباب بدمشق سنة ١٤٠٦ هـ ، كُتِبَ عليها : ضبطها ووثّقها محمّد سالم بواب ، وقد أشار إلى أنَّه قد اعتمد في عمله هاذاً على الطَّبعة الثّانية والخامسة ، وكلتا الطَّبعتين مليئتان بالأخطاء والتّصحيف والنقص والخرم - كما أسلفت - .

وقد ذكر ضابط الكتاب أنَّه قد قابل الطَّبعتين وأثبت ما هو مناسبٌ للنّص - كما فهمه هو - وعند الرُّجوع إلى الطَّبعة ومقابلتها ظهر لي أنَّ ما أُثبت في الهامش أصحُّ ممّا أُثبت في نصّ الكتاب !!

فجاءت هاذة الطَّبعة أيضاً مليئةٌ بالأخطاء والتّحريف - خصوصاً أنَّه اعتمد على طبعتين سقيمتين كما أشرت - كما أنَّه قد ألحق بها القصائد الشّعريّة المُلحقة في الطَّبعة الخامسة ، الَّتِي ذكرت أنَّها ليست للجيلاني .

وعذرنا لضابط الكتاب وموثّقه أنَّه لم يتمكّن من الوقوف على نسخ خطيّة ونسخ مطبوعة عديدة لمقابلتها .

ويحسن بي أَنْ أُشير في هذا المقام إلى أَنَّ بعض تلامذة الجيلانيّ - رحمه الله تعالى - ومحبّيه قد نسب إليه عدّة قصائد شعريّة ، علماً بأنّ الإمام الجيلاني لم ينظم الشّعْر ما خلا أبيات متفرّقة ، ويبدو لي أنّ مريدي الشّيخ ما نسبوا إليه هذا الشّعْر إلّا لإعلاء مكانته ورفع منزلته بين أعلام التّصوّف .

وهناك نسخة جديدة لم أعتمدها ، صدرت عن دار القادري بدمشق وببيروت بعنوان : (شرح فتوح الغيب) لشيخ الإسلام ابن تيمية ؟! أعتنى بها الأستاذ حسن السّماحي سويدان .

وقد أعتد في إخراج هذه الطّبعة على مطبوعتي : (أستنبول ، ومصطفى البابي الحلبي - التي لم يُشر إلى تاريخ طبعها -) ، فجاءت هذه الطّبعة مماثلة لما سبقها ، غير أنّها مثقلة بأخطاء جديدة .

والجدير بالذّكر هنا أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية لم يشرح هذا الكتاب بأكمله ، بل أقتصر على شرح خمس مقالات من أصل ثمان وسبعين مقالة !! أسماها (شرح كلمات من فتوح الغيب) .

لاكنّ معدّ الكتاب قد حذف كلمة (من) التّبعية ليوهم القارئ أنّ ابن تيمية قد قام بشرحه كاملاً ! وما إخال ذلك إلّا لأغراض تجاريّة بحتة .

عملي في الكتاب

١ - بعد نسخ النسخة المعتمدة أصلاً ، قابلتها على النسخ الأخرى ،
فما كان بين النسخ أدنى خلاف أثبت ما في الأصل ، إلا أن يكون خطأً
ظاهراً أو زيادات ليست في الأصل فأثبت ما في النسخ الأخرى ، وميزته
بـ : { } .

٢ - أضفت ما كان مناسباً من العبارة ليستقيم المعنى ، وميزته بـ :
[] .

٣ - ضبطت نصّ الكتاب ضبطاً أرجو العليّ القدير أن يكون صحيحاً
كما أراده مؤلف الكتاب - رحمه الله تعالى - .

٤ - خرّجت الآيات الشريفة بذكر أسم السورة وترتيبها في القرآن
العظيم ورقم الآية .

٥ - خرّجت الأحاديث النبويّة الشريفة ، مع ذكر الحكم عليها ، عدا
بضعة أحاديث لم أعر عليها فيما لديّ من المصادر .

٦ - وضّحت ما كان غامضاً ومبهماً بالشرح والتبيان .

٧ - تمّ عنوانه مقالات الكتاب بعنوانات مناسبة .

وإليك عزيزي القارئ أقدم هذا الكتاب ، الذي ركبت فيه كلّ
صعب ، وبذلت فيه طوقي وأستفدت طاقتي . فإن أصبت فيها ونعمت ،
وإن قصّرت عن بلوغ الهدف ، فحسبي بذل الجهد وحسن النيّة فيما
أرتضيت .

أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَلِيِّ الْقَدِيرَ أَنْ يَنْفَعَنِي وَجَمِيعَ الْمُسْلِمِينَ بِهَذَا السَّفَرِ ، وَأَنْ
يَجْعَلَ عَوْنًا عَلَيَّ طَاعَتِهِ ، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا لِمَا يَقْرَبُنَا إِلَيْهِ ، وَأَلَّا يَجْعَلَنَا مِنَ
الْمُفْتُونِينَ ، وَلَا يَجْعَلَ حِظَّنَا - مِنْ هَذَا - جَمْعَهُ وَحِفْظَهُ دُونَ الْمَجَاهِدَةِ
فِيهِ ، بِفَضْلِهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَٰلِكَ .
وَأَخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

محمّد بن غسان
نصوص عز وقل

دمشق : ١٤ / ربيع الثاني / ١٤١٦ هـ
٩ / أيلول / ١٩٩٥ م

ترجمة

الشيخ عبد القادر الجيلاني (١)

قدس سره والعالين

أسمه ونسبه :

الشيخ الإمام الزاهد العارف القدوة ، شيخ الإسلام ، سلطان الأولياء ، إمام الأصفياء ، مُحيي الدين والسُّنة ومميت البدعة ، أبو محمّد عبد القادر بن أبي صالح عبد الله (٢) بن جنكي دوست (٣) بن يحيى بن محمّد بن داود بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن (٤) بن علي بن أبي طالب (٥) .

الجيلي ، الشافعي ، الحنبلي ، شيخ بغداد .

وهو سبط أبي عبد الله الصومعي ، ينسب إلى جيلان (٦) . والصومعي

(١) تمّت كتابة هذه الترجمة بالتعاون مع الأخ الأستاذ خالد الزُرعي ، ونشرت ضمن كتابنا (سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار) ، للجيلاني رحمه الله تعالى .

(٢) قال ابن رجب في « الطبقات » هو : عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله - أي : بزيادة لفظ (ابن) - وقال ابن الوردي في « تَمَمّة المختصر في أخبار البشر » ، ج ٢/ ١٠٧ هو : عبد القادر بن أبي صالح موسى جنكي دوست . وقال الزركلي في « الأعلام » ، ج ٤/ ٤٧ هو : عبد القادر بن عبد الله .

(٣) قال الحلبي في « قلائد الجواهر » ، ص ٣ : هاذا لفظ أعجمي ومعناه : يحب القتال . والله أعلم .

(٤) قال ابن شاکر الكتبي في « فوات الوفيات » ، ج ٢/ ٣٧٣ : ينتهي نسبه إلى الحسين بن علي بن أبي طالب .

(٥) « الطبقات » : لابن رجب . جامع كرامات الأولياء : للنبهاني ، ج ٢/ ٢٠٤ .

(٦) قال البغدادي في « المراصد » ، ج ١/ ٣٦٨ : جيلان : أسم لبلاد كثيرة من وراء بلاد =

من كبار مشايخ جيلان ، مشهور بالكرامات والأحوال^(١) .
 أمّه أُم الخير أُمّة الجبّار ، فاطمة بنت أبي عبد الله الصّومعي ، وهي
 أيضاً ذات كرامات وأحوال^(٢) .
 مولده وموطنه وأوصافه :

ولد الشّيخ - رحمه الله تعالى - بمنتصف شهر رمضان في سنة إحدى
 وسبعين وأربع مئة بجيلان^(٣) ، وبها أمضى فترة شبابه الأوّل إلى أن بلغ
 الثامنة عشرة سنة ، فارتحل إلى بغداد ، ودخلها سنة ثمان وثمانين وأربع
 مئة^(٤) ، وأستمر فيها إلى نهاية حياته .

كان الشّيخ - رحمه الله تعالى - نحيف البدن ، مربوع القامة ، عريض
 الصّدر ، عريض اللّحية ، طويلها ، أسمر اللّون ، مقرون الحاجبين ،
 ذات صوت جهوّرِيّ ، وسمت بهي^(٥) ، وقدر عليّ ، وعلم وفيّ^(٦) .
 نشأته وطلبه العلم :

رأت عيون الشّيخ - رحمه الله تعالى - النّور في بيئة معروفة بالعلم ،
 ومؤيّدّة بالكرامات ؛ فأبوه من كبار علماء جيلان ، وأُمّه من عُرِفَت
 بالكرامات ، وهي أبنّة أبي عبد الله الصّومعي العارف العابد الزّاهد ،

-
- = طبرستان ، وهي قرى كلّها في مروج بين جبال وعلى ساحل بحر طبرستان .
 (١) تنمّة المختصر في أخبار البشر : لابن الوردي ، ج ٢ / ١٠٨ .
 (٢) قالت أمّه : لمّا وضعت ابني عبد القادر كان لا يرضع ثدييه في نهار رمضان [قلائد
 الجواهر في مناقب عبد القادر : للتادفي ، ص ٣] .
 (٣) سير أعلام الثّبلاء : للذهبيّ ، ج ٢٠ / ٤٣٩ .
 (٤) سير أعلام الثّبلاء : للذهبيّ ، ج ٢٠ / ٤٤٣ نقلاً عن ابن النّجّار في « تاريخه » .
 (٥) قال ابن منظور في « اللسان » ، ج ٢ / ٤٦ : السّمتُ : حُسن الحديث ، وحسن
 الجوار ، وقلة الأذية وآتباع الحقّ والهدى .
 (٦) مختصر طبقات الحنابلة : لابن شطيّ ، ص ٤١ .

فاستشق الهواء من بيوت العلم والفقه والمعرفة والحقيقة .

عَلِمَ - رحمه الله تعالى - أَنَّ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، فشَمَّرَ عن ساعد الجدِّ والتَّحصيل ، وسارع في طلبه ، قاصداً أعلام الهدى من علماء هذه الأُمَّة ، فابتدأ حياته بقراءة القرآن العظيم حتَّى أتقنه . درسهُ على أبي الوفا عليّ بن عَقيل الحنبلِيّ ، وأبي الخطَّاب محفوظ الكلَّوْاذاني الحنبلِيّ ، وغيرهم كثير .

وسمع الحديث الثَّبَوِّي الشَّريف على كثيرٍ من مشاهير عصره من الحفاظ ، كأبي غالب محمَّد بن الحسن البلاقلاني ، وغيره .

وتفقه على أيدي مشاهير عصره من العلماء والفقهاء ، كأبي سعد المُخرَّمِي ، الَّذِي أَخَذَ عنه الخِرقة الشَّريفة .

وتعلَّم الأدب واللُّغة على أبي زكريا يحيى بن عليّ التَّبْرِيْزِيّ . وصاحب حمَّاد الدَّبَّاس وأخذ عنه علم الطَّريقة .

فألَم بعلوم الشَّريعة والطَّريقة واللُّغة والأدب ، حتَّى بلغ شأواً بعيداً ، فكان إمام الحنابلة ، وشيخهم في عصره ، وأظهر الله تعالى الحكمة من قبله على لسانه في مجالس الوعظ .

جلس للوعظ في شوال سنة إحدى وعشرين وخمسمئة ، في مدرسة أبي سعد المُخرَّمِي ، بباب الأَزَج في بغداد ، وذاع له صيتٌ كبير في الرُّهد ، فضافت المدرسة بالناس ، ممَّا أضطره إلى توسعتها ، حتَّى نقل مجلسه إلى خارج بغداد عند المصلَّى ، فقد أصبح يحضر مجلسه عدد كبير من الناس قُدِّر بسبعين ألفاً .

وتتلمذ على يديه عدد كبير من الفقهاء والعلماء والمحدثين وأرباب الأحوال والمقامات^(١) .

صنّف مصنّفات عديدة في الأصول والفروع ، وفي أهل الأحوال والحقائق^(٢) ، نذكر منها :

١ - إغاثة العارفين وغاية منى الواصلين^(٣) .

٢ - أوراد الجيلانيّ وأدعيته^(٤) .

٣ - آداب السلوك والتّوصل إلى منازل الملوك^(٥) وهو هاذو الكتاب .

٤ - تحفة المتّقين وسبيل العارفين^(٦) .

٥ - جلاء الخاطر في الباطن والظاهر^(٧) .

٦ - الرّسالة الغوثيّة^(٨) .

٧ - رسالة في الأسماء العظيمة للطّريق إلى الله^(٩) .

٨ - الغنية لطالبي طريق الحقّ^(١٠) .

(١) مختصر طبقات الحنابلة : لابن شطي ، ص ٤١ .

(٢) سير أعلام النّبلاء : للذهبيّ ، ج ٢٠ / ٤٤٤ .

(٣) المستدرك على معجم المؤلّفين : عمر كخالة ، ص ٤٠١ .

(٤) المستدرك على معجم المؤلّفين : عمر كخالة ، ص ٤٠١ . وسوف يصدر قريباً بتحقيقي إن شاء الله تعالى .

(٥) معجم المؤلّفين : عمر كخالة ، ج ٥ / ٣٠٧ .

(٦) إيضاح المكنون : مير سليم ، ج ١ / ٢٥٧ .

(٧) وقد قام بتحقيقه ونشره الأستاذين خالد الزّرعى وعبد الناصر سرّي جزامهما الله خيراً .

(٨) كشف الطّنون : حاجي خليفة ، ج ١ / ٨٧٩ .

(٩) وقد قمت بتحقيقه ونشره ، وله أسم آخر وهو (الطّريق إلى الله) .

(١٠) كشف الطّنون : حاجي خليفة ، ج ٢ / ١٢١١ . وهو مطبوع قديماً . وبدأت العمل بتحقيقه ، أرجو الله أن يعينني على إتمامه .

٩ - الفتح الرَّبَّاني والفيض الرَّحْماني^(١) .

١٠ - معراج لطيف المعاني^(٢) .

١١ - يواقيت الحكم^(٣) .

لعلَّ هاذِهِ المصنَّفات هي الأشهر بين مصنَّفاتهِ العديدة .

كان - رحمه الله تعالى - يتكلَّم في ثلاثة عشر علماً . وكان يُقرَأُ عليه بمدرسته في طرفي النَّهار دروسٌ في التَّفْسير ، وعلوم الحديث ، والمذهب ، والخلاف ، والأصول ، والنَّحو . وكان يقرَأُ القرآن بالقراءات بعد الظُّهر .

أفتى - رحمه الله تعالى - على مذهب الإمام الشَّافعيّ ، ثمَّ أفتى على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وكانت فتاواه تُعرض على العلماء بالعراق ، فتعجبهم أشدَّ الإعجاب ، فيقولون : سبحان من أنعم عليه .
شيوخه :

أخذ - رحمه الله تعالى - نور العلم عن كثير من العلماء الَّذِينَ تعدَّدت مذاهبهم ، وتنوَّعت أختصاصاتهم العلميَّة ، نذكر من أبرزهم :
أ - في علم الحديث النَّبويِّ الشَّريف :

١ - المحدث أبو محمَّد جعفر بن أحمد بن الحسن بن أحمد البغداديّ ، السَّراج ، القاريّ ، الأديب [٤١٧ - ٥٠٠ هـ] ^(٤) .

(١) معجم المؤلفين : عمر كخالة ، ج ٣٠٧/٥ . وهو مطبوع قديماً .

(٢) كشف الظُّنون : حاجي خليفة ، ج ١٧٣٨/٢ .

(٣) كشف الظُّنون : حاجي خليفة ، ج ٢٠٥٣/٢ .

(٤) سير أعلام النبلاء : للذهبيّ ، ج ١٩/٢٢٨ ، ج ٢٠/٤٤٠ .

٢ - المحدث أبو غالب محمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن بن خداداد الباقلائي [٤٢٠ - ٥٠٠ هـ] ^(١) .

٣ - الشيخ الصدوق أبو سعد محمد بن عبد الكريم بن خُشيش البغدادي [٤١٣ - ٥٠٢ هـ] ^(٢) .

٤ - الشيخ أبو بكر أحمد بن المظفر بن حسين بن عبد الله بن سُوسن التمار [٤١١ - ٥٠٣ هـ] ^(٣) .

٥ - الشيخ المُسند أبو القاسم علي بن أحمد بن محمد بن بيان بن الرزاز البغدادي [٤١٣ - ٥١٠ هـ] ^(٤) .

٦ - الشيخ الثقة أبو طالب عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن محمد بن يوسف البغدادي اليوسفي [٤٣٠ - ٥١٦ هـ] ^(٥) .

٧ - الشيخ المحدث أبو البركات هبة الله بن المبارك بن موسى البغدادي السقطي [٤٤٥ - ٥٠٩ هـ] ^(٦) .

٨ - الشيخ أبو العز محمد بن المختار بن محمد بن عبد الواحد بن عبد الله بن المؤيد بالله الهاشمي العباسي [٤٢٨ - ٥٠٨ هـ] ^(٧) .

ب - في علم الفقه :

-
- (١) سير أعلام النبلاء : للذهبي ، ج ١٩ / ٢٣٥ ، ج ٢٠ / ٤٤٠ .
 - (٢) سير أعلام النبلاء : للذهبي ، ج ١٩ / ٢٤٠ ، ج ٢٠ / ٤٤٠ .
 - (٣) لسان الميزان : لابن حجر العسقلاني ، ج ١ / ٣١١ .
 - (٤) سير أعلام النبلاء : للذهبي ، ج ١٩ / ٢٥٧ ، ج ٢٠ / ٤٤٠ .
 - (٥) سير أعلام النبلاء : للذهبي ، ج ١٩ / ٣٨٦ ، ج ٢٠ / ٣٨٧ .
 - (٦) لسان الميزان : لابن حجر العسقلاني ، ج ٦ / ١٨٩ - ١٩٠ .
 - (٧) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : لابن الجوزي ، ج ٩ / ١٨٢ .

العلامة شيخ الحنابلة أبو سعد المبارك بن المُخرَّمي البغدادي
[ت ٥١٣هـ] (١) .

٢ - العلامة شيخ الحنابلة أبو الوفاء علي بن عقيل بن محمد بن
عقيل بن عبد الله البغدادي الظفري [٤٣١ - ٥١٣هـ] (٢) .

٣ - الإمام شيخ الحنابلة أبو الخطاب محفوظ بن أحمد بن حسن بن
حسن العراقي الكلواذاني [٤٣٢ - ٥١٠هـ] (٣) .

ج - في علم الأدب واللغة :

١ - إمام اللغة أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن حسن بن إسحاق
الشَّيباني الخطيبُ التبريزي [٤٢١ - ٥٠٢هـ] (٤) .

تلاميذه :

سمع منه كثير من الخلق ، إذ كان يحضر مجلسه أكثر من سبعين
ألفاً ، منهم من كان يلزمه ملازمة تامّة ، وهم كثر ، نذكر من أشهرهم :

١ - الزاهد العابد شيخ العراق أبو علي الحسن بن مسلم بن
أبي الجود الفارسي العراقي [٤٠٤ - ٥٩٤هـ] . وقد أخذ عنه الفقه
والقرآن (٥) .

(١) سير أعلام النبلاء : للذهبي ، ج ١٩ / ٤٢٨ .

(٢) مختصر طبقات الحنابلة : لابن شطي ، ص ٤٠ - ٤٢ .

(٣) مختصر طبقات الحنابلة : لابن شطي ، ص ٣٥ - ٣٦ .

(٤) معجم الأدباء : لياقوت الحموي ، ج ٢٠ / ٢٥ - ٢٨ .

(٥) سير أعلام النبلاء : للذهبي ، ج ٢١ / ٣٠١ .

٢ - القدوة العارف أبو عبد الله محمد بن أبي المعالي بن قايد الأواني [ت ٥٨٤هـ] ^(١) .

٣ - قاضي الديار المصرية الإمام الزاهد الأوحى أبو القاسم عبد الملك بن عيسى بن درباس بن فير بن جهم بن عبْدوس الماراني الكردي الشافعي [٥١٦ - ٦٠٥هـ] ^(٢) .

٤ - الإمام الحافظ الأثري أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور بن رافع بن حسن بن جعفر المقدسي الحنبلي [٥٤١ - ٦٠٠هـ] وقد حدّث عنه ^(٣) .

٥ - الشيخ الإمام القدوة أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مِقدام بن نصر المقدسي الحنبلي (صاحب المُغني) [٥٤١ - ٦٢٠هـ] ^(٤) . قال : أقمنا عنده في مدرسته شهراً وتسعة أيّام ثمّ مات ^(٥) .

٦ - الشيخ المُسند أبو المعالي أحمد بن عبد الغني بن محمد بن حنيفة الباجِسراني الثاني [٤٨٩ - ٥٦٣هـ] ^(٦) .

٧ - القاضي أبو المحاسن عمر بن علي بن الخضر القرشي [٥٢٥ - ٥٧٥هـ] ^(٧) .

(١) الوافي بالوفيات : للصفدي ، ج ٤ / ٣٥٢ .

(٢) التكملة لوفيات الثّقلة : للمندري ، ج ٢ / ١٥٦ .

(٣) سير أعلام النبلاء : للذهبي ، ج ٢١ / ٤٤٣ - ٤٧١ .

(٤) فوات الوفيات : لابن شاکر الكتبي ، ج ٢ / ٢٩٥ - ٢٩٦ .

(٥) العبر في خبر من غبر : للذهبي ، ج ٣٦ .

(٦) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : لابن الجوزي ، ج ١٠ / ٢٢٣ .

(٧) الكامل في التاريخ : لابن الأثير ، ج ١١ / ٤٦١ .

٨ - الإمام الحافظ الثَّقة أَبُو سعد عبد الكريم بن مُحَمَّد بن منصور بن مُحَمَّد بن عبد الجَبَّار التَّمِيمِي السَّمْعَانِي [٥٠٦ - ٥٦٢ هـ] ^(١) .

٩ - الشَّيْخ الثَّقة أَبُو طالب عبد اللطيف بن مُحَمَّد بن علي بن حمزة بن فارس بن القُبَيْطِي الحَرَّانِي [٥٥٤ - ٦٤١ هـ] ^(٢) .

١٠ - الشَّيْخ العدل أَبُو العَبَّاس أحمد بن المفرَج بن علي بن عبد العزيز بن مَسْلَمَة الدَّمَشَقِي [٥٥٥ - ٦٥٠ هـ] ^(٣) .

أشهر علماء عصره :

يَتَسَمَّ القرن الخامس في تاريخ الإسلام بسعة في العلم ، وتقدُّم في الآداب ، قد نبغ فيه علماء كبار ومؤلفون بارعون . قد كان من رجال آخر هذا القرن العلامة (أَبُو إِسْحَاق الشَّيرَازِي) ، و (حَجَّة الإسلام الغزالي) ، و (أَبُو الوفاء أَبْن عقيل) ، و (عبد القاهر الجرجاني) ، و (أَبُو زكريا التَّبْرِيْزِي) ، و (أَبُو القاسم الحريري) ، و (جار الله الزَّمْخَشَرِي) ، و (القاضي عياض المالكي) ، الَّذِينَ ظلُّوا قرونًا مسيطرين على العقول والاتجاهات ، وكانوا مدارس أدبيَّة وعلميَّة ، لم يكن لأحد في هذا العهد الزَّاخر بالحياة العلميَّة ونوابع الفنِّ كالقرن الخامس والسادس ، وفي بلد زاهر بالمدارس وحلقات الدُّروس كَبْغَدَاد ، أَنْ يُوَثَّر في مجتمعه الَّذي قطع شوطاً واسعاً في العلم ، وَاُنتَشَرَت الثَّقَافَة في طبقاته اُنتشاراً كبيراً ، ولم يكن له أَنْ يَلْفَت إِلَيْهِ الْأَنْظَار ، وَيَنْفِذَ إِلَى أَعْمَاقِ التُّفُوسِ وَالْقُلُوبِ ، وَتَخْضَعَ لَهُ الطَّبَقَاتُ

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم : لابن الجوزي ، ج ١٠ / ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٢) سير أعلام النبلاء : للذهبي ، ج ٢٣ / ٨٧ .

(٣) سير أعلام النبلاء : للذهبي ، ج ٢٣ / ٢٨١ - ٢٨٢ .

المثقفة وحملة لواء العلم في عصره ، إلا إذا كان عالي الكعب طويل الباع في العلوم السائدة ، متضلعا من علوم الدين والدنيا ، قد أقرّ له معاصروه بالفضل ، وشهد له علماء بلده بغزارة العلم وسعة المعارف^(١) .

مناقبه :

للشيخ عبد القادر - رحمه الله تعالى - صفات حميدة ، ومآثر كثيرة ، فقد أشتهر بالأحوال والكرامات حتى تواترت عنه .

قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام : ما نُقلت إلينا كرامات أحد بالتواتر إلا الشيخ عبد القادر^(٢) . وكذا قاله شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -^(٣) .

دان جميع العلماء والأولياء في عصره للشيخ ؛ ففي الفقه برّ أقرانه العلماء ، وخضعت له رقاب الأولياء ، وقد أترف له سائر العلماء وسائر الأولياء بذلك ، وبايعوه بالسلطنة عليهم ، فأضحى سلطان الأولياء .

ولما أشتهر أمره اجتمع عليه مئة فقيه من أعيان فقهاء بغداد وأذكيائهم ، على أن يسأله كل واحد منهم مسألة واحدة في فن من العلوم غير مسألة صاحبه ، ليقطعوه بها ، وأتوا مجلس وعظه . فلما استقر بهم الجلوس ، أطرق الشيخ - رحمه الله تعالى - ، فظهرت من صدره بارقة من نور لا يراها إلا من شاء الله تعالى ، ومرت على صدور المئة ، ولا تمرّ على أحد منهم إلا بُهت وأضطرب ، ثم صاحوا صيحة واحدة ، ومزقوا ثيابهم ، وكشفوا رؤوسهم ، وصعدوا إليه فوق الكرسي ، ووضعوا

(١) رجال الفكر والدعوة : محمّد أبو الحسن الندوي .

(٢) شذرات الذهب في أخبار من ذهب : لابن العماد الحنبلي ، ج ٤ / ٢٠٠ .

(٣) تنمّة المختصر في أخبار البشر : لابن الوردي ج ٢ / ١١١ .

رؤوسهم على رجله ، وضجّ أهل المجلس ضجّة واحدة ، خال الناس منها أنّ بغداد قد زلزلت ، فجعل الشيخ يضمّ إلى صدره واحداً بعد الآخر ، حتّى أتى إلى آخرهم ، ثمّ قال لأحدهم : أمّا أنت فمسألتك كذا ، وجوابها كذا ، وهاكذا إلى أنّ أتمّ المئة ، فلمّا أنفض المجلس سألهم مُفرج بن نبهان ما شأنكم ؟ قالوا : إنّنا لمّا جلسنا فقدنا جميع ما نعرفه من العلم ، حتّى كأنّه لم يمرّ بنا قطّ ، فلمّا ضمّنا إلى صدره رجع إلى كلّ منا ما نزع من العلم^(١) .

لم ينخدع الشيخ - رحمه الله تعالى - بالمقامات التي أصبح يراها . بل عرف أنّ علم الحقيقة إنّما هو موافقة لرسوم الشريعة مع علم المعرفة ، وأيّ مخالفة لعلم الشريعة يعني ولوج الشيطان في السلوك ، ولو كان ولياً .

يقول الشيخ - رحمه الله تعالى - : خرجت في بعض سياحاتي إلى البريّة ، ومكثت أياماً لا أجد ماء ، فاشتدّ بي العطش ، فأظلمتني سحابة ونزل عليّ منها شيء يشبه الندى ، فرويت ، ثمّ رأيت نوراً أضاء به الأفق ، وبدت لي صورة ، ونوديت يا عبد القادر : أنا ربّك ! وقد أحللت لك المحرّمات ، أو قال : ما حرّمت عليّ غيرك ، فقلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، إخساً يا لعين ، فإذا ذلك التور ظلام ، وتلك الصّورة دخان ، ثمّ خاطبني وقال : يا عبد القادر ، نجوت منّي بعلمك بحكم ربّك ، وقوّتك في أحوال منازلنا ، ولقد أضللت بهاذه الواقعة سبعين من أهل الطريق ، فقلت : لربي الفضل والمنة . قال : فليل له :

(١) قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر : للتادفي ، ص ٣٣ .

كيف علمت أنه شيطان؟ قال : يقول : أحللت لك المحرمات^(١) .

ويقول - رحمه الله تعالى - حاثاً على التمسك بالكتاب والسنة والتزام نهج أتباع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : كل حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة ، طر إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة ، أدخل عليه ويدك في يد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، أجعله وزيرك ومعلمك ، دع يده تزيتك وتمشطك وتعرضك عليه^(٢) .

كان - رحمه الله تعالى - يتكلم على الخواطر في مجلسه رغم أن مجلسه يضم سبعين ألفاً ، وقد كثر تواتر الروايات حول ذلك ، يقول الشيخ أبو بكر العماد - رحمه الله تعالى - : كنت قرأت في أصول الدين ، فأوقع عندي شكاً ، فقلت : حتى أمضي إلى مجلس الشيخ عبد القادر ، فقد ذكر أنه يتكلم على الخواطر ، فمضيت وهو يتكلم ، فقال : أعتقدنا اعتقاد السلف الصالح والصحابة . فقلت في نفسي : هاذا قاله اتفاقاً ، فتكلم ثم ألفت إلى ناحيتي ، فقلت : الواعظ قد يلتفت ، فالتفت إليّ ثالثة ، وقال : يا أبا بكر ، فأعاد القول ، ثم قال : قم قد جاء أبوك . وكان غائباً ، فقمتم مبادراً ، وإذا أبي قد جاء^(٣) .

وفي ذلك يقول الشهروردي : عزمت على الاشتغال بأصول الدين ، فقلت في نفسي : أستشير الشيخ عبد القادر ، فأتيته ، فقال قبل أن أنطق : يا عمر ، ما هو من عدة القبر . يا عمر ، ما هو من عدة القبر^(٤) .

كان - رحمه الله تعالى - في شبابه حينما يشتغل بالعلم ويطرقة

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب : لابن العماد الحنبلي ، ج ٤ / ٢٠٠ .

(٢) الفتح الرباني والفيض الرحماني ، المجلس الرابع والأربعون .

(٣) سير أعلام النبلاء : للذهبي ، ج ٢٠ / ٤٤٢ .

(٤) طبقات الحنابلة : لابن رجب الحنبلي ، ج ١ / ٢٩٦ - ٢٩٧ .

الحال ، يخرج إلى الصَّحاري ليلاً أو نهاراً ، هائماً على وجهه ، حتَّى يسمعه العيَّارون^(١) ، فيفزعوا من شدَّة صيحته ، فيحسبوه ميّتاً . وكان - رحمه الله تعالى - يهْمُ بعد ذلك بالخروج من بغداد ، فيسمع هاتفاً أنَّ أَرَجِعْ إلى النَّاسِ فَإِنَّ فِيكَ مَنْفَعَةً .

وهاذا ما يفسِّر إقبال الخلق الكثير الذين يحضرون دروسه ، ويتوبون عليه ، والخلق الكثير من النَّصارى واليهود الذين أسلموا على يديه^(٢) .

قال أبو الشَّاء النَّهرملكي : تحدَّثنا أنَّ الدُّبَّاب ما يقع على الشَّيخ عبد القادر . فَأَتَيْتُهُ ، فَالْتَفَتَ إِلَيَّ ، وَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ يَعْمَلُ عِنْدِي الدُّبَّابُ ، لَا دِئْسُ الدُّنْيَا ، وَلَا عَسَلُ الْآخِرَةِ^(٣) .

عُرِفَ الشَّيْخُ - رحمه الله تعالى - بِالْإِيْمَانِ الرَّاسِخِ ، وَعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ السَّلِيمَةِ ، فَلَمْ تَغْرَهُ الدُّنْيَا ، وَلَمْ يَنْظُرْ إِلَى زَخْرَفِهَا ، وَرَأَى أَنَّ الْأَسْبَابَ إِنَّمَا هِيَ بِيَدِ الْمُسَبِّبِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلَيْسَتْ الْأَسْبَابُ بِيَدِ الْخَلْقِ مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْأُمَرَاءِ وَالْمُتَنَفِّذِينَ ، يَضْرِبُ عَلَى ذَلِكَ مَثَلًا فِي تَحْقِيرِ هَاؤُلَاءِ الْخَلْقِ : أَجْعَلِ الْخَلِيقَةَ أَجْمَعَ كَرَجُلٍ كَتَفَهُ سُلْطَانٌ عَظِيمٌ مُلْكُهُ ، شَدِيدٌ أَمْرُهُ ، مَهُولَةٌ صَوْلَتُهُ وَسَطْوَتُهُ ، ثُمَّ جَعَلَ الْغُلَّ فِي رَقَبَتِهِ مَعَ رَجْلِيهِ ، ثُمَّ صَلَبَهُ عَلَى شَجَرَةٍ الْأَرْزِ ، عَلَى شَاطِئِ نَهْرٍ عَظِيمٍ مُوجِّهِ ، فَسِيحَ عَرْضُهُ ، عَمِيقَ غُورِهِ ، شَدِيدَ جَرِيهِ ، ثُمَّ جَلَسَ السُّلْطَانُ عَلَى كُرْسِيِّ عَظِيمٍ قَدْرُهُ ، عَالِيَةِ سَمَاوِهِ ، بَعِيدَ مَرَامِهِ وَوُصُولِهِ ، وَتَرَكَ إِلَى جَنْبِهِ أَحْمَالًا مِنَ السَّهَامِ وَالرَّمَاكِحِ وَالنَّبْلِ وَأَنْوَاعِ السَّلَاحِ وَالْقَسِيِّ مِمَّا لَا يَبْلُغُ قَدْرَهَا غَيْرُهُ ، فَجَعَلَ يَرْمِي إِلَى

(١) العيَّار : الشُّطَّار .

(٢) شَذَرَاتُ الذَّهَبِ فِي أَخْبَارِ مَنْ ذَهَبَ : لابن العماد الحنبلي ، ج ٤ / ٢٠٢ ، بتصرُّف .

(٣) سِيرُ أَعْلَامِ النُّبَلَاءِ : لِلذَّهَبِيِّ ، ج ٢٠ / ٤٤٨ .

المصلوب بما شاء من ذلك السّلاح ، فهل يحسن لمن رأى ذلك أن يترك النّظر إلى السّلطان ، ويترك الخوف منه والرّجاء له ، ويخاف من المصلوب ويرجو منه ؟ أليس من فعل ذلك يسمّى في قضية العقل عديم العقل مجنوناً ، بهيمة غير إنسان ؟!

كان - رحمه الله تعالى - سريعة الدّمعة ، شديد الخشية ، كثير الورع ، مجاب الدّعوة ، كريم الأخلاق ، طيّب الأعراق ، أبعد الناس عن الفحش ، أقرب الناس إلى الحقّ ، شديد البأس إذا أنتهكت محارم الله ، ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لغير الله ، ولا يردّ سائلاً ولو بأحد ثوبيه^(١) .

لعلّ ما ذكرناه من الكرامات والمناقب تختصّ في العلم والعلماء وشرفه ورفعته ومنزلته فوقهم جميعاً ، لاكن لو ذهبنا نتلمّس كراماته الأخرى لوجدناها كثيرة جداً ، ولما أستطعنا حصرها ، كما أشار إلى ذلك أغلب العلماء ، فقد أفردوا الكثير من المصنّفات التّفيسة في مناقبه وكراماته ، آثرنا إثباتها لمن يحبّ الاطلاع^(٢) .

(١) تفريج خاطر : الأربلي ، ص ١٥ .

(٢) المخطوطة : مناقب عبد القادر الجيلاني : ق ٥٢/أ - ٥٩/ب ، ظاهريّة عام ٤٦٥٦ .
نبذة من مناقب عبد القادر الجيلاني : ق ١٠٥/أ - ١١٠/ب ، ظاهريّة عام ١٣٦٧ .
مناقب عبد القادر الجيلاني : ظاهريّة تاريخ ٧٤ . تنور الأولياء ورموز الأصفياء : ق ٣٤/أ - ٣٥/أ ظاهريّة عام ١٩٨٢ . المطبوعة : الكواكب الدريّة في مناقب القادريّة : محمّد رشيد الرافي . قلائد الجواهر في مناقب عبد القادر : محمّد التادفي الحلبي ، الباز الأشهب في حياة السيّد الجيلاني . نزهة خاطر الفاتر في ترجمة الشّريف عبد القادر : آرئين أصادوريان . تفريج خاطر في مناقب عبد القادر : الأربلي .

وفاته :

أَمْضَى الشَّيْخ - رحمه الله تعالى - الفترة الأولى من حياته في طلب العلوم وجمعها وتحصيلها ، ثُمَّ تَصَدَّرَ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَجْلِسَ الْكَلَامِ وَالْوَعظ ، فِي مَدْرَسَتِهِ بَبَابِ الْأَزْج ، مِنْ سَنَةِ (٥٢١هـ) إِلَى سَنَةِ (٥٦١هـ) .

أَمَّا مَدَّةُ التَّدْرِيسِ وَالْفَتْوَى بِمَدْرَسَتِهِ ، فَكَانَتْ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ سَنَةً ، مِنْ سَنَةِ (٥٢٨هـ) إِلَى سَنَةِ (٥٦١هـ) ^(١) .

لَمْ يَذْخُرِ الشَّيْخ - رحمه الله تعالى - وَقْتًا إِلَّا وَأَنْفَقَهُ فِي الْعِلْمِ وَالْجِدِّ ، مِنْ تَحْصِيلِ وَتَدْرِيسِ ، وَفُتْيَا ، وَتَوْجِيهِ ، وَوَعظ ، وَإِرشَاد ، وَأَحْوَال ، وَمَقَامَات ، وَكُشْف ، وَمَشَاهِدَة ، فَكَانَ الْعَالَمَ وَالزَّاهِدَ وَالْعَابِدَ وَالْعَارِفَ .

عَاشَ الشَّيْخ - رحمه الله تعالى - إِحْدَى وَتَسْعِينَ سَنَةً ، وَأَنْتَقَلَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي عَاشِرِ رَبِيعِ الْآخِرِ ، سَنَةِ إِحْدَى وَسِتِينَ وَخَمْسَمِئَةٍ ، وَشَيَّعَهُ خَلْقٌ لَا يَحْصُونَ ، وَدُفِنَ بِمَدْرَسَتِهِ - بَبَابِ الْأَزْجِ بِبَغْدَاد - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ^(٢) .

وَلِلَّهِ دَرْءٌ مِنْ قَالٍ مُشِيرًا لَوْلَادَتِهِ وَوَفَاتِهِ وَمَدَّةَ حَيَاتِهِ :

لَقَدْ كَانَ فِي عَشْقٍ عُمْرٌ بِهِ نَمَا وَلُقِيَاهُ لِلْمَوْلَى تَمَامُ سَيَادَةِ

(٥٦١هـ) =

وفاته

٩١ + ٤٧٠هـ

حياته ولادته

✱

✱

✱

(١) مختصر طبقات الحنابلة : لابن شطي ، ص ٤١ .

(٢) سير أعلام النبلاء : للذهبي ، ج ٢٠ / ٤٥٠ .

١٠٠
 ١٠١
 ١٠٢
 ١٠٣
 ١٠٤
 ١٠٥
 ١٠٦
 ١٠٧
 ١٠٨
 ١٠٩
 ١١٠
 ١١١
 ١١٢
 ١١٣
 ١١٤
 ١١٥
 ١١٦
 ١١٧
 ١١٨
 ١١٩
 ١٢٠
 ١٢١
 ١٢٢
 ١٢٣
 ١٢٤
 ١٢٥
 ١٢٦
 ١٢٧
 ١٢٨
 ١٢٩
 ١٣٠
 ١٣١
 ١٣٢
 ١٣٣
 ١٣٤
 ١٣٥
 ١٣٦
 ١٣٧
 ١٣٨
 ١٣٩
 ١٤٠
 ١٤١
 ١٤٢
 ١٤٣
 ١٤٤
 ١٤٥
 ١٤٦
 ١٤٧
 ١٤٨
 ١٤٩
 ١٥٠
 ١٥١
 ١٥٢
 ١٥٣
 ١٥٤
 ١٥٥
 ١٥٦
 ١٥٧
 ١٥٨
 ١٥٩
 ١٦٠
 ١٦١
 ١٦٢
 ١٦٣
 ١٦٤
 ١٦٥
 ١٦٦
 ١٦٧
 ١٦٨
 ١٦٩
 ١٧٠
 ١٧١
 ١٧٢
 ١٧٣
 ١٧٤
 ١٧٥
 ١٧٦
 ١٧٧
 ١٧٨
 ١٧٩
 ١٨٠
 ١٨١
 ١٨٢
 ١٨٣
 ١٨٤
 ١٨٥
 ١٨٦
 ١٨٧
 ١٨٨
 ١٨٩
 ١٩٠
 ١٩١
 ١٩٢
 ١٩٣
 ١٩٤
 ١٩٥
 ١٩٦
 ١٩٧
 ١٩٨
 ١٩٩
 ٢٠٠
 ٢٠١
 ٢٠٢
 ٢٠٣
 ٢٠٤
 ٢٠٥
 ٢٠٦
 ٢٠٧
 ٢٠٨
 ٢٠٩
 ٢١٠
 ٢١١
 ٢١٢
 ٢١٣
 ٢١٤
 ٢١٥
 ٢١٦
 ٢١٧
 ٢١٨
 ٢١٩
 ٢٢٠
 ٢٢١
 ٢٢٢
 ٢٢٣
 ٢٢٤
 ٢٢٥
 ٢٢٦
 ٢٢٧
 ٢٢٨
 ٢٢٩
 ٢٣٠
 ٢٣١
 ٢٣٢
 ٢٣٣
 ٢٣٤
 ٢٣٥
 ٢٣٦
 ٢٣٧
 ٢٣٨
 ٢٣٩
 ٢٤٠
 ٢٤١
 ٢٤٢
 ٢٤٣
 ٢٤٤
 ٢٤٥
 ٢٤٦
 ٢٤٧
 ٢٤٨
 ٢٤٩
 ٢٥٠
 ٢٥١
 ٢٥٢
 ٢٥٣
 ٢٥٤
 ٢٥٥
 ٢٥٦
 ٢٥٧
 ٢٥٨
 ٢٥٩
 ٢٦٠
 ٢٦١
 ٢٦٢
 ٢٦٣
 ٢٦٤
 ٢٦٥
 ٢٦٦
 ٢٦٧
 ٢٦٨
 ٢٦٩
 ٢٧٠
 ٢٧١
 ٢٧٢
 ٢٧٣
 ٢٧٤
 ٢٧٥
 ٢٧٦
 ٢٧٧
 ٢٧٨
 ٢٧٩
 ٢٨٠
 ٢٨١
 ٢٨٢
 ٢٨٣
 ٢٨٤
 ٢٨٥
 ٢٨٦
 ٢٨٧
 ٢٨٨
 ٢٨٩
 ٢٩٠
 ٢٩١
 ٢٩٢
 ٢٩٣
 ٢٩٤
 ٢٩٥
 ٢٩٦
 ٢٩٧
 ٢٩٨
 ٢٩٩
 ٣٠٠
 ٣٠١
 ٣٠٢
 ٣٠٣
 ٣٠٤
 ٣٠٥
 ٣٠٦
 ٣٠٧
 ٣٠٨
 ٣٠٩
 ٣١٠
 ٣١١
 ٣١٢
 ٣١٣
 ٣١٤
 ٣١٥
 ٣١٦
 ٣١٧
 ٣١٨
 ٣١٩
 ٣٢٠
 ٣٢١
 ٣٢٢
 ٣٢٣
 ٣٢٤
 ٣٢٥
 ٣٢٦
 ٣٢٧
 ٣٢٨
 ٣٢٩
 ٣٣٠
 ٣٣١
 ٣٣٢
 ٣٣٣
 ٣٣٤
 ٣٣٥
 ٣٣٦
 ٣٣٧
 ٣٣٨
 ٣٣٩
 ٣٤٠
 ٣٤١
 ٣٤٢
 ٣٤٣
 ٣٤٤
 ٣٤٥
 ٣٤٦
 ٣٤٧
 ٣٤٨
 ٣٤٩
 ٣٥٠
 ٣٥١
 ٣٥٢
 ٣٥٣
 ٣٥٤
 ٣٥٥
 ٣٥٦
 ٣٥٧
 ٣٥٨
 ٣٥٩
 ٣٦٠
 ٣٦١
 ٣٦٢
 ٣٦٣
 ٣٦٤
 ٣٦٥
 ٣٦٦
 ٣٦٧
 ٣٦٨
 ٣٦٩
 ٣٧٠
 ٣٧١
 ٣٧٢
 ٣٧٣
 ٣٧٤
 ٣٧٥
 ٣٧٦
 ٣٧٧
 ٣٧٨
 ٣٧٩
 ٣٨٠
 ٣٨١
 ٣٨٢
 ٣٨٣
 ٣٨٤
 ٣٨٥
 ٣٨٦
 ٣٨٧
 ٣٨٨
 ٣٨٩
 ٣٩٠
 ٣٩١
 ٣٩٢
 ٣٩٣
 ٣٩٤
 ٣٩٥
 ٣٩٦
 ٣٩٧
 ٣٩٨
 ٣٩٩
 ٤٠٠
 ٤٠١
 ٤٠٢
 ٤٠٣
 ٤٠٤
 ٤٠٥
 ٤٠٦
 ٤٠٧
 ٤٠٨
 ٤٠٩
 ٤١٠
 ٤١١
 ٤١٢
 ٤١٣
 ٤١٤
 ٤١٥
 ٤١٦
 ٤١٧
 ٤١٨
 ٤١٩
 ٤٢٠
 ٤٢١
 ٤٢٢
 ٤٢٣
 ٤٢٤
 ٤٢٥
 ٤٢٦
 ٤٢٧
 ٤٢٨
 ٤٢٩
 ٤٣٠
 ٤٣١
 ٤٣٢
 ٤٣٣
 ٤٣٤
 ٤٣٥
 ٤٣٦
 ٤٣٧
 ٤٣٨
 ٤٣٩
 ٤٤٠
 ٤٤١
 ٤٤٢
 ٤٤٣
 ٤٤٤
 ٤٤٥
 ٤٤٦
 ٤٤٧
 ٤٤٨
 ٤٤٩
 ٤٥٠
 ٤٥١
 ٤٥٢
 ٤٥٣
 ٤٥٤
 ٤٥٥
 ٤٥٦
 ٤٥٧
 ٤٥٨
 ٤٥٩
 ٤٦٠
 ٤٦١
 ٤٦٢
 ٤٦٣
 ٤٦٤
 ٤٦٥
 ٤٦٦
 ٤٦٧
 ٤٦٨
 ٤٦٩
 ٤٧٠
 ٤٧١

[illegible]

رقم (٨٦٥٥) .

رموز الورقة الأخيرة رقم (٨٣٣٧)

تذكير لمصنّي

مطابقة الرّسم الأمّ لآي للّفظ

صوابه	الإملائي الدّارج
هَـاذا	هَـذا
هَـاذه	هَـذه
هَـأُولاءِ	هَـؤُولاءِ
أُولَئِكَ	أُولَئِكَ
ذَـالِكَ	ذَـلِكَ
كَـذَـالِكَ	كَـذَـلِكَ
هَـاهُنا	هَـهَـنا
لَـا كُنْ	لَـكِنْ، مَتَدَرَةً أَوْ مُخَفَّفَةً
السَّمَاوَاتِ	السَّمَوَاتِ

يَا نَاطِرًا فِيهِ سَلِّ بِاللهِ مَرَحْمَةً
عَلَى الْمُؤَلَّفِ وَتَتَغَفَّرَ لِكَاثِبِهِ
وَأَطْلُبْ لِنَفْسِكَ مِنْ خَيْرٍ تُرِيدُ بِهِ
مِنْ بَعْدِ ذَاكَ غُفْرَانًا لِنَاشِرِهِ

وَإِنْ تَجِدَ عَمِيْبًا فَسُدَّ الْخَلَلَا
جَلَّ مَنْ لَا عِيْبَ فِيهِ وَلَا عِيْلَا

آداب سکونت باری

تألیف
شیخ عبدالقادر اجمیلانی
قدس سرہ العالی

بسم الله الرحمن الرحيم / وَبِهِ تَقِي

{ أخبرني جدِّي الإمام العالم العارف ، التَّقِيُّ الزَّاهِد ، الورع العابد ، قدوة المشايخ ، قطب الإسلام ، عَلَمُ الزُّهَاد ، ودليل العباد في الدِّين ، قاصم البدعة ، ناصر السُّنَّة :}

أبو محمَّد عبد القادر بن [أبي] صالح الجيليّ

رضيَ الله تعالى عنه وأرضاه ، وجمعنا وإياه في مستقرِّ رحمته ؛ فيما كتب فيه إلَيَّ وأذن لي في روايته ، في صفر سنة إحدى وستين وخمسمئة .

وأخبرنا عنه والدي الإمام العالم الأوحد ، الزَّاهد العابد ، الورع التَّقِيُّ ، تاج الدِّين :

أبو بكر عبد الرزَّاق بن عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله الجيليّ

رضيَ الله تعالى عنه وأرضاه ، قال : فُرئَ على والدي رضيَ الله تعالى عنه وأرضاه ، وأنا أسمعُ يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الأوَّل سنة ثلاث وخمسين وخمسمئة . قيل له : قلت رضيَ الله تعالى عنك : {

(ح) قال والدي الإمام الأوحد المؤيَّد ، إمام الأئمة ، محيي الدِّين ، سيّد الطَّوائف ، أبو محمَّد عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله الجيليّ - قدَّس الله روحه ونورَ ضريحه - :

بسم الله الرحمن الرحيم

لمقدمة

الحمد لله ربّ العالمين ، أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً ، عدد خلقه ، ومِداد كلماته ، وزنة عرشه ، ورضاء نفسه ، وعدد كل شفع ووتر ، ورطب ويابس ، { وجميع } ما خلق ربنا وذرأ وبرأ ، دائماً أبداً سرمداً طيباً مباركاً ، الذي خلق فسوّى ، وقدر فهدى ، وأمات وأحيى ، وأضحك وأبكى ، وقرب وأدنى ، ورحم وأخزى ، وأطعم وأسقى ، وأسعد وأشقى ، ومنع وأعطى ، الذي بكلمته قامت السماوات السبع الشّداد ، وبها رست الرّواسي والأوتاد ، وأستقرت الأرض المهاد ، فلا مقنوطاً من رحمته ، ولا مأموناً من مكره { وغيره } وإنفاذ أقضيته وفعله وأمره ، ولا مستنكفاً من عبادته ، ولا مخلواً من نعمته .

فهو المحمود بما حبي { به } ، المشكور { لما } زوى^(١) .

ثمّ الصّلاة والسّلام على نبيّه محمّد المصطفى الذي من أتبع ما جاء به - { عن الضّلالة } - أهتدى ، ومن صدّ عنه ضلّ وأرتدى .

النّبيّ الصّادق المصدّق ، الزّاهد في الدّنيا ، الطّالب الرّاغب في الرّفيق الأعلى ، المجتبي من خلقه والمنتخب من بريّه ، الذي جاء الحقّ / بمجيئه ، وزهق الباطل بظهوره ، وأشرق الأرض بنوره . ٢/ب

(١) زوى : جمع .

ثُمَّ الصَّلَوَاتِ الْوَافِيَاتِ ، وَالْبَرَكَاتِ الرَّكِيَّاتِ الطَّيِّبَاتِ الْمُبَارَكَاتِ عَلَيْهِ ثَانِيًا . وَعَلَى الطَّيِّبِينَ مِنْ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، وَالْأَحْسَنِينَ { بَرِّهِمْ } فَعَلًا ، وَالْأَقْوَمِينَ لَهُ قِيَلًا ، وَالْأَصْوَبِينَ إِلَيْهِ طَرِيقًا وَسَبِيلًا .

ثُمَّ تَضَرَّعْنَا إِلَيْهِ وَدَعَاؤُنَا إِلَيْهِ وَرَجُوعُنَا إِلَيْهِ ، رَبَّنَا وَمَنْشِينَا وَخَالِقُنَا وَرَازِقُنَا وَمُطْعَمُنَا وَمُسْقِينَا وَنَافِعُنَا وَحَافِظُنَا وَكَالِنَا^(١) ، وَمُحِينَا { وَمُنْجِينَا } ، وَالذَّابَّ^(٢) وَالِدَّافِعَ عَنَّا جَمِيعَ مَا يُؤْذِينَا وَيَسُوؤُنَا .

كُلُّ ذَلِكَ بِرَحْمَتِهِ وَتَحَنُّنِهِ وَفَضْلِهِ وَمَنْتِهِ بِالْحِفْظِ الدَّائِمِ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ ، وَالْكَتْمَانِ وَالْإِظْهَارِ ، وَالشَّدَّةِ وَالرَّخَاءِ ، وَالنُّعْمَةِ وَالْبَاسَاءِ ، { وَالسَّرَّاءِ } وَالضَّرَّاءِ ، إِنَّهُ فَعَالٌ لِّمَا يَرِيدُ ، وَالْحَاكِمُ لِّمَا يَشَاءُ ، وَالْعَالِمُ بِمَا يَخْفَى ، الْمَطَّلِعُ عَلَى الشُّؤُونِ وَالْأَحْوَالِ مِنَ الرِّزَالَتِ وَالطَّاعَاتِ وَالْقُرْبَاتِ ، السَّمَاعُ لِلْأَصْوَاتِ ، الْمَجِيبُ لِلدَّعَوَاتِ لِمَنْ يَشَاءُ وَأَرَادَ ، مِنْ غَيْرِ { مُنَازَعَةٍ } وَلَا تَرَادٍ .

أَمَّا بَعْدُ :

فَإِنَّ نِعَمَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ كَثِيرَةٌ { مُتَرَادِفَةٌ } مُتَوَاتِرَةٌ فِي آنَاءِ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ ، وَالسَّاعَاتِ وَاللَّحْظَاتِ وَالْخَطَرَاتِ وَجَمِيعِ الْحَالَاتِ ، كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا : ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ ٨١ / ١٦] . وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ ٥٣ / ١٦] .

أ/٣ فلا يَدَانِ لِي { وَلَا جَنَان }^(٣) وَلَا لِسَانَ فِي إِحْصَائِهَا وَإِعْدَادِهَا / ،

(١) كَالِنَا : بِمَعْنَى حَافِظُنَا .

(٢) ذَبَّ عَنْهُ : دَفَعَ وَمَنَعَ .

(٣) الْجَنَان : الْقَلْبُ وَرُوعُهُ وَذَلِكَ لِاسْتِتَارِهِ فِي الصَّدْرِ وَلِحِفْظِهِ الْأَشْيَاءَ .

فلا يدركها التَّعداد ، ولا تضبطها العقول والأذهان ، { ولا يحصلها } الجنان ، ولا يعبر عنها اللسان .

فمن جملة ما أمكن من تعبيرها اللسان ، وأظهرها الكلام ، وكتبها البنان ، ويفسرهما البيان ؛ كلمات برزت وظهرت لي من فتوح الغيب ، فحلَّت في الجنان ، { فأشغلت } المكان ، فأبرزها وأنتجها صدق الحال ، فتولَّى إبرازها لطف المَنَّان ، ورحمة ربِّ الأنام ، في قالب صواب المقال ، محجَّة^(١) لمريدي الحقِّ عزَّ وجلَّ والطلاب .

فمن ذلك أن قال رضي الله { تعالى } عنه :

قوت القلوب وزار الرحلة

لا بدَّ لكلِّ مؤمنٍ في سائر أحواله من ثلاثة أشياء : أمرٌ يمثله ، ونهيٌ يجتنبه ، وقدرٌ يرضى به ، فأقلُّ حالة لا يخلو المؤمن فيها من إحدى هاذي الأشياء الثلاثة .

فينبغي له أن يُلزم [بها] قلبه ، وليُحدِّث بها نفسه ، ويأخذ الجوارح بها في سائر أحواله .

بالعمل تحبب الرغائب

قال رضي الله { تعالى } عنه { وأرضاه } : أتبعوا ولا تباعدوا ، وأطيعوا ولا تمردوا^(٢) ، ووحدوا ولا تشركوا ، ونزهوا الحقَّ

(١) محجَّة : طريقاً .

(٢) المروق : الخروج من الشيء .

ولا تَتَّهَمُوا ، وأسألوا ولا تسأموا ، وأنظروا وترقبوا ولا تشكوا ،
وأصبروا ولا تجزعوا وأثبتوا ولا تنفروا ، وتأخوا ولا تعادوا ، واجتمعوا
على الطاعة ولا تتفرقوا ، وتحابوا ولا تباعدوا ، وتطهروا عن الذنوب
وبها فلا تتدنسوا وتلطخوا ، وبطاعة ربكم فترتوا ، وعن باب مولاكم فلا
تبرحوا ، وعن الإقبال عليه فلا تتولوا ، وبالتوبة فلا تسوفوا ، وعن / الاعتذار
إلى خالقكم في آناء الليل وأطراف النهار { والساعات كلها } فلا تملوا .

٣/ ب

فلعلكم ترحموا وتسعدوا ، وعن النار تبعدوا ، وإلى الجنة تدخلوا ،
وإلى الله توصلوا ، وبالتعمير وأفتضاخ الأبقار في دار السلام تشغلوا ،
وعلى ذلك أبدأ تخلدوا ، وعلى التجائب تركبوا ، وبحور العين وأنواع
الطيب وصوت القيان مع ذلك النعيم تحبوا ، ومع الأنبياء والصديقين
والشهداء والصالحين في عليين ترفعوا .

في الإبتداء، صحوة الأرواح وقيظة البصائر

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه : إذا أبتلي العبد ببليّة تحرّك أولاً في
نفسه بنفسه ، فإن لم يتخلّص منها أستعان بغيره من الخلق كالسلاطين
وأرباب المناصب وأبناء الدنيا وأصحاب الأموال وأهل الطب في الأوجاع
والأمراض ، فإن لم يجد في ذلك خلاصه ، رجع حينئذٍ إلى ربّه عزّ وجلّ
بالدعاء والتضرّع { والبكاء } فما دام يجد عند نفسه نصرة ، لم يرجع إلى
الخلق ، وما دام لم يجد عند الخلق نصرة ، لم يرجع إلى الخالق عزّ
وجلّ ، ثمّ إذا لم يجد عند الخالق نصرةً أسطرّح^(١) بين يديه مديماً
للسؤال والتضرّع والدعاء والبكاء والافتقار ، مع الخوف منه والرجاء

(١) أسطرّح : أرتمى بين يديه .

{ له } ، ثُمَّ يُعْجِزُهُ الْخَالِقُ { عَزَّ وَجَلَّ } عَنْ الدُّعَاءِ ، وَلَا يَجِيبُهُ حَتَّى يَنْقَطِعَ عَنْ جَمِيعِ الْأَسْبَابِ ، فَحِينَئِذٍ يَنْفِذُ فِيهِ الْقَدْرَ ، وَيَفْعَلُ فِيهِ الْفِعْلَ ، فَيَفْنِي الْعَبْدَ عَنْ جَمِيعِ الْأَسْبَابِ وَالْحَرَكَاتِ ، فَيَبْقَى رُوحاً فَقَطْ ، فَلَا يَرَى إِلَّا فِعْلَ الْحَقِّ عَزَّ وَجَلَّ ، فَيَصِيرُ مَوْقِناً مُوَحِّداً / ضَرُورَةً ، فَيَقْطَعُ بِلَا فَاعِلٍ ٤/أ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلَا مُحَرِّكَ وَلَا مَسْكِنَ إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا خَيْرَ وَلَا شَرَّ ، وَلَا نَفْعَ وَلَا ضَرَّ ، وَلَا عَطَاءَ وَلَا مَنَعَ ، وَلَا فَتْحَ وَلَا غَلْقَ ، وَلَا مَوْتَ وَلَا حَيَاةَ ، وَلَا عَزَّ وَلَا ذُلَّ ، وَلَا غِنًى وَلَا فَقْرَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَيَصِيرُ حِينَئِذٍ فِي { يَدِ } الْقَدْرِ كَالطِّفْلِ الرَّضِيعِ فِي يَدِ الْطَّيِّرِ^(١) ، وَالمَيْتِ الْغَسِيلِ فِي يَدِي الْغَاسِلِ ، وَالكُرَةِ فِي صَوْلْجَانِ^(٢) الْفَارَسِ ، يَقْلَبُ وَيَغْيِرُ { وَيَبْدَلُ } وَيَكُونُ ، وَلَا حَرَكَاتٍ بِهِ فِي نَفْسِهِ وَلَا فِي غَيْرِهِ ، فَهُوَ غَائِبٌ عَنْ نَفْسِهِ فِي فِعْلِ مَوْلَاهُ ، فَلَا يَرَى غَيْرَ مَوْلَاهُ وَفَعْلَهُ ، وَلَا يَسْمَعُ وَلَا يَعْقِلُ مِنْ غَيْرِهِ .

إِنْ أَبْصَرَ فَلصْنَعَهُ أَبْصَرَ ، وَإِنْ سَمِعَ وَعَلِمَ فَلِكَلَامِهِ سَمِعَ وَبَعْلَمَهُ عِلْمَ ، وَبِنِعْمَتِهِ تَنَعَّمَ وَبِقُرْبِهِ أُسْعِدَ ، وَبِتَقْرِيْبِهِ تَزَيَّنَ وَتَشَرَّفَ ، وَبِوَعْدِهِ طَابَ وَسَكَنَ ، وَبِهِ أَطْمَئِنَّ ، وَبِحَدِيثِهِ أُنْسَ ، وَعَنْ غَيْرِهِ أَسْتَوْحَشَ وَنَفَرَ ، وَإِلَى ذِكْرِهِ أَلْتَجَأَ وَرَكَنَ ، وَبِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَثِقَ ، وَعَلَيْهِ تَوَكَّلَ ، وَبِنُورِ مَعْرِفَتِهِ أَهْتَدَى وَتَقَمَّصَ وَتَسَرَّبَلَ^(٣) ، وَعَلَى غَرَائِبِ عُلُومِهِ أَطَّلَعَ ، وَعَلَى أَسْرَارِ قُدْرَتِهِ أَشْرَفَ .

(١) ظَلَّارَتِ الْأُنْثَى عَلَى وَلَدٍ غَيْرِهَا : عَطَفَتْ عَلَيْهِ ، وَخَنَتِ الْجَارَةَ عَلَى وَلِيدِ جَارَتِهَا وَظَلَّارَتِ عَلَيْهِ كَأَمَّةٍ .

(٢) الصَّوْلُجَانُ : هُوَ الْيُحْجَنُ ؛ الْعَصَا الْمُعْجِزَةُ .

(٣) أَرْتَدَى رَدَاءَ النُّورِ وَالْحِكْمَةِ وَالْمَعْرِفَةِ ، وَهَذَا كُنَايَةٌ عَنْ أَسْتِنَارَةِ قَلْبِهِ بِنُورِ الْحِكْمَةِ وَالْمَعْرِفَةِ .

ومنه عز وجل سمع ووعا ، ثم على ذلك حمد وأثنى ، وشكر
ودعا .

اقتلع أعشاب الهوى تنامي دوتة الكمال

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه : إذا مت عن الخلق قيل لك
رحمك الله وأماتك عن هواك ، وإذا مت عن هواك قيل لك رحمك الله
وأماتك عن إرادتك ومناك ، وإذا مت عن الإرادة قيل لك رحمك الله
وأحيأك ، فحينئذ تحيا حياة لا موت بعدها ، { وتنعم بنعيم لا يؤس
ب / ٤ بعده } ، وتغني غني لا فقر بعده ، وتعطي عطاء لا منع بعده / ، وتراح
براحة لا شقاء بعدها ، وتعلم علماً لا جهل بعده ، وتؤمن أماناً فلا تخاف
بعده ، وتُسعد فلا تشقى ، وتُعز فلا تذلل ، وتُقرب فلا تبعد ، وترفع فلا
توضع ، وتُعظم فلا تحقر ، وتُطهر فلا تُدس ، فتتحقق فيك الأماني ،
وتصدق فيك الأقاويل ، فتكون كبريتاً أحمر^(١) ، فلا تكاد تُرى ، وعزيزاً
فلا تُماثل ، وفريداً فلا تُشارك ، ووحيداً فلا تُجانس ، فرداً لفرد ووتراً
لوتر ، غيباً لغيب ، سرّاً لسر ، فحينئذ تكون وارث كل رسول ونبي
وصديق .

بك تُختم الولاية ، وإليك تصدر الأبدال ، وبك تنكشف الكروب ،
وبك تسقى الغيوث ، وبك ينبت الزرع ، وبك { يُرفع البلاء } والمحن ،
عن الخاص والعام وأهل الثُغور والراعي والرعايا والأئمة والأمة وسائر

(١) الكبريت : معروف ، وقولهم أعز من الكبريت الأحمر ، إنما هو كقولهم ، أعز من
بيض الأنوق ، ويقال : ذهب كبريت ، أي : خالص ونادر .

البرايا ، فتكون شحنة البلاد والعباد ، فتنتلق الأرجل إليك بالسَّعي
والترحال ، والأيدي بالبذل والعطاء والخدمة بإذن خالق الأشياء في
{ سائر الأحوال } ، والألسن بالذكر الطَّيب والحمد والثناء في جميع
المحال ، ولا يختلف فيك أثنان من أهل الإيمان ، يا خير من سكن
البراري والعمران وجال .

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل والامتنان .

سَرِبْ بِحَسْبِ الظَّهْمَانِ مَا !

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : إذا رأيت الدنيا في يدي
أربابها وأبنائها ، بزيتها وأباطيلها وخدعها { الكاذبة } ، ومصائدها
وسمومها القاتلة ، مع لين مسَّ ظاهرها ، وضراعة باطنها ، وسرعة
إهلاكها / ، وقتلها لمن مسَّها وأغترَّ بها ، وغفل عن داهيتها ، وغيَّرها ٥/أ
بأهلها ، ونقض عهدها ، فكُن كمن رأى إنساناً على الغائط بالبراز ، باديةً
سواته ، فائحة رائحته ، فإِنَّكَ تَغْضُّ بصرك عن سواته ، وتسدَّ أنفك من
رائحته ونتنه .

فهاكذا { فكُن } في الدنيا ، إذا رأيتها غَضَّ بصرك عن زيتها ، وسدَّ
على أنفك ممَّا يفوح من روائح شهواتها ولذاتها ، لتنجو منها ومن آفاتِها ،
ويصلُ إليك قَسْمُكَ منها وأنت فيه مهناً .

قال الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه المصطفى صَلَّى الله { تعالى } عليه وعلى آله
وأصحابه وسلَّم : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [سورة طه :
٢٠ / ١٣١] .

أَحَبُّ قَرَبِكُ وَأَوْثَرُ هَوَاكِ^(١)

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : إِفْنَنْ عَنِ الْخَلْقِ بِحَكَمِ اللَّهِ ،
وعن هواك بأمر الله ، وعن إِرَادَتِكَ بفعل الله . فحِينَئِذٍ تَصْلُحُ أَنْ تَكُونَ
وعاءاً لعلم الله تعالى .

فعَلَامَةُ فَنَائِكَ عَنِ خَلْقِ اللَّهِ { تعالى } أَنْقِطَاعُكَ عَنْهُمْ ، وعن التَّرَدُّدِ
إِلَيْهِمْ ، واليَأْسُ مِمَّا فِي أَيْدِيهِمْ .

وعَلَامَةُ فَنَائِكَ { عَنْكَ } وعن هواك ترك التَّكْسُّبِ والتَّعَلُّقِ بِالسَّبَبِ فِي
جَلْبِ النَّفْعِ ودَفْعِ الضَّرِّ ، فلا تَتَحَرَّكَ فِيكَ بَكَ وَلَا تَعْتَمِدَ عَلَيْكَ لَكَ ،
وَلَا تَذُبْ عَنْكَ ، وَلَا تَنْصِرْ نَفْسَكَ ، وَلَا كُنْ تَكِلُ ذَلِكَ كُلَّهُ إِلَى مَنْ تَوَلَّاهُ
مِنْكَ أَوَّلًا فَيَتَوَلَّاهُ آخِرًا ، كما كَانَ ذَلِكَ مُوَكَّلاً إِلَيْهِ فِي حَالِ كَوْنِكَ مَغِيَّباً
فِي الرَّحِمِ ، وَكَوْنِكَ رَضِيعاً طِفْلاً فِي مَهْدِكَ .

وعَلَامَةُ فَنَاءِ إِرَادَتِكَ بفعل الله { عَزَّ وَجَلَّ } أَنَّكَ لَا تُرِيدُ { مَعَ
ب/٥ إِرَادَتِهِ } مُرَاداً / قَطُّ ، وَلَا يَكُونُ لَكَ غَرَضٌ ، وَلَا تَقِفُ لَكَ حَاجَةٌ
وَلَا مَرَامٌ ، لِأَنَّكَ لَا تُرِيدُ مَعَ إِرَادَةِ اللَّهِ { تعالى } سِوَاهَا ، بَلْ يَجْرِي
فَعْلُ اللَّهِ { تعالى } فِيكَ ، فَتَكُونُ أَنْتَ إِرَادَةُ اللَّهِ { تعالى } وَفَعْلُهُ ، سَاكِنُ
الْجَوَارِحِ ، مُطْمَئِنُّ الْجَنَانِ ، مُشْرُوحُ الصَّدْرِ ، مُنَوَّرُ الْوَجْهِ ، عَامِرُ
الْبَاطِنِ ، غَنِيّاً عَنِ الْأَشْيَاءِ بِخَالِقِهَا ، تَقَلَّبُكَ يَدُ الْقُدْرَةِ ، وَيَدْعُوكَ لِسَانُ

(١) من كلام السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها لرسول الله ﷺ حين استأذنها للذهاب
إلى البقيع وإحياء ليلة النصف من شعبان ، وهو خير شاهد عن فناء المحب عن هواه
في سبيل المحبوب

الأزل ، ويعلمك ربُّ الملك ، ويكسوك نوراً { من نوره وإجلالاً منه } ،
ويلبسك الحلل ، وينزلك منازل من سلف من أولي العلم الأول ، فتكون
منكسراً أبداً ، فلا تثبت فيك شهوة ولا إرادة ؛ كالإناء المنثلم الذي
لا يثبت فيه مائع وكدر [أبداً] فتنبو عن الأخلاق البشريّة ، فلن يقبل
باطنك { ساكناً } غير إرادة الله تعالى . فحينئذٍ يُضاف إليك التكوين
وخرق العادات ، فيرى ذلك منك في ظاهر العقل والحكم ، وهو
فعل الله { تعالى } وإرادته حقّاً في العلم ، فتدخل حينئذٍ في زمرة
المنكسرة قلوبهم ، الذين { كسرت } إراداتهم البشريّة ، وأزيلت
شهواتهم الطّبيعيّة ، وأستوثقت لهم إرادة ربانيّة ، وشهوات { إضافية } ،
كما قال النّبيّ صلى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم :
« حُبَّ إِلَيَّ مِنْ [الدُّنْيَا] ثَلَاثُ : النِّسَاءُ ، وَالطِّيبُ ، وَجُعِلَ قُرَّةَ عَيْنِي فِي
الصَّلَاةِ »^(١) فأضيف ذلك إليه بعد أن خرج منه وزال عنه تحقيقاً لما أشرنا
إليه { وتقدّم } .

قال { الله } عزَّ وجلَّ : (أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجَلِي)^(٢) .

(١) أخرجه النسائي في « سننه » برقم ٣٩٣٩ . عن أنس رضي الله عنه . وهو حديث حسن صحيح .

(٢) ذكره القاري في « الأسرار المرفوعة » برقم ٧٠ ، وقال : قال السّخاوي : ذكره الغزالي في « البداية » . قلت : وتاممه . . وَأَنَا عِنْدَ الْمُنْدَرَسَةِ قُبُورُهُمْ لِأَجَلِي » . وفي روايات أخرى : « قلوبهم » بدل « قبورهم » . وتبدو لي أنّ هاذي الرواية أصحُّ ، لأنّ أنكسار القلب هو المرحلة الأولى في التّذلل إلى الله تبارك وتعالى ، والغاية التي يمكن أن تنتهي إليها هاذي المرحلة : الاندراس والفناء . فانظر في ذلك وتأمله فإنّه ممّا يتفق وأسلوب القوم .

ومهما يكن من أمرهما فإنّهما حديثان موضوعان كما صرّح بذلك الإمام السّخاوي والقاري .

فالله تعالى / لا يكون عندك حتى تنكسر جملتك وهواك وإرادتك ،
 فإذا أنكسرت ولم يثبت فيك شيء ، ولم تصلح لشيء { سواء } أنشأكَ
 له ، فجعل فيك إرادة ، فتريد بتلك الإرادة ، فإذا وجدت في تلك الإرادة
 المنشأة فيك ، كسرهما الربُّ تعالى لوجودك فيها ، فتكون منكسر القلب
 أبداً ، فهو عزَّ وجلَّ لا يزال يجدد فيك إرادة ، ثمَّ يُزيلها { عند } وجودك
 فيها ، هاكذا إلى أن يبلغ { الكتاب } أجله ، فيحصل اللقاء .
 فهذا هو معنى : أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلي .

ومعنى قولنا (عند وجودك فيها) : { هو } ركونك وطمانينتك
 إليها . قال الله عزَّ وجلَّ في بعض ما يذكره عنه نبيّه صلى الله تعالى عليه
 [وعلى آله وأصحابه] وسلم : « لا يزال عَبْدِي الْمُؤْمِنُ يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ
 بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحَبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي
 يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَسْعَى بِهَا »^(١) . وفي لفظ
 آخر « فَبِي يَسْمَعُ ، وَبِي يُبْصِرُ ، وَبِي يَبْطِشُ ، وَبِي يَعْقِلُ » .

وهاكذا تكون حالة الفناء لا غير ، { وهو أن تفنى عنك } ، فإذا
 أفنىت عنك وعن الخلق ، والخلق إنما هو خير وشرٌّ ، وكذلك أنت خير
 وشرٌّ ، فلم ترج خيرهم ولا تخاف شرَّهم ، بقي الله عزَّ وجلَّ وحده كما
 كان قبل أن يخلقك { وحده } ، ففي { قدر } الله خير وشرٌّ ، فيؤمنك
 من شرِّه ويغرقك في بحارِ خيرهِ ، فتكون وعاء لكلِّ خير ، ومنبعاً لكلِّ
 ب/٦ نعمة وسرور وحبور ونور وضياء وأمن وسكون .

فالفناء هو المُنَى والمُبْتَغَى والمُنْتَهَى وحدُّ ومردُّ ينتهي إليه سير
 الأولياء ، وهو الاستقامة الَّتِي طلبها من تقدّم من الأولياء والأبدال

(١) أخرجه البخاري في " صحيحه " برقم ٦٥٠٢ . عن أبي هريرة رضي الله عنه .

رضيَ الله عنهم ، أن يفنوا عن إرادتهم ، فتُبَدَّل بإرادة الحقِّ عزَّ وجلَّ ،
فيريدون بإرادة الحقِّ أبداً إلى الوفاة ، فلهاذا سموا أبداً رضيَ الله
{ تعالى } عنهم .

فذنوب هاؤلاء السادة أن يشركوا إرادة الحقِّ { عزَّ وجلَّ } بإرادتهم
على وجه السَّهو والنَّسيان وغلبة الحال والدَّهشة ، فيدركهم الله تعالى
برحمته باليقظة والتَّذكرة ، فيرجعون عن ذلك ويستغفرون ربَّهم عزَّ
وجلَّ ، إذ لا معصوم عن الإرادة إلاَّ الملائكة ، فالملائكة عُصِموا عن
الإرادة ، والأنبياء عُصِموا عن الهوى ، وبقية الخلق من الإنس والجنّ
المتكلِّفين لم يُعصِّموا منهما ، غير أنَّ الأولياء يُحفظون عن الهوى ،
والأبدال { يحفظون } عن الإرادة ، ولا يُعصِّمون منهما ، على معنى أنَّه
يجوز في حقِّهم الميل إليهما في [بعض] الأحيان ، ثمَّ يتداركهم الله
{ عزَّ وجلَّ } باليقظة برحمته .

آفة القلب الهوى

قال رضيَ الله { تعالى } عنه وأرضاه : أخرج من نفسك وتنحَّ عنها ،
وأنعزل عن مُلكك ، وسلِّم الكلَّ إلى الله عزَّ وجلَّ ، وكن بوابة على باب
قلبك ، وأمثل أمره عزَّ وجلَّ في إدخال من يأمرُك بإدخاله ، وأنته بنهيه
في صدِّ من يأمرُك بصدِّه ، فلا تُدْخِل الهوى قلبك بعد أن { خرج } / ٧ / أ
منه ، فأخرج الهوى من القلب بمخالفته ، وترك متابعتة في الأحوال
كلَّها . وإدخاله في القلب بمتابعتة وموافقته ، فلا تُردِّد إرادة غير إرادته عزَّ
وجلَّ ، وغير ذلك منك تمنَّى وهو وادي الحمقى ، وفيه حتفك وهلاكك
{ وسقوطك } من عينه عزَّ وجلَّ وحجابك عنه .

أَحْفَظْ أَبَدًا أَمْرَهُ ، وَأَنْتَهُ أَبَدًا نَهْيَهُ ، وَسَلِّمْ { إِلَيْهِ أَبَدًا } مَقْدُورُهُ ،
وَلَا تَشْرِكْهُ بِشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ ، فَإِرَادَتُكَ وَهَوَاكَ وَشَهَوَاتُكَ خَلَقَهُ كُلَّهَا ، فَلَا
تَرُدُّ وَلَا تَهْوِي وَلَا تَشْتَهُ لَثَلًا تَكُونُ مُشْرِكًا ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَمَنْ
كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾
[سورة الكهف : ١٨ / ١١٠] .

لَيْسَ الشَّرُّكَ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ فَحَسَبَ ، بَلْ هُوَ أَيْضًا مُتَابِعَتُكَ لِهَوَاكَ ،
وَأَنْ تَخْتَارَ مَعَ رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا سِوَاهُ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، { وَالْآخِرَةُ
وَمَا فِيهَا } فَمَا سِوَاهُ عَزَّ وَجَلَّ غَيْرُهُ ، فَإِذَا رَكَنْتَ إِلَى غَيْرِهِ فَقَدْ أَشْرَكْتَ بِهِ
عَزَّ وَجَلَّ غَيْرُهُ ، فَاحْذَرُوا وَلَا تَرَكْنَ ، وَخَفْ وَلَا تَأْمَنْ ، وَفَتِّشْ وَلَا تَغْفُلْ
فَتَطْمِئِنَّ ، وَلَا تُضَفِّ إِلَى نَفْسِكَ حَالًا وَلَا مَقَامًا ، وَلَا تَدَّعِ شَيْئًا مِنْ
ذَلِكَ ، فَإِنْ أُعْطِيتَ أَوْ أُقِمْتَ فِي مَقَامٍ أَوْ أُطْلِعْتَ { عَلَى } سِرٍّ ، فَلَا
تُخْبِرْ أَحَدًا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ، فِي
تَغْيِيرٍ وَتَبْدِيلٍ ، وَإِنَّهُ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ، فَيُزِيلُكَ عَمَّا أَخْبَرْتَ بِهِ ،
ب / ٧ وَيُغَيِّرُكَ عَمَّا تَخَيَّلْتَ / ثَبَاتِهِ وَبَقَاءَهُ ، فَتَخْجَلَ عِنْدَ مَنْ أَخْبَرْتَهُ بِذَلِكَ ، بَلْ
أَحْفَظْ ذَلِكَ فِيكَ وَلَا تَعْدِهِ إِلَى غَيْرِكَ ، فَإِنْ كَانَ الثَّبَاتُ وَالْبَقَاءُ ، فَتَعْلَمُ أَنَّ
مَوْهَبَهُ ، فَتَشْكُرُ { اللَّهُ تَعَالَى وَتَسْأَلُهُ } التَّوْفِيقَ لِلشُّكْرِ ، { وَالِاسْتِزَادَةَ
مِنْهُ } . وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ كَانَ فِيهِ زِيَادَةُ عِلْمٍ وَمَعْرِفَةٍ وَنُورٍ وَتَقْطُ
وَتَأْدِيبُ . قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ
مِثْلُهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة البقرة : ١٠٦ / ٢] .

فَلَا تَعْجِزُ اللَّهَ { قَدْرُهُ } ، وَلَا تَتَّهِمُهُ فِي تَدْبِيرِهِ وَتَقْدِيرِهِ ، وَلَا تَشْكُ
فِي وَعْدِهِ { وَوَعِيدِهِ } ، فَلْتَكُنْ لَكَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى { عَلَيْهِ
وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلِّمْ أَسْوَةٌ { حَسَنَةٌ } .

نُسَخَتْ الْآيَاتُ وَالسُّورُ النَّازِلَةُ عَلَيْهِ الْمَعْمُولُ بِهَا ، الْمَقْرُوءَةُ فِي

المحاريب ، المكتوبة في المصاحف { والصُّحف } ، ورفعت وبدلت وأثبت غيرها مكانها ، ونقل صَلَّى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم إلى غيرها ، هاذا في ظاهر { الحكم } والشرع . وأما في الباطن والعلم والحال فيما بينه وبين الله تعالى ، فكان صَلَّى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم يقول : « إِنَّهُ لَيَغَانُ عَلَى قَلْبِي فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً » وروي « مِئَةَ مَرَّةً » ^(١) .

(١) أخرجه مسلم في « صحيحه » كتاب الذكر ٤١ . وأبو داود في « سننه » برقم ١٥١٥ . كلاهما عن الأغر المُرْنِي رضي الله عنه .

قال المناوي في « فيض القدير » ج ١١/٣ : قال الإمام أبو الحسن الشاذلي : هاذا غين أنوار لا غين أغيار ، لأنَّه كان دائم التَّرقِي ، فكُلَّمَا تَوَالَتْ أنوار المعارف على قلبه أرتقى إلى رتبة أعلى منها ، فيعدُّ ما قبلها كالذنب .

أي فليس ذلك الغين غين حجاب ولا غفلة كما وهم ، وإنَّما كان تستغرقه أنوار التَّجَلِّيَّات فيغيب بذلك الحضور ، ثُمَّ يسأل الله المغفرة ، أي ستر ما له عليه ، لأنَّ الخواص لو دام لهم التَّجَلِّي لتلاشوا عند سلطان الحقيقة ، فالستر لهم رحمة وللعامة حجاب ونقمة ، ومن كلمات الشهروردي : لا ينبغي أن يُعتقد أنَّ الغين نقص في حال المصطفى ﷺ بل كمال أو تتمَّة كمال ، وهاذا السُّرُّ دقيق لا ينكشف إلَّا بمثال ، وهو أنَّ الجفن المُسَبَّل على حدقة البصر وإنَّ كانت صورته صورة نقصان من حيث هو إسبال وتغطية على ما يقع به أنَّ يكون ناوياً ، فإنَّ القصد من خلق العين إدراك الحسيَّات ، وذلك لا يمكن إلَّا بانبعاث الأشعة الحسيَّة من داخل العين وأتصالها بالمرئيات عند قوم ، وبانطباع صور المدركات في الكرة الجليدة عند آخرين ، فكيفما ما كان لا يتم المقصود إلَّا بانكشاف العين وعرائها عمَّا يمنع أنبعاث الأشعة عنها . لكن لما كان الهوى المحيط بالأبدان الحيوانية قلَّما يخلو من الغبار الثَّائر تحرَّكه الرِّياح ، فلو كانت الحدقة دائمة الانكشاف تأذَّت به ، فتغطت بالجفون وقاية لها ومصقلة للحدقة ، فيدوم جلاؤها ، فالجفن وإنَّ كان نقصاً ظاهراً فهو كمال حقيقة . فلهاذا لم تزل بصيرة النَّبِيِّ ﷺ متعرَّضة لأنَّ تصدُّ بالغبار الثَّائر من أنفاس الأغيار ، فدعت الحاجة إلى إسبال جفن من العين على حدقة بصيرته سترًا لها ووقاية وصقلاً عن تلك الأغيرة المثارة برؤية الأغيار وأنفاسها ، فصَحَّ أنَّ الغين وإنَّ كان نقصاً فمعناه كمال وصقال حقيقة .

٨/أ وكان رسول الله صَلَّى الله { تعالى } عليه [وعلى آله وأصحابه]
وسلّم يُنقل من حالة إلى أخرى فتبدّل بأخرى ، ويسير به عليه الصّلاة
والسّلام في منازل القرب وميادين الغيب ، وتُغيّر عليه الخلع والأنوار ،
فتبين الحالة الأولى عندما يليها ظلمة ونقصاناً ، / ومنه تقصيراً في حفظ
الحدود - أي تواضعاً منه صَلَّى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه
وسلّم - ، فيلقّن الاستغفار ، لأنّه أحسن حال العبد وأليق به في سائر
الأحوال ، لأنّ فيه اعترافاً بذنبه وقصوره ، وهما صفة العبد في سائر
الأحوال ، فهما وراثتة من أبي البشر آدم [عليه الصّلاة والسّلام]
للمصطفى عليه [الصّلاة] والسّلام حين أعتورت صفاء { حالته } ظلمة
النّسيان للعهد والميثاق ، وإرادة الخلود في دار السّلام ومجاورة الحبيب
الرّحمان المتّان ، ودخول الملائكة الكرام عليه بالتّحيّة والسّلام ،
فوجدت هناك نفسه مشاركة لإرادته لإرادة الحقّ عزّ وجلّ ، فانكسرت
لذلك تلك الإرادة ، وزالت تلك الحالة ، وأنعزلت تلك الولاية ،
وأهبطت تلك المنزلة ، وأظلمت تلك الأنوار ، وتكدّر ذلك الصّفاء ، ثمّ
نُبّه عليه [الصّلاة] والسّلام وذكر بصفى الرّحمان ، فعرف الاعتراف
بالذّنْب والنّسيان ، ولقّن الإقرار بالقصور فقال عليه [الصّلاة] والسّلام :
﴿ . . رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾
[سورة الأعراف : ٢٣ / ٧] .

فجاءته أنوار الهداية وعلوم التّوبة ومعارفها ، والمصالح المدفونة
فيها ، ما كان غائباً من قبل فلم يظهر إلّا بها ، فبدلت تلك الإرادة
بغيرها ، والحالة الأولى بأخرى ، وجاءته الولاية الكبرى والسّكون في
٨/ب الدّنيا ، ثمّ في العقبي ، / فصارت الدّنيا له ولذريّته منزلاً ، والعقبى لهم
موثلاً ومرجعاً وخُلداً .

{ قال الله تعالى : ﴿ مَا نُنْسخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِها نَأْتِي بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلها . . ﴾ [سورة البقرة ١٠٦ / ٢] } .

فلك برسول الله صَلَّى الله تعالى عليه [وعلى آله وأصحابه] وسلّم محمّد الحبيب المصطفى ، وأبيه آدم صفيّ الله ، عنصر الأحاب والأخلاء ؛ أسوة في الاعتراف بالقصور والاستغفار في الأحوال كلّها ، والذّلة والافتقار فيها . صَلَّى الله تعالى عليه وعلى [آله وأصحابه] وسلّم .

أَفْضَلُ الْمَنَازِلِ مَا رَضَاهُ الْخَالِقُ

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه : إذا كنت في حالة لا تختار غيرها ، لا أعلى منها ولا أدنى . فإذا كنت على باب دار المَلِك لا تختار الدُّخول إلى الدّار حتّى تُدْخَلَ إليها جبراً لا اختياراً - أعني بالجبر : أمراً عنيفاً { منكراً } متكرّراً - ولا تقنع بمجرد الإذن في الدُّخول ، لجواز أن يكون ذلك مكرراً وخديعة من المَلِك ، لاكن أصبر حتّى تُجبر على الدُّخول ، فتدخل الدّار جبراً محضاً وفعلاً من المَلِك ، فحينئذ لا يعاقبك المَلِك على فعله ، إنّما تتطرّق العقوبة نحوك لشؤم تخيُّرك { وطلبك } وشركه ، وقلة صبرك وسوء أدبك ، وترك الرّضا بحالتك الّتي أقمت فيها ، فإذا حصلت ودخلت في الدّار على هاذا الوجه فكن مطرّقاً غاضباً لبصرك متأدّباً ، محافظاً لما تؤمر به من الشُّغل والخدمة فيها ، غير طالب للتّرقّي إلى الدُّرّة العُليا . قال الله تعالى لنبّيه المصطفى صَلَّى الله { تعالى } عليه [وعلى آله وأصحابه] وسلّم : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ [سورة طه ١٣١ / ٢٠] . فهذا تأديب منه عزّ وجلّ لنبّيه { المصطفى } المختار / في ٩/١ حفظ الحال والرّضا بالعطاء بقوله { تعالى } : ﴿ . . وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ

وَأَبْقَى ﴿٩﴾ ، أَي مَا أُعْطَيْتَكَ مِنَ الْخَيْرِ وَالْثَبُوتِ ، وَالْعِلْمِ وَالْقَنَاعَةِ وَالصَّبْرِ ،
وَوَلَايَةِ الدِّينِ وَالْقُدُوةِ فِيهِ ، أَوْلَى مِمَّا { أُعْطِيَ غَيْرُكَ } وَأَحْرَى .

فَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي حِفْظِ الْحَالِ وَالرِّضَا بِهَا وَتَرْكِ الْاِلْتِفَاتِ إِلَى
مَا سِوَاهَا ، لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ قَسْمِكَ أَوْ قَسْمِ غَيْرِكَ ، أَوْ
أَنَّهُ لَا قِسْمَ لِأَحَدٍ ، بَلْ أَوْجَدَهُ اللَّهُ فِتْنَةً . فَإِنْ كَانَ قَسْمُكَ فَهُوَ وَاصِلٌ إِلَيْكَ
شِئْتَ أَمْ أَبَيْتَ ، فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يَظْهَرَ مِنْكَ سُوءُ الْأَدَبِ وَالشَّرَّةِ فِي طَلْبِهِ ،
فَإِنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مَحْمُودٍ فِي قِضْيَةِ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ ، وَإِنْ كَانَ قَسْمُ غَيْرِكَ فَلَا
تَتَعَبُ فِيهِمَا لَا تَنَالَهُ وَلَا يَصِلُ إِلَيْكَ أَبَدًا ، وَإِنْ كَانَ لَيْسَ بِقَسْمٍ لِأَحَدٍ بَلْ هُوَ
فِتْنَةٌ ، فَكَيْفَ يَرْضَى الْعَاقِلُ وَيَسْتَحْسِنُ أَنْ يَطْلُبَ لِنَفْسِهِ فِتْنَةً وَيَسْتَجْلِبُهَا
لَهَا ؟ فَقَدْ ثَبِتَ أَنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ وَالسَّلَامَةَ فِي حِفْظِ الْحَالِ .

فَإِذَا رَقِيتَ إِلَى الْغُرْفَةِ ثُمَّ إِلَى السَّطْحِ فَكُنْ كَمَا ذَكَرْنَا مِنَ التَّحَفُّظِ
وَالْإِطْرَاقِ وَالْأَدَبِ ، بَلْ يَتَضَاعَفُ ذَلِكَ مِنْكَ ، لِأَنَّهُ أَقْرَبُ إِلَى الْمَلِكِ
وَأَدْنَى { مِنْ } الْخَطَرِ ، وَلَا تَتَمَنَّى الْإِنْتِقَالَ مِنْهَا إِلَى أَعْلَى مِنْهَا وَلَا إِلَى
أَدْنَى ، وَلَا ثَبَاتَهَا وَلَا بَقَاءَهَا ، وَلَا تَغْيِيرَ وَصْفِهَا وَأَنْتَ فِيهَا ، وَلَا يَكُونُ
لَكَ فِي ذَلِكَ اخْتِيَارٌ أَلْبَتَّةَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ كَفَرًا لِنِعْمَةِ الْحَالِ ، وَالْكَفَرُ
يُحِلُّ { بِصَاحِبِهِ } الْهُوَانَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

ب/٩ فاعمل على ما ذكرنا أبدًا حتَّى ترقى إلى حالة تصير / { لك } مقامًا ،
تُقَامُ فِيهِ وَلَا تُزَالُ عَنْهُ ، فَتَعْلَمُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ لَكَ مَوْهَبَةٌ بِعَلَامَاتٍ وَأَيَّاتٍ تَظْهَرُ
فَتَمْسُكُهُ { وَلَا تَزُولُ } عَنْهُ ، فَالْأَحْوَالُ لِلْأَوْلِيَاءِ ، وَالْمَقَامَاتُ لِلْأَبْدَالِ .

أَهَابَكَ حَبًّا وَاجِدَالًا

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه : ينكشف للأولياء والأبدال من

أفعال الله عزَّ وجلَّ ما يُبهر العقول ويخرق العادات والرُّسوم .

{ وهي { على قسمين : جلال وجمال .

فالجلال والعظمة يورثان الخوف المُقلِّق والوجلَّ المزعج ، والغلبة العظيمة على القلب بما يظهر على الجوارح ، كما رُوِيَ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ [وعلى آله وأصحابه] وسلَّم : كَانَ يُسْمَعُ مِنْ صَدْرِهِ أَزِيراً كَأَزِيرِ الْمَرَجْلِ فِي الصَّلَاةِ^(١) مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ لِمَا يَرَى مِنْ جَلَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَيُنْكَشِفُ لَهُ عَنْ عَظَمَتِهِ . وَثُقِّلَ مِثْلَ ذَلِكَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ { صلوات الله عليه ، وعن أمير المؤمنين { عمر الفاروق رضي الله عنه .

وأما مشاهدة الجمال : فهو التَّجَلِّي للقلوب بالأنوار والشُّرور والألطف والكلام اللَّذِيذ والحديث الأنيس ، والبشارة بالمواعب الجسم والمنازل العالية ، والقُرب منه عزَّ وجلَّ ممَّا سيؤول أمرهم إليه ، وجَفَتْ به القلم من أقسامهم في سابق الدُّهور فضلاً منه ورحمة ، وإيثاباً منه لهم في الدُّنيا إلىٰ بنوغ الأجل وهو الوقت المقدَّر ، لثلا يفرط بهم المحبَّة من شِدَّة { شوقهم { إليه عزَّ وجلَّ { فتتفطر مرائرهم { ، فيهلكوا / ، أو يضعفوا ١٠/أ عن القيام بالعبوديَّة إلىٰ أن يأتِيهم اليقين الَّذِي هو الموت ، فيفعل ذلك بهم لطفاً منه ورحمة ومداواة ، وتربية لقلوبهم ومدارة لها ، إنَّه حكيم عليم ، لطيف بهم ، رؤوف رحيم .

ولهذا رُوِيَ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ { وعلى آله وأصحابه

(١) أخرجه النَّسَائِي فِي « سننه » برقم ١٢١٤ ، عن مطرف ، عن أبيه قال أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي وَلِجُوفِهِ أَزِيرٌ كَأَزِيرِ الْمَرَجْلِ - يَعْنِي يَبْكِي . وَالْمَرَجْلُ : الْإِنَاء الَّذِي يُغْلَى فِيهِ الْمَاءُ .

وسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لِبِلَالِ الْمُؤَدَّنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « أَرَحْنَا { بِهَا } يَا بِلَالُ »^(١) ، يَعْنِي : بِالْإِقَامَةِ ، { لِيَدْخُلَ } فِي الصَّلَاةِ لِمُشَاهَدَةِ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْجَمَالِ ، وَلِهَذَا قَالَ { النَّبِيُّ } صَلَّى اللَّهُ { تَعَالَى } عَلَيْهِ وَ[عَلِيٌّ] آلَهُ وَأَصْحَابَهُ وَسَلَّمَ : « وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »^(٢) .

وَخَافِ نَفْسَ وَالْهَوَىٰ وَأَعْيَصِمَا

قَالَ رَضِيَ اللَّهُ { تَعَالَى } عَنْهُ وَأَرْضَاهُ : إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَنَفْسُكَ وَأَنْتَ الْمَخَاطَبُ ، وَالنَّفْسُ ضِدُّ اللَّهِ { وَعَدَوْتُهُ } ، وَالْأَشْيَاءُ كُلُّهَا تَابِعَةٌ لِلَّهِ { عَزَّ وَجَلَّ } ، وَالنَّفْسُ { فَهِيَ } لِلَّهِ { عَزَّ وَجَلَّ } خَلْقًا وَمَلَكًا حَقِيقَةً ، وَلِلنَّفْسِ إِدْعَاءٌ وَتَمَنٍّ وَشَهْوَةٌ وَلَذَّةٌ بِمَلَابَسَتِهَا .

فَإِذَا وَافَقْتَ الْحَقَّ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَخَالَفَةِ النَّفْسِ وَعِدَاوَتِهَا فَكُنْتَ لِلَّهِ خَصِمًا عَلَى نَفْسِكَ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ [الصَّلَاةُ] وَالسَّلَامُ : (يَا دَاوُدَ الْعِبُودِيَّةُ أَنْ تَكُونَ لِي خَصِمًا عَلَى نَفْسِكَ) ؛ فَتَحَقَّقْتَ حِينَئِذٍ مَوَالَاتِكَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَعِبُودِيَّتِكَ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَتَتْكَ الْأَقْسَامُ هَنِيئًا مَرِيئًا مَطِيبًا وَأَنْتَ عَزِيزٌ مُكْرَّمٌ ، وَخَدَمْتَكَ الْأَشْيَاءُ وَعَظَّمْتَكَ وَفَحَّمْتَكَ ، لِأَنَّهَا بِأَجْمَعِهَا تَابِعَةٌ لِرَبِّهَا { عَزَّ وَجَلَّ } ، مُوَافِقَةٌ لَهُ ، إِذْ هُوَ خَالِقُهَا ١٠/ ب وَمُنْشِئُهَا ، / وَهِيَ مُقَرَّرَةٌ لَهُ بِالْعِبُودِيَّةِ .

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَا يَكُنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ { إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا } ﴾ [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ]

(١) قطعة من حديث . أخرجه الطبراني في « الكبير » برقم ٦٢١٥ ، عن عبد الله بن محمد وهو حديث ضعيف واهي الإسناد .

(٢) تقدّم تخريجه ، ص ٥٧ وهو حديث حسن صحيح .

١٧/٠٦] ، أي تذكره وتعبده ، وقال عزَّ وجلَّ : ﴿ .. فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ [سورة فصلت ٤١/١١] .

فالعبادة كلُّ العبادة في مخالفتك لنفسك وهواك ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾ [سورة ص ٣٨/٢٦] وقال الله تعالى لداود عليه الصَّلَاة والسَّلَام : (أهجر هواك فإنه لا منازع ينازعني في ملكي غير الهوى) .

والحكاية المشهورة عن أبي يزيد البسطامي - رضي الله عنه - لما رأى ربَّ العزَّة في المنام فقال له : كيف الطريق إليك يا بارُّ خُدايا^(١) ؟ قال : أترك نفسك وتعال ، فقال أبو يزيد - رحمة الله تعالى عليه - : فانسلخت من نفسي كما تنسلخ الحيَّة من جلدها^(٢) .

فإذن ثبت أنَّ { الخير كله } في معاداتها في الجملة في الأحوال كلّها ، فإن كنت في حال التَّقوى فخالف { نفسك } ، بأن تخرج من حرام الخلق وشُبَّههم ومنهم ، والاتِّكال عليهم ، والثِّقة بهم ، والخوف منهم ، والرَّجاء { لهم } ، والطَّمع فيما عندهم من حطام الدُّنيا ، فلا ترجو عطاءهم على طريق الهدية والزَّكاة أو الصَّدقة أو الكفَّارة أو النَّذر ، فاقطع همَّك منهم في سائر الوجوه والأسباب ، حتَّى إن كان لك نسيب ذو مال لا تتمنى موته لترث ماله .

فاخرج من الخلق جدًّا وأجعلهم كالباب يُرَدُّ / ويفتح ، وشجرة ١١/أ توجد فيها ثمرة تارة وتحيل أُخرى . كلُّ ذلك بفعل فاعل وتدبير مدبِّر ،

(١) كلمة فارسيَّة ، معناها : يا إلهي العظيم .

(٢) مجموع الفتاوى ، ج ١٠/ ٥١٨ .

وهو الله عزَّ وجلَّ ، فإذا صَحَّ لك هذا كنت موحدًا للربِّ عزَّ وجلَّ .

ولا تنسَ مع ذلك كسبهم لتتخلَّص من مذهب الجبريَّة^(١) ، وأعتقد أنَّ الأفعال لا تتمُّ بهم دون الله تعالى لكيلا تعبدَهم وتنسِي الله ، ولا تُقلِّ فعلهم دون فعل الله فتكفر فتكون قدريًّا^(٢) . ولاكن قُلْ هي لله خلقاً وللعباد كسباً كما جاءت به الآثار^(٣) ، ولييان موضع الجزاء من الثَّواب والعقاب .

وأمثِّل أمر الله { تعالى } فيهم ، وخلِّص قَسْمُكَ منهم بأمره ولا تجاوزه ، فحكم الله قائم يحكم عليك وعليهم ، فلا تكن أنت الحاكم ، وكونك معهم قدرٌ ، والقدرُ ظلمة ، فادخل في الظلمة بالمصباح وهو { الحكم } وكتاب الله وسنَّة رسوله ، فلا تخرج عنهما ، فإنَّ خطر خاطر أو وجد إلهام فاعرضهما على الكتاب والسُنَّة ، فإذا وجدت فيهما تحريم ذلك مثل أنَّ تُلهِم بالزُّنا أو الرِّبا أو مخالطة أهل الفسق والفجور وغير ذلك من المعاصي ، فادفعه عنك وأهجره ولا تقبله { ولا تعمل } به ، وأقطع بآئه من الشَّيطان اللَّعين . فإنَّ وجدت فيهما

(١) هم قوم أعتقدوا ألاَّ كسب للعبد ولا اختيار ، وأَنَّهُ مجبور على الفعل ومقسور على العمل ، كالريشة المعلقة في الهواء . وعلى مذهبهم لا قدرة للإنسان ، وإنَّما تصدر الأفعال بقدرة الله فقط . وهذا خلاف عقيدة أهل السُنَّة والجماعة ، ولجلاء الأمر راجع كتاب « العقيدة الإسلامية وأسسها » للدكتور عبد الرَّحمان حبنكة الميداني .

(٢) هم قوم أعتقدوا بأنَّ العبد موجدٌ وخالق لفعله الاختياري ، وأنَّ الله تعالى قد فوَّض الأمر إليه ، فيفعل ما يشاء ، وأنَّ الأفعال تصدر بقدرة العبد فقط . وللاستزادة والتوضيح راجع كتاب « العقيدة الإسلامية وأسسها » للدكتور عبد الرَّحمان حبنكة الميداني .

(٣) هاكذا جاءت الآثار عن السَّلف الصَّالح والمتقدِّمين من العلماء . راجع كتاب شرح العقيدة الطَّحاويَّة ، وشرح الواسطيَّة وغيرهما .

إِبَاحَةٌ كَالشَّهَوَاتِ الْمُبَاحَةِ مِنَ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَاللَّبْسِ وَالنِّكَاحِ فَاهْجَرَهُ أَيْضاً
وَلَا تَقْبَلْهُ ، وَأَعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ إِلْهَامِ النَّفْسِ وَشَهَوَاتِهَا ، وَقَدْ أُمِرَتْ بِمُخَالَفَتِهَا
وَعِدَاوَتِهَا .

وَإِنْ لَمْ تَجِدْ فِي الْكِتَابِ / وَالسُّنَّةِ تَحْرِيمَهُ وَلَا إِبَاحَتَهُ ، بَلْ هُوَ أَمْرٌ ١١/ب
لَا تَعْقِلُهُ مِثْلُ أَنْ يُقَالَ أَتَيْتُ مَوْضِعَ كَذَا وَكَذَا ، إِلَقَ فُلَانًا { الصَّالِح } ،
وَلَا حَاجَةَ لَكَ هُنَاكَ وَلَا فِي الصَّالِحِ لَاسْتِغْنَائِكَ عَنْهُ بِمَا أَوْلَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
مِنْ نِعَمِهِ ، مِنْ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ ، فَتَوَقَّفْ فِي ذَلِكَ وَلَا تُبَادِرْ إِلَيْهِ ، فَتَقُولُ
هَلْ هَذَا إِلْهَامٌ مِنَ الْحَقِّ عَزَّ وَجَلَّ فَأَعْمَلُ بِهِ ؟ بَلْ أَنْظِرِ الْخَيْرَ فِي ذَلِكَ وَفَعَلَ
الْحَقُّ عَزَّ وَجَلَّ ، بِأَنْ يَتَكَرَّرَ ذَلِكَ الْإِلْهَامُ وَتُؤْمَرَ بِالسَّعْيِ ، أَوْ عَلَامَةٌ تَظْهَرُ
لِأَهْلِ الْعِلْمِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَعْقِلُهَا الْعُقَلَاءُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ ، وَالْمُؤَيَّدُونَ مِنَ
الْأَبْدَالِ ، وَإِنَّمَا لَمْ تَبَادِرْ إِلَى ذَلِكَ لِأَنَّكَ لَا تَعْلَمُ عَاقِبَتَهُ وَمَا يؤولُ الْأَمْرُ
إِلَيْهِ ، وَمَا كَانَ فِيهِ فِتْنَةٌ وَهَلَاكٌ وَمَكْرٌ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَمْتَحَانٌ .
{ فَاصْبِرْ } حَتَّى يَكُونَ هُوَ عَزَّ وَجَلَّ الْفَاعِلُ فِيكَ .

فَإِذَا تَجَرَّدَ الْفِعْلُ وَحُمِلَتْ إِلَى هُنَاكَ وَأَسْتَقْبَلَتْكَ فِتْنَةٌ ، كُنْتَ مَحْمُولاً
مَحْفُوظاً فِيهَا ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعَاقِبُكَ عَلَى فِعْلِهِ ، وَإِنَّمَا تَتَطَرَّقُ الْعُقُوبَةُ
نَحْوُكَ لِكُونِكَ فِي الشَّيْءِ ، وَإِنْ كُنْتَ فِي حَالَةِ الْحَقِيقَةِ وَهِيَ حَالَةُ الْوَلَايَةِ
فَخَالَفَ هَوَاكَ وَأَتَّبَعَ الْأَمْرَ فِي الْجُمْلَةِ .

وَأَتَّبِعِ الْأَمْرَ عَلَى قِسْمَيْنِ :

أَحَدُهُمَا : أَنْ تَأْخُذَ مِنَ الدُّنْيَا الْقُوَّةَ الَّتِي هُوَ حَقُّ النَّفْسِ ، وَتَتْرَكَ
الْحِظَّ ، وَتُؤَدِّيَ الْفَرَضَ ، وَتَشْتَغَلَ بِتَرْكِ { الذُّنُوبِ } مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَنَ .

وَالْقِسْمُ الثَّانِي : مَا كَانَ { بِأَمْرِ } بَاطِنٍ ، وَهُوَ أَمْرُ الْحَقِّ عَزَّ وَجَلَّ ،

١٢/ أ { يأمر عبده } وينهاه ، وإيَّما / يتحقَّق هذا الأمر في المباح الَّذي ليس له حكم في الشَّرْع ، على معنى أَنَّهُ ليس من قبيل { التَّهْيِ } ولا من قبيل الأمر الواجب ، بل هو مهمل ، تُرِكَ العبد يتصرَّف فيه باختياره ، فيسمَّى مباحاً ، فلا يُحدث العبد فيه شيئاً من عنده ، بل ينتظر الأمر فيه ، فإذا أمر أمثل ، فتصير { جميع } حركاته وسكناته بالله عزَّ وجلَّ ، ما في الشَّرْع حُكْمُهُ فبالشرع ، وما ليس له حكم في الشَّرْع فبالأمر الباطن ، فحينئذٍ يصير محقّقاً من أهل الحقيقة ، وما ليس فيه أمر باطن فهو مجرد الفعل حالة التسليم .

وإن كنت في حالة حقِّ الحقِّ { عزَّ وجلَّ } ، وهي حالة المحوِّ والفناء ، وهي حالة الأبدال ، والمنكسري القلوب لأجل الحقِّ عزَّ وجلَّ ، الموحدِّين العارفين ، أرباب العلوم والعقل ، السادة الأمراء الشحن خفراء الخلق ، خلفاء الرِّحمان وأخلاؤه وأعيانه وأحبَّائه عليهم السَّلام ، فاتَّباع الأمر فيها بمخالفتك إيَّاك بالتَّبَرِّي من الحول والقوَّة ، [وآلآ] يكون لك إرادة وهمَّة في شيء ألبته دنيا وعقبى ، فتكون عبد المَلِك لا عبد المُلْك ، وعبد الأمر لا عبد الهوى ؛ كالطُّفل { الرِّضِيع مع { الظُّر ، والميت { الغسيل } مع الغاسل ، والمريض المقلوب على جنبه { بين يدي { الطَّبيب ، فيما سوى الأمر والتَّهْيِ .

أخمد شهوتك وإلاَّ أحرقتك !

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : إذا أُلقيت عليك شهوة النِّكاح في حالة الفقر ، وعجزت عن مؤنته ، فصبرت عنه ، منتظراً للفرَج من ١٢/ ب الباري عزَّ وجلَّ إمَّا بزوالها وإقلاعها عنك بقدرته الَّتِي ألقاها عليك / وأوجدتها فيك ، فيعينك ويصونك عن حمل مؤنتها أيضاً أو إيصالها إليك

موهبة مهنتاً مكفاً من غير ثقل في الدنيا ولا تبعه في العقبى .
 سَمَّاكَ { الله } عَزَّ وَجَلَّ شاكراً لصبرك عنها وراضياً بِقَسْمِهِ ، وزادك
 عصمة وقوة ، فَإِنْ كانت { قسمتكَ } ساقها إِلَيْكَ مكفاً مهنتاً ، فينقلب
 الصَّبْرُ شُكْراً ، { لَأَنَّهُ } عَزَّ وَجَلَّ وعد الشَّاكِرِينَ بالزَّيَادَةِ فِي الْعَطَاءِ ، قال
 عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ . . لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [سورة إبراهيم ١٤ / ٢٧] .
 { وَإِنْ } لم تكن قَسْماً لك ، فالغنى عنها بقلعها من القلب إِنْ شاءت
 النَّفْسُ أَوْ أَبَتْ .

فلازم الصَّبْرُ وخالف الهوى ، وعانق الأمر وأرضَ بالقضاء ، وأرجُ
 بذلك الفضل والعطاء ، وقال جلَّ وعلا : ﴿ . . إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ
 أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [سورة الزُّمَر ٣٩ / ١٠] .

لا تشغلك نعمة عن المنعم

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : إِذَا أَعْطَاكَ اللهُ { عَزَّ وَجَلَّ }
 مَالاً فَاشْتَغَلْتَ بِهِ عَنْ طَاعَتِهِ ، حَجَبَكَ بِهِ عَنْهُ دُنْيَا وَأُخْرَى ، وَرَبَّمَا سَلَبَكَ
 إِيَّاهُ { وعشرك } وَأَفْقَرَكَ عَقُوبَةً لَكَ لاشتغالك بالنَّعْمَةِ عَنِ الْمُنْعِمِ ، وَإِنْ
 اشْتَغَلْتَ بِطَاعَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ عَنِ الْمَالِ جَعَلَهُ لَكَ مُوَهِّبَةً ، وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ حَبَّةً
 وَاحِدَةً ، وَيَكُونُ الْمَالُ خَادِمَكَ وَأَنْتَ خَادِمُ الْمَوْلَى ، فَتَعِيشَ فِي الدُّنْيَا
 مَدَلَّلاً ، وَفِي الْعَقَبِ مَكْرَماً مَطِيَّاً ، فِي جَنَّةِ الْمَأْوَى مَعَ الصَّدِيقِينَ
 وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ .

اختر ما اختاره الله

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : لا تختَرِ جلب النِّعَمَاءِ
 ولا دفع البلوى .

فالتَّعْمَاءُ / واصله إِلَيْكَ إِنْ كَانَتْ قَسْمُكَ { أَسْتَحْلِيهَا } أَوْ كَرِهْتَهَا .

والبَلَوَى حَالَةً بِكَ إِنْ كَانَتْ قَسْمُكَ مَقْضِيَةً عَلَيْكَ سِوَاءَ كَرِهْتَهَا أَوْ دَفَعْتَهَا عَنْكَ بِالذُّعَاءِ ، أَوْ صَبَرْتَ وَتَجَلَّدْتَ لِرِضَى الْمَوْلَى . بَلْ سَلَّمَ فِي الْكَلِّ ، فَيَفْعَلُ الْفَعْلَ فِيكَ .

فَإِنْ كَانَتْ التَّعْمَاءُ فَاسْتَغْلَ بِالشُّكْرِ ، وَإِنْ كَانَتْ الْبَلَوَى فَاسْتَغْلَ بِالتَّصَبُّرِ أَوْ الصَّبْرِ ، أَوْ الْمَوَافَقَةِ وَالرِّضَا أَوْ التَّنْعُمِ بِهَا أَوْ الْعَدَمِ وَالْفَنَاءِ فِيهَا ، عَلَى قَدَرِ مَا تُعْطَى مِنَ الْحَالَاتِ ، فَتَنْقَلُ فِيهَا ، وَتَسِيرُ فِي الْمَنَازِلِ فِي طَرِيقِ الْمَوْلَى ، الَّذِي أُمِرَتْ بِطَاعَتِهِ وَالْمَوَالَاةِ ، وَتُقْطَعُ بِكَ الْفِيَا فِي وَالْمَفَاوِزِ^(١) وَالْبَرَارِي إِلَى الْمَقَامَاتِ ، لِتَصِلَ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى ، { فَتَقَامُ } حِينَئِذٍ مَقَامٍ مِنْ تَقَدَّمَ وَمَضَى مِنَ الصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ - أَعْنِي بِهِ قَرَبَ الْعَلِيِّ الْأَعْلَى - لِتَعَايِنَ مَقَامٍ مِنْ سَبَقَكَ إِلَى الْمَلِكِ وَمِنْهُ دَنَا ، وَوَجَدَ عِنْدَهُ كُلَّ ظَرِيفَةٍ جَزِيئاً وَسُروراً وَأَمناً وَكَرَامَةً ، وَنَعْمًا .

دَعِ الْبَلِيَّةَ تَزُرْكَ ، خَلِّ عَنْهُ سَبِيلَهَا ، وَلَا تَقِفْ بِدَعَائِكَ فِي وَجْهِهَا ، وَلَا تَجْزَعُ مِنْ مَجِيئِهَا وَقَرَبِهَا ، فَلَيْسَ نَارُهَا أَعْظَمَ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ [وَلِظَاهَا] ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْخَبَرِ الْمَرْوِيِّ عَنْ خَيْرِ الْبَرِيَّةِ وَخَيْرِ مَنْ أَقْلَنَتْهُ الْأَرْضُ وَأَظْلَمَتْهُ السَّمَاءُ مُحَمَّدٌ الْمَصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ { تَعَالَى } عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ : « إِنْ نَارَ جَهَنَّمَ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِ جُزْياً مُؤْمِنٌ فَقَدْ أَطْفَأَ نُورُكَ لَهْبِي »^(٢) . فَهَلْ كَانَ نُورُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي أَطْفَأَ لَهَبَ النَّارِ فِي اللَّظَى ، إِلَّا

(١) وَهِيَ الصَّحْرَاءُ الْوَاسِعَةُ الَّتِي لَا مَاءَ فِيهَا .

(٢) أَخْرَجَهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي « الْكَبِيرِ » ج ٢٢/٢٥٨ - ٢٥٩ ، عَنْ يَعْلَى بْنِ مَنِيعٍ ، وَرَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي « الْحَلِيَّةِ » ، ج ٩/٣٢٩ . وَذَكَرَهُ الْقُرْطُبِيُّ فِي « التَّذَكُّرَةِ » ، ص ٣٤ ، كُلُّهُمَا مِنْ طَرِيقَيْنِ عَنْ بَشِيرِ بْنِ طَلْحَةَ ، عَنْ خَالِدِ بْنِ دَرِيكٍ ، عَنْ يَعْلَى بْنِ مَنِيعٍ ، وَبَشِيرِ بْنِ طَلْحَةَ ضَعِيفٌ ، وَخَالِدِ بْنِ دَرِيكٍ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ يَعْلَى بْنِ مَنِيعٍ ، فَهُوَ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ مُتَقَطَعٌ .

النور / الذي صحبه في الدنيا ، الذي تميّز به من { بين } من أطاع ١٣/ب وعصى .

فليطفئ هذا النور لهب البلوى ، وليُخمد برد صبرك وموافقتك المولى وهج ما حلّ بك من ذلك ومنك دنا .

فالبليّة لم تأتك لتُهْلِكك ، ولكنّها تأتيك { لتختبرك } وتحقّق صحّة إيمانك ، وتؤيّد قاعدة يقينك ، ويبشّر بك باطنها من مولاك بمباهاته بك .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ [سورة محمّد ٤٨ / ٣١] .

فإذا ثبت مع الحقّ بإيمانك ووافقتّه في فعله بيقينك ، كلّ ذلك بتوفيق منه وفضل { ومِنّة } ، فكن حينئذٍ { له } أبداً صابراً موافقاً مسلماً ، لا تحدث فيك ولا في غيرك حادثة ما خرج عن الأمر والتّهي ، فإذا جاء أمره عزّ وجلّ فتتابع وتُسارع وتجلّد وتقاوى وتحرك ولا تسكن ، ولا تسلّم للقدر والفعل ، بل أبذل طوقك ومجهودك لتؤدي الأمر ، فإنّ عجزت فدونك التّضرّع والالتجاء إلى مولاك عزّ وجلّ ، فالتجئ إليه وتضرّع وأعتذر ، وفتش عن سبب عجزك عن أداء أمره عزّ وجلّ وصدّك عن التّشرف بطاعته ، ولعلّ ذلك لشؤم دعائك وسوء أدبك في طاعته ، ورعونتك وأتّكالك على حولك وقوّتك ، وإعجابك بعلمك ، وشركك إيّاه { عزّ وجلّ } بنفسك وبخلقه . فصدّك عن بابه ، وعزّلك عن طاعته وخدمته ، وقطع عنك مدد توفيقه ، وولّى عنك وجهه الكريم ، ومقتك وقلاك^(١) ، وشغلك ببلائك ودنياك وهواك وإرادتك ومناك .

(١) أي : بغضك وكرهك أشدّ الكره .

١٤/أ أما تعلم / أَنَّ كُلَّ ذَالِكٍ مَشْغَلِكُ عَنْ مَوْلَاكَ ، وَمُسْقِطُكَ عَنْ عَيْنِ
الَّذِي خَلَقَكَ وَرَبَّكَ ، وَخَوَلُّكَ وَأَعْطَاكَ وَحَبَاكَ .

أَحْذَرُ لَا يَلْفُتُكَ عَنْ مَوْلَاكَ غَيْرَ مَوْلَاكَ ، كُلُّ مَنْ سِوَى مَوْلَاكَ غَيْرُهُ فَلَا
تُؤَثِّرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ ، فَإِنَّهُ خَلَقَكَ لَهُ ، فَلَا تَظْلِمُ نَفْسَكَ فَتَشْتَغِلَ بِغَيْرِهِ عَنْ أَمْرِهِ ،
فَيُدْخِلُكَ نَارَهُ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ فَتَنْدَمُ ، فَلَا يَنْفَعُكَ النَّدَمُ ،
وَتَعْتَذِرُ فَلَا تُعْذَرُ ، وَتَسْتَغِيثُ فَلَا تُغَاثُ ، وَتَسْتَعِيبُ فَلَا { تَعْتَبُ } ،
وَتَسْتَرْجِعُ إِلَى الدُّنْيَا لِتَسْتَدْرِكَ وَتُصْلِحَ فَلَا تَرْجِعُ .

أَرْحَمُ نَفْسِكَ وَأَشْفَقُ عَلَيْهَا ، أَسْتَعْمِلُ الْآلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ الَّتِي أُعْطَيْتُهَا
فِي طَاعَةِ مَوْلَاكَ ، مِنْ الْعَقْلِ وَالْإِيمَانِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ . لِتَسْتَنِيرَ بِنُورِهِمَا
فِي ظُلُمَاتِ الْأَقْدَارِ ، وَتَمَسَّكَ بِالْأَمْرِ وَالتَّهْيِ ، وَسِرَّ بِهِمَا فِي طَرِيقِ
مَوْلَاكَ ، وَسَلَّمَ مَا سِوَاهُمَا إِلَى الَّذِي خَلَقَكَ وَأَنْشَأَكَ ، { فَلَا تَكْفُرْ بِالَّذِي
خَلَقَكَ مِنْ تَرَابٍ وَرَبَّكَ ، ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ، ثُمَّ رَجُلًا سَوَاكَ } ، فَلَا تَرُدْ غَيْرَهُ
أَمْرَهُ ، وَلَا تَكْرَهُ غَيْرَ نَهْيِهِ .

أَقْتَنِعْ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَىٰ بِهَٰذَا الْمَرَادِ ، وَأَكْرَهُ فِيهِمَا هَٰذَا الْمَكْرُوهَ ،
فَكُلَّ مَا يُرَادُ تَبِعَ لِهَٰذَا الْمَرَادِ ، وَكُلَّ مَا يُكْرَهُ تَبِعَ لِهَٰذَا الْمَكْرُوهِ .
إِذَا كُنْتَ مَعَ أَمْرِهِ كَانَتْ الْأَكْوَانُ فِي أَمْرِكَ ، وَإِذَا كَرِهْتَ نَهْيَهُ فَرَّتْ
مِنْكَ الْمَكَارَهُ أَيْنَ كُنْتَ وَحَلَلَتْ .

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ : (يَا أَبْنَ آدَمَ أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ،
أَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ ، أَطْعَمَنِي أَجْعَلْكَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ) ، وَقَالَ
{ اللَّهُ } عَزَّ وَجَلَّ : (يَا دُنْيَا مِنْ خِدْمَتِي فَاخْدُمِي ، وَمَنْ خَدَمَكَ
فَاتَّعَبِيهِ)^(١) { أَخْدُمِي مِنْ خِدْمَتِي ، وَأَسْتَخْدِمِي مِنْ خِدْمَتِكَ } .

(١) ذكره الفتنى في « تذكرة الموضوعات » ، ص ١٧٥ وقال : موضوع . وهو ليس
بحديث قدسي ، إنما هو من كلام ابن عيينة كما صرح بذلك المناوي في « فيض
القدير » ج ٢ / ٣٠٥ .

فإذا جاء نهيه عزَّ وجلَّ فكنْ كأنتك مسترخي المفاصل / ، مسكِّن ١٤/ب
 الحواس ، منجزع الجنان ، مضيق الذَّرع ، متماوت الجسد ، زائل
 الهوى ، منطمس الرُّسوم ، ممتحي { الرُّسوم } ، منسي الأثر ، مظلم
 الفنا ، متهدَّم البناء ، خاوي البيت ، ساقط العرش ، لا حسَّ ولا أثر ،
 فليكن سمعك كأثَّه أصم وعلى ذلك مخلوق ، وبصرك كأثَّه معصَّب
 ومرمود أو أكمه مطموس ، وشفتك كأثَّ بهما قرحة وبُثوراً^(١) ، ولسانك
 كأثَّ به خرساً وكلولاً ، وأسنانك كأثَّ بهما ضرباً وألاماً وبُثوراً^(٢) ، ويداك
 كأثَّ بهما شللاً وعن البطش قصوراً ، ورجلاك كأثَّ بهما رعدة وأرتعاشاً
 وجروحاً ، وفرجك كأثَّ به عتَّة وبغير ذلك الشَّان مشغولاً ، وبطنك كأثَّ
 به أمتلاء وأرتواء وعن الطَّعام غنى ، وعقلك { فكأثَّك } مجنون
 { ومخبول } ، وجسدك فكأثَّك ميّت وإلى القبر محمول ، فالتَّسامع
 والتَّسارع في الأمر ، والتَّقاعد والتَّقاصر في النَّهي ، والتَّماوت والتَّقادم
 والتَّقاني في القدر .

فاشرب هاذة الأشربة ، وتداوى بهاذا { الدَّواء } ، وتغذَّى بهاذا
 الغِذاء ، تنجع وتشفى ، وتُعافى من أمراض الدُّنوب وعلل الأهواء ، بإذن
 الله { تعالى } ، إن شاء الله تعالى .

وني ذاكُ فلينافس المتنافسون

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : لا تدع حالة القوم يا صاحب
 { النَّفس } والهوى ، أنت تعبد الهوى وهم عبيد المولى ، أنت رغبتك

(١) البثورُ : ما يظهر على الوجه والجلد من خُراج أو قروح .

(٢) أي هالكة تالفة .

١٥/أ في الدنيا ورغبة القوم في العقبى ، أنت ترى الدنيا وهم يرون ربَّ الأرض
والسَّماء ، أنت أنسك بالخلق وأنس القوم بالحق ، أنت قلبك متعلق /
بمن في الأرض وقلوب القوم متعلّقة بربِّ العرش ، أنت يصطادك من ترى
وهم لا يرون من ترى ؛ بل يرون خالق الأشياء وما يرى ، فاز القوم
وحصلت لهم النّجاة ، وبقيت أنت مُرتَهَنٌ بما تشتهي من الدنيا
وما تهوى ، فالقوم فنوا عن الخلق والهوى والإرادة والمُنَى ، فوصلوا إلى
المليك الأعلى ، فأوقفهم على غاية ما رام منهم من الطّاعة والحمد
والثناء ، ذاك فضل الله يؤتيه من يشاء ، فلازموا ذلك وواظبوا بتوفيق منه
وتيسير بلا عناء .

فصارت الطّاعة لهم روحاً وغذاء ، وصارت الدنيا إذ ذاك في حقّهم
نعمةً وجزياً ، فكأنّها لهم جنّة المأوى ، إذ ما يرون شيئاً من الأشياء حتّى
يروا قبله فعل الله تعالى الذي خلق وأنشأ ، فبهم ثبات الأرض والسَّماء ،
وقرار الموتى والأحياء ، إذ جعلهم مليكهم أوتاد الأرض الذي دحا ،
فكلُّ كالجبل الذي رسا ، فتنح عن طريقهم ولا تزاحم من لم يقيده عن
قصده الآباء والأبناء ، فهم خيرٌ من خلق ربّي وبثّ في الأرض وذراً ،
فعلّهم سلام الله وتحياته وبركاته ما دامت السّماوات والأرضين .

جناح الإيمان خوفٌ ورجاء

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : رأيت في المنام كأنّي في
موضع شبه مسجد ، وفيه قومٌ منقطعون ، فقلت : لو كان لهاؤلاء فلان
يؤدّبهم ويرشدهم . فأشرت إلى رجل من الصّالحين فاجتمع القوم

حولي ، فقال واحد منهم / : فَأَنْتَ لِمَ لَا تَتَكَلَّمُ ؟ فقلت : إِنَّ رَضِيتُمُونِي ١٥/ب
لذلك .

ثُمَّ قُلْتُ : إِذَا انْقَطَعْتُمْ عَنِ الْخَلْقِ إِلَى الْحَقِّ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا تَسْأَلُوا النَّاسَ
شَيْئاً بِالسُّنَّتِمْ ، فَإِذَا تَرَكْتُمْ ذَلِكَ فَلَا تَسْأَلُوهُمْ بِقُلُوبِكُمْ ، فَإِنَّ السَّوْأَلَ
بِالْقَلْبِ كَالسَّوْأَلِ بِاللِّسَانِ .

ثُمَّ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ، فِي تَغْيِيرٍ وَتَبْدِيلٍ ،
وَرَفْعٍ وَخَفْضٍ ، فَيَرْفَعُهُمْ إِلَى عَلِيِّينَ ، وَيُخَفِّضُهُمْ إِلَى أَسْفَلِ
السَّافِلِينَ .

فَخُوفَ الَّذِينَ رَفَعَهُمْ إِلَى الْعَلِيِّينَ أَنْ يَحْطَهُمْ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ ،
وَرَجَاؤُهُمْ أَنْ يَبْقِيَهُمْ وَيَحْفَظَهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الرَّفْعِ .

وَخُوفَ الَّذِينَ حَطَّهُمْ إِلَى أَسْفَلِ السَّافِلِينَ ، أَنْ يُبْقِيَهُمْ وَيُخَلِّدَهُمْ عَلَى
مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْحَطِّ ، وَرَجَاؤُهُمْ أَنْ يَرْفَعَهُمْ إِلَى عَلِيِّينَ . ثُمَّ أَنْتَبَهْتُ .

تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ تَجِدَهُ تَجَاهَكَ

قَالَ رَضِيَ اللَّهُ { تَعَالَى } عَنْهُ وَأَرْضَاهُ : إِنَّمَا { حُجِبَكَ اللَّهُ عَنْ فَضْلِهِ
وَالْبِدَايَةِ } بِنِعْمَتِهِ لَا تُكَالِكَ عَلَى الْخَلْقِ وَالْأَسْبَابِ . وَالصَّنَائِعِ
{ وَالْاِكْتِسَابِ } .

فَالْخَلْقُ حُجَابُكَ عَنِ الْأَكْلِ بِالسُّنَّةِ وَهُوَ الْكَسْبُ ، فَمَا دُمْتَ قَائِماً مَعَ
الْخَلْقِ ، رَاجِئاً لِعَطَائِهِمْ وَفَضْلِهِمْ ، سَائِلاً لَهُمْ ، مُتَرَدِّداً إِلَى أَبْوَابِهِمْ ،
فَأَنْتَ مُشْرِكٌ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَهُ ، فَيَعَاقِبُكَ بِحَرَمَانِ الْأَكْلِ بِالسُّنَّةِ الَّذِي هُوَ
الْكَسْبُ مِنْ حِلَالِ الدُّنْيَا .

ثُمَّ إِذَا ثُبَّتَ عَنِ الْقِيَامِ مَعَ الْخَلْقِ ، وَشَرِكِكَ بِرَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ بِهِمْ ، وَرَجَعْتَ إِلَى الْكَسْبِ فَتَأْكُلُ بِالْكَسْبِ ، وَتَتَوَكَّلُ عَلَى الْكَسْبِ ، وَتَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ وَتَنْسَى فَضْلَ الرَّبِّ { عَزَّ وَجَلَّ } ، فَأَنْتَ مُشْرِكٌ أَيْضاً ، إِلَّا أَنَّهُ شَرِكٌ ١٦/أ خَفِيٌّ أَخْفَى مِنَ الْأَوَّلِ^(١) ، فَيَعَاقِبُكَ اللَّهُ وَيَحْجُبُكَ عَنْ فَضْلِهِ / وَالبداية به .

فَإِذَا ثُبَّتَ عَنِ ذَلِكَ وَأُزِلَتِ الشَّرِكُ عَنِ الْوَسْطِ ، وَرَفَعْتَ أَتَكَالِكَ عَلَى الْكَسْبِ وَالْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ ، وَرَأَيْتَ اللَّهَ { عَزَّ وَجَلَّ } هُوَ الرِّزَاقُ ، وَهُوَ الْمُسَبَّبُ وَالْمُسَهِّلُ وَالْمَقْوِي عَلَى الْكَسْبِ ، { وَالْمَوْقُوعُ } لِكُلِّ خَيْرٍ ، وَالرِّزْقُ بِيَدِهِ تَارَةً يُوَاصِلُكَ بِهِ بِطَرِيقِ الْخَلْقِ عَلَى وَجْهِ الْمَسْأَلَةِ لَهُمْ فِي حَالَةِ الْإِبْتِلَاءِ أَوْ الرِّيَاضَةِ أَوْ عِنْدَ سَوَالِكَ لَهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأُخْرَى بِطَرِيقِ الْكَسْبِ مُعَاوَضَهُ ، وَأُخْرَى مِنْ فَضْلِهِ مُبَادَاةً مِنْ غَيْرِ أَنْ تَرَى { الْوَاسِطَةَ } وَالسَّبَبَ ، وَرَجَعْتَ إِلَيْهِ { وَأَسْتَطَرَحْتَ } بَيْنَ يَدَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ رَفَعَ الْحِجَابَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ فَضْلِهِ { عَزَّ وَجَلَّ } ، وَبَادَاكَ وَغَدَاكَ بِفَضْلِهِ ، عِنْدَ كُلِّ حَاجَةٍ عَلَى قَدَرٍ مَا يُوَافِقُ حَالَكَ ، كَفَعَلَ الطَّبِيبُ الشَّفِيقُ الرَّفِيقُ الْحَبِيبُ بِالْمَرِيضِ حِمَايَةً مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَتَنْزِيهًا لَكَ عَنِ الْمِيلِ إِلَى مَنْ سِوَاهُ ، وَبِرِضَاكَ بِفَضْلِهِ .

فَإِذَا يَنْقَطِعُ عَنْ قَلْبِكَ كُلُّ إِرَادَةٍ وَكُلِّ شَهْوَةٍ وَلَذَّةٍ وَمَطْلَبٍ وَمُحِبِّبٍ ، فَلَا يَبْقَى فِي قَلْبِكَ سِوَى إِرَادَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ . فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَسُوقَ إِلَيْكَ قَسْمُكَ الَّذِي لَا بَدَّ لَكَ مِنْ تَنَاوُلِهِ وَلَيْسَ هُوَ رِزْقٌ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ عَزَّ وَجَلَّ سِوَاكَ ، أَوْجَدَ عِنْدَكَ شَهْوَةَ ذَلِكَ الْقَسْمِ وَسَاقَهُ إِلَيْكَ ، فَيُوَاصِلُكَ بِهِ عِنْدَ الْحَاجَةِ .

(١) وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « الشَّرِكُ فِي هَذِهِ الْأَمَةِ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ الثَّمَلَةِ السُّودَاءِ عَلَى صَفَحَاتِ سُودَاءٍ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ » .

ثُمَّ يُوَفِّقُكَ لَشُكْرِهِ ، وَيَعْرِفُكَ أَنَّهُ مِنْهُ { عَزَّ وَجَلَّ } ، وَهُوَ سَائِقُهُ إِلَيْكَ وَرَازِقُهُ لَكَ .

فَتَشْكُرُهُ حَنِينًا وَتَعْرِفُ وَتَعْلَمُ ، فَيَزِيدُكَ خُرُوجًا مِنَ الْخَلْقِ ، وَبُعْدًا مِنَ الْأَنَامِ ، وَخَلْوًا الْبَاطِنَ مِمَّا سِوَاهُ عَزَّ وَجَلَّ .

ثُمَّ إِذَا قَوِيَ عِلْمُكَ / وَبَيَّنَّكَ ، وَشَرِّحَ صَدْرُكَ ، وَنَوَّرَ قَلْبُكَ ، وَزَادَكَ ١٦/ب قُرْبُكَ مِنْ مَوْلَاكَ عَزَّ وَجَلَّ وَمَكَانَتِكَ لَدَيْهِ ، وَأَمَانَتِكَ عِنْدَهُ ، وَأَهْلِيَّتِكَ لِحِفْظِ الْأَسْرَارِ ، عَلِمْتَ مَتَى يَأْتِيكَ قَسْمُكَ قَبْلَ حِينِهِ كَرَامَةً لَكَ ، وَإِجْلَالًا { لِحَرَمَتِكَ } ، وَفَضْلًا مِنْهُ وَمِنَّةً وَهَدَايَةً .

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [سورة السَّجْدَةِ ٣٢/٢٤] ، وَقَالَ { تَعَالَى } : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا .. ﴾ [سورة العنكبوت ٢٩/٦٩] ، وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ .. وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ .. ﴾ [سورة البقرة ٢/٢٨٢] .

ثُمَّ يَرُدُّ إِلَيْكَ التَّكْوِينَ ، فَتَكُونُ بِالْإِذْنِ الصَّرِيحِ الَّذِي لَا غِبَارَ عَلَيْهِ ، وَالذَّلَالَاتِ اللَّائِحَةِ كَالشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ ، وَبِكَلَامِ لَذِيذِ أَلْدُّ مِنْ كُلِّ لَذِيذٍ ، وَإِلْهَامِ صَدَقٍ مِنْ غَيْرِ تَلْبِيسٍ ، الْمَصْقَفَى مِنْ هَوَاجِسِ النَّفْسِ وَوَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ اللَّعِينِ .

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ : (يَا بَنِي آدَمَ أَنَا اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ، أَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ ، أَطْعَمُنِي أَجْعَلُكَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكُونُ) .
وَقَدْ فَعَلَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ مِنْ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَخَوَاصِّهِ مِنْ بَنِي آدَمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

إِصْلَاحُ مَنْ خُلِقَ إِلَى الْخَالِقِ ، وَمَنْ الْكَوْنُ إِلَى الْمَكُونِ

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : إذا وصلت إلى الله تعالى ،
فقربت منه بتقريبه وتوفيقه .

ومعنى الوصول إلى الله عز وجلّ خروجك عن الخلق والهوى
والإرادة والمُنَى ، والثبوت مع فعله عز وجلّ وإرادته تعالى ، من غير أن
يكون منك حركة ، فيك ولا في خلقه بك ، بل بحكمه وأمره وفعله ،
أ/١٧ فهي حالة الفناء / يعبر عنها بالوصول .

فالوصول إلى الله عز وجلّ ليس كالوصول إلى أحد من خلقه المعقول
المعهود ﴿ . . لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [سورة الشورى
١١/٤٢] .

جلّ الخالق أن يشبّه بمخلوقاته ، أو يُقاس على { مصنوعاته } .

فالوصول إليه عز وجلّ معروف عند أهل الوصول ، بتعريفه { عزّ
وجلّ } لهم كلّ واحد على حدّه ، ولا يشاركه فيه غيره ، له عزّ وجلّ مع
كلّ واحد من رسله وأنبيائه وأوليائه سرّاً من حيث هو ، لا يطلع على ذلك
أحد غيرهما ، حتّى أنّه قد يكون للمريد سرّاً لا يطلع عليه شيخه ، وللشيخ
سرّاً لا يطلع عليه مريده ، الذي قد دنا في سيره إلى عتبة باب حالة شيخه .
فإذا بلغ المريد حالة شيخه أفرد عن الشيخ وقطع عنه ، فيتولاه الحقّ
عزّ وجلّ ، { فيفطمه } عن الخلق جملة ، فيكون الشيخ كالظنّ والدّاية ،
لارضاع بعد الحولين ، لا خلق بعد زوال الهوى والإرادة .

والشيخ يُحتاجُ إليه ما دام ثمّ هوى وإرادة لكسرهما ، وأمّا بعد

زوالهما فلا ، لآته لا كدورة ولا نقصان .

فإذا وصلت إلى الحق { عز وجل } على ما بينا ، فكن آمناً أبداً ممن
سواه عز وجل ، فلا ترى لغيره وجوداً آلبته ، لا في الضر ولا في النفع ،
ولا في العطاء ولا في المنع ، ولا في الخوف ولا في الرجاء ، بل هو عز
وجل أهل التقوى وأهل المغفرة .

فكن أبداً ناظراً إلى فعله ، مترقباً لأمره ، مشتغلاً بطاعته ، مبيناً عن
جميع خلقه دنيا وأخرى .

لا تعلق قلبك بشيء من خلقه ، وأجعل الخليقة أجمع كرجل كتفه^(١)
سلطان عظيم ملكه ، شديد أمره ، مهولة صولته / وسطوته ، ثم جعل ١٧/ب
الغل في رقبته ، ثم مع رجليه ، ثم صلبه على شجرة الأرز على شاطئ نهر
عظيم موجه ، فسيح عرضه ، عميق غوره ، شديد جريه ، ثم جلس
السلطان على كرسي ، عظيم قدره ، عال سماؤه ، بعيد مرامه ووصله ،
وترك { إلى جانبه } أحمالاً من السهام والرماح والتبل وأنواع السلاح
والقسي مما لا يبلغ قدرها غيره ، فجعل يرمي إلى المصلوب بما شاء من
ذلك السلاح ، فهل يحسن لمن رأى ذلك أن يترك النظر إلى السلطان
ويترك الخوف منه والرجاء له ، وينظر إلى المصلوب ويخاف منه ويرجو
منه ؟

أليس من فعل ذلك يسمى في قضية العقل عديم العقل والحس
مجنوناً ، بهيمة غير إنسان ؟

فنعوذ بالله من العمى بعد البصيرة ، والقطيعة بعد الوصول ،

(١) شد يذيه من خلفه بحبل .

والصُّدود بعد الدُّنورِ والقُرب ، والضَّلالة بعد الهداية ، والكفر بعد الإيمان .

فالدُّنيا كالتَّهر العظيم الجاري الَّذي ذكرناه ، كلُّ يوم في زيادة مائها ، وهي شهوات بني آدم في الدُّنيا ولذَّاتهم فيها ، { والدَّواهي } الَّتِي تصيبهم منها ، وأما السَّهام وأنواع السَّلاح ، فالبلايا الَّتِي تجري بها القدر إليهم ، فالغالب على بني آدم في الدُّنيا البلايا والنَّقص والآلام والمحن ، وما يجدون من النَّعيم واللَّذات فيها فمشوبة بالآفات إذا أعتبرها ، فكلُّ عاقل لا حياة له { ولا عيش ولا راحة } إلَّا في الآخرة إنَّ كان موقناً ، { لأنَّ ذلك خصوصاً في حقِّ المؤمن } .

قال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى { عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم :
١٨/أ « لا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ »^(١) / وقال عليه الصَّلَاة والسَّلَام : « لا راحةَ لِلْمُؤْمِنِ دُونَ لِقَاءِ رَبِّهِ »^(٢) .

وقال عليه الصَّلَاة والسَّلَام : « الدُّنيا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ [وَجَنَّةُ الْكَافِرِ] »^(٣) وقال عليه الصَّلَاة والسَّلَام : « التَّقِيُّ مُلْجَمٌ »^(٤) .

(١) قطعة من حديث ، أخرجه البخاري في « صحيحه » برقم ٣٧٩٦ ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) ليس له أصل مرفوع ، إنما رواه أحمد في « الزُّهد » ص ١٩٤ عن إبراهيم التَّخعي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . وظاهر هذا الإسناد الانقطاع .

(٣) أخرجه مسلم في « صحيحه » ، كتاب الزُّهد والرقائق ، برقم ١ عن أبي هريرة رضي الله عنه . ومعناه : أنَّ كلَّ مؤمن مسجون ، ممنوع في الدُّنيا من الشهوات المحرَّمة والمكروهة ، مكلف بفعل الطَّاعات الشَّاقة ، فإذا مات أستراح من هذا وأنقلب إلى ما أعدَّ الله تعالى له من النَّعيم الدائم والراحة الخالصة من المنغصات . وأما الكافر فإنَّما له من ذلك ما حصل في الدُّنيا ، مع قلته وتكديده بالمنغصات ، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد .

(٤) ذكره القرطبي في « الجامع لأحكام القرآن » ، ج ١١ ص ١٦١ . وقال في شرحه لاية ﴿ فبئس »

فمع هاذة الأخبار والعيان كيف يدّعي طيب العيش في الدُّنيا ؟ .
 فالرّاحة كلّ الرّاحة في الانقطاع إلى الله عزّ وجلّ وموافقته ،
 والاستطراح بين يديه ، فيكون { العبد } بذلك خارجاً من الدُّنيا .
 فحينئذٍ يكون الدّلال رأفة ورحمة ولطفاً وصدقة وفضلاً .

جُرحُ الأُحِبَّةِ غَيْرِ زِيْ أُلْمِ

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه : الوصية ، لا تشكونَّ إلى أحد ممّا
 نزل بك من ضررٍ كائناً من كان ، صديقاً كان أو عدوّاً ، { ولا تهمنَّ }
 الرّبَّ عزّ وجلّ فيما فعل فيك ، وأنزل بك من البلاء ، بل أظهر الخير
 والبشكر . فكذبك { بإظهارك } الشُّكر من غير نعمة عندك خير من
 صدقك في إخبارك جليّة الحال بالشكوى من الذي خلا من نعمة الله عزّ
 وجلّ .

{ قال الله تعالى : ﴿ .. وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا .. ﴾ }
 [سورة إبراهيم ١٤ / ٣٤] .

فكم من نعمةٍ عندك { وأنت لا تعرفها ؟
 ولا تسكن إلى أحد من الخلق ، ولا تستأنس به ، ولا تُطلع أحداً
 على ما أنت فيه ، بل يكون أنسك بالله عزّ وجلّ ، وسكونك إليه ،
 وشكواك منه وإليه ، لا ترى ثانياً .

= هدى للمتّقين ﴿ ، أَنْ أَصْلَ التَّقْوَى فِي اللُّغَةِ قَلَّةُ الْكَلَامِ ، وَأَسْتَشْهَدُ بِهَذَا الْحَدِيثِ
 وزاد عليه : « .. والمتّقى فوق المؤمن والطّائع » . وهو الذي يتّقى بصالح عمله
 وخالص دعائه عذاب الله تعالى .

فإنَّه ليس لأحد ضررٌ ولا نفع ، ولا جلب ولا دفع ، ولا عزٌّ ولا ذلٌّ ،
ولا رفع ولا خفض ، ولا فقر ولا غنى ، ولا تحريك ولا تسكين ،
الْأَشْيَاءَ كُلُّهَا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَبِيدَ اللهُ ، بِأَمْرِهِ وَإِذْنِهِ جَرِيانُهَا ، كُلُّ يَجْرِي
لِأَجَلٍ مَسْمُومٍ عِنْدَهُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ ، لَا مَقْدَمَ لِمَا آخَرَ ،
وَلَا مُؤَخَّرَ لِمَا قَدَّمَ .

١٨/ ب قال الله عزَّ وجلَّ / : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ،
وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ
الرَّحِيمُ ﴾ [سورة يونس ١٠ / ١٠٧] .

فإنَّ شكوت منه عزَّ وجلَّ وَأَنْتَ معافٍ وعندهك نعمة ما ، طالباً للزيادة
ومتعامياً عما له عندك من النعمة والعافية { أَسْتَزِرُّ } بهما ، غضب عليك
وأزالهما عنك ، وحقَّق شكواك ، وضاعف بلاءك ، وشدَّد عقوبتك ،
ومقتك وقلاك ، وأسقطك من عينه .

فاحذر الشكوى جدّاً ولو قُطِّعت وقُرِضَ لحمك بالمقاريض .

إِيَّاكَ وَإِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ ، اللهُ اللهُ ثُمَّ اللهُ ، النَّجَاةُ النَّجَاةُ ، الحذر الحذر .
فإنَّ أكثر ما ينزل بابن آدم من أنواع البلاء لشكواه من ربِّه عزَّ وجلَّ .

كيف { تشتكي } منه عزَّ وجلَّ وهو أرحم الرَّاحمين ، وخير
الحاكمين ؟ حليم خبير ، رؤوف رحيم ، لطيف بعباده ، ليس بظلام
للعبيد ، كطبيب حليم حبيب شفيق لطيف قريب . فهل يُتَّهَمُ الوالد الشَّفيق
أو الوالدة الشَّفيقة الرَّحيمة ؟

قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ { تَعَالَى } عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ : « اللهُ

أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ مِنَ الْوَالِدَةِ عَلَى وَلَدِهَا»^(١) .

أحسن الأدب يا مسكين ، تصيرُ عندك { البلايا ممن } إن ضعفت عن الصبر ، ثم أصبر إن ضعفت عن الرضا والموافقة . ثم أرض ووافق إن وجدت ، ثم أفن إذا فقدت .

أيها الكبريت الأحمر ، أين أنت ، أين توجد ونرى ؟

أما تسمع إلى قوله تعالى عز وجل : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة ٢ / ٢١٦] .

طوى عنك علم حقيقة الأشياء وحجبك عنه ، فلا تُسيء الأدب / ١٩ / أ فتكره بك أو تحب بك ، بل اتبع الشرع في جميع ما ينزل بك إن كنت في حالة التقوى التي هي القدم الأولى ، وأتبع الأمر في حالة الولاية ووجود الهوى ولا تجاوزه وهي القدم الثانية ، وأرض بالفعل ووافق ، وأفن في حالة البدلية والغوثية والصديقية ، وهي المنتهى .

تنح عن طرق القدر ، خل عن سبيله ، رد نفسك وهواك ، وكف لسانك عن الشكوى .

(١) أخرجه البخاري في « صحيحه » برقم ٥٩٩٩ ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قال : قدم على النبي ﷺ سبي ، فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي ، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته ، فألصقته ببطنها وأرضعته ، فقال لنا النبي ﷺ : « أترؤن هاذي طارحةً ولدها في النار » ، قلنا : لا ، وهي تقدر على أن لا تطرحه ، فقال : « لله أرحم بعباده من هاذي بولدها » .

قلت : وفي الحديث إشارة إلى أنه ينبغي للمرء أن يجعل تعلقه في جميع أموره بالله وحده ، وأن كل من فرض أن فيه رحمة ما حتى يقصد لأجلها ما لله سبحانه وتعالى أرحم منه ، فليقصد العاقل لحاجته من هو أشد له رحمة .

فإذا فعلت ذلك ، إن كان خيراً زادك المولى { سبحانه } حياة طيبةً ولذةً وسروراً ، وإن كان شراً حفظك في طاعته فيه ، وأزال عنك الملامة ، وأفقدك فيه ، حتى يتجاوز عنك ، ويرحل عند أنقضاء أجله ، كما ينقضي الليل فيسفر عن النهار ، والبرد في الشتاء فيسفر عن الصيف .

ذلك { أنموذج } عندك ، فاعتبر به ، ثم ذنوب وآثام وإجرام وتلويث بأنواع المعاصي والخطيئات ، { فلا يصلح } لمجالسة الكريم عز وجل إلا الطاهر من أنجاس الذنوب والزلات ، ولا تقبلُ سدَّته إلا طيباً من درن الدعاوي ، - كما لا يصلح لمجالس الملوك إلا الطاهر من الأنجاس وأنواع التَّن والأوساخ - ، فالبلايا مكفَّرات مطهَّرات .

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « حِمَى يَوْمَ كَفَّارَةُ سَنَةٍ »^(١) .

وف بوعدك وانظر من تعاهد!

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : إذا كنت ضعيف الإيمان واليقين ، ووعدت بوعد وف بوعدك ، ولا تخلف لئلا يزول إيمانك ويذهب يقينك ، فإذا قوي ذلك في قلبك وتمكَّنت ، وخطبت بقوله عز وجل : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ [سورة يوسف ١٢ / ٥٤] ١٩/ ب وتكرَّر / هذا الخطاب لك حالاً بعد حال ، فكنت من الخواص ، بل من

(١) ذكره الفتني في « تذكرة الموضوعات » ص ٢٠٦ ، وقال : ضعيف . وقد أخرج القُصاعي في « الشَّهاب » ج ١ / ٧١ ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « الْحِمَى حُظُّ كُلِّ مُؤْمِنٍ مِنَ النَّارِ ، وَحِمَى لَيْلَةٍ يُكْفَرُ خَطَايَا سَنَةٍ مُجْرَمَةٍ » . وهو أيضاً حديث ضعيف جداً .

خاصّ الخاضّ ، ولم يبق لك إرادة ولا مطلب ، ولا عمل تعجب به ، ولا قربة تراها ، ولا منزلة تلمحها ، فتسمو همّتك إليها { فتصير } كالإناء المثلّم الذي لا يثبت فيه مائع ، فلا يثبت فيك إرادة ولا خلق ولا همّة إلى شيء من الأشياء دنيا وأخرى ، وطُهرت ممّا سوى الله تعالى ، وأعطيت رضاك عن الله عزّ وجلّ ، ووعدت برضوان الله { تعالى } عنك ، ولذّذت ونُعمت بأفعال الله عزّ وجلّ أجمع .

فحينئذٍ توعّد بوعد ، فإذا أطمأنت إليه ، ووجدت فيه أمانة وإرادة ، مانقت عن ذلك الوعد إلى ما هو أعلى منه ، وصُرفت إلى أشرف منه ، وعوّضت عن الأوّل بالغنى عنه ، وفتحت لك أبواب المعارف والعلوم ، وأطلعت على غوامض الأمور وحقائق الحكمة والمصالح المدفونة في الانتقال من الأوّل إلى ما يليه ، ويزاد حينئذٍ في مكانتك في حفظ الحال ثمّ المقام ، وفي أمانتك في حفظ الأسرار ، وشرح الصّدر ، { وتنوير } القلب ، وفصاحة اللسان ، والحكمة البالغة ، في إلقاء المحبّة عليك ، فجُعِلت محبوب الخليفة ، أجمع الثّقلين وما سواهما دنيا وأخرى .

فصرت محبوب الحقّ عزّ وجلّ ، والخلق تابع للحقّ عزّ وجلّ ، ومحبّتهم مندرجة في محبّته ، كما أنّ بغضهم يندرج في بغضه عزّ وجلّ ، فكذلك إذا بلغت هذا المقام الذي ليس لك { فيه } إرادة شيء ألبته ، جُعِلت لك إرادة لشيء / من الأشياء ، فإذا تحقّقت إرادتك لذلك الشيء ٢٠/أ أزيل الشيء وأعدم ، وصُرفت عنه ، فلم تُعطه في الدُّنيا ، وعوّضت عنه في الآخرة بما يُزيدك قربة وزلفى إلى العليّ الأعلى ، وما تقرّبه عيناك في الفردوس الأعلى وجنّة المأوى .

وإنّ كنت لم تطلب ذلك وتأمّله وترجوه وأنت في دار الدُّنيا التي هي دار الفناء والتكاليف والعناء ، بل رجأوك وأنت فيها وجه الذي خلق

وبراً ، ومنع وأعطى ، وبسط الأرض ورفع السماء ، { إذ } ذاك هو المراد والمطلوب والمنى ، وربما عوّضت عن ذلك بما هو أدنى من ذلك أو مثله في الدنيا بعد أنكسار قلبك ، وبصبرك عن ذلك المطلوب والمراد والمنى ، وتحقيق العوض في الأخرى وعلى ما ذكرنا وبينا .

إنما الإيمان عزيمة و يقين

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : في قول النبي صلى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلم : « دَعُ مَا يُرِيكَ إِلَى مَا لَا يُرِيكَ »^(١) .

دع ما يريك إذا اجتمع مع ما لا يريك ، فخذ بالعزيمة التي لا يشوبها ريب ولا شك ، ودع ما يريك .

فأما إذا تجرد المريب المشوب الذي لم يصف عن جز القلب وحكّه كما جاء في الخبر { عن النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وسلم } « الإِثْمُ حَوَازُ الْقُلُوبِ »^(٢) فتوقف فيه وانتظر الأمر فيه ، فإن

(١) أخرجه أحمد في « مسنده » ج ٣ / ١٥٣ ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وأخرجه النسائي في « سننه » برقم ٥٧١١ ، عن الحسن بن علي رضي الله عنهما . وهو حديث صحيح .

(٢) قطعة من حديث ، أخرجه البيهقي في « الشعب » برقم ٥٤٣٤ ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وتمتته : « . . . وَمَا مِنْ نَظَرَةٍ إِلَّا وَلِلشَّيْطَانِ فِيهَا مَطْمَعٌ » . وهو حديث موقوف على ابن مسعود .

قلت : وحواز القلوب هي الأمور التي تؤثر في الشيء وكما يؤثر الحر في الشيء ، وهو ما يخطر فيها من أن يكون معاصي ، لذلك إياكم وحواز القلوب ، وما حرّ في قلبك من شيء فدعه .

أمرت بتناوله فدونك ، وإن منعت فكف ، فليكن ذلك عندك كأثمه لم يكن ولم يوجد ، وأرجع إلى الباب وأبتغ عند ربك الرزق .

وإن ضعفت عن الصبر أو الموافقة والرضا أو الفناء ، فهو عز وجل لا يحتاج أن يذكر ، فليس بغافل عنك و { لا } عن / غيرك . هو عز ٢٠/ب وجل يطعم الكفار والمنافقين والمذبرين عنه ، فكيف ينساك أيها المؤمن الموحد المقبل على طاعته ، القائم بأمره في آناء الليل وأطراف النهار ؟

وفيه وجه آخر دع ما يريبك إلى ما لا يريبك { معناه } : دع ما في يد الخلق فلا تطلبه ، ولا تعلق قلبك به ، ولا ترجو الخلق ولا تخافهم ، وخذ من فضل الله عز وجل { من الله } وهو ما لا يريبك ، وليكن لك مسؤول واحد ، ومعط واحد ، ومرجو واحد ، ومخوف واحد ، وهمة واحدة ؛ وهو ربك عز وجل الذي نواصي الملوك بيده ، وقلوب الخلق بيده التي هي أمراء الأجساد ، وأموال الخلق له عز وجل ، والخلق وكلاؤه وأمناؤه ، وحركة أيديهم بالعطاء لك بإذنه عز وجل وأمره وتحريكه ، { وكفها } عن عطائك كذلك ، قال الله عز وجل : ﴿ .. وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾ [سورة النساء ٣٢/٤] وقال عز وجل : ﴿ .. إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ { إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ } ﴾ [سورة العنكبوت ١٧/٢٩] ، وقال { تعالى } : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَان .. ﴾ [سورة البقرة ١٨٦/٢] ، وقال { تعالى } : ﴿ .. ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [سورة غافر ٦٠/٤٠] ، وقال { تعالى } : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِين ﴾ [سورة الذاريات ٥٨/٥٢] ، وقال { تعالى } : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَاب ﴾ [سورة آل عمران ٣٧/٣] .

الحبة نفثت حصى من حمم الشيطان

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : رأيت إبليس اللعين في المنام وأنا في جمع كثير فهممت بقتله ، فقال لي - { لعنه الله } - : لِمَ تقتلني وما ذنبي إن جرى القدر بالشر ، فلا أقدر أن أغیره إلى الخير وأنقله إليه ، وإن جرى بالخير فلا أقدر أن أغیره / { إلى الشر } وأنقله إليه ، فأني شيء ٢١/أ بيدي ؟

وكانت صورته على صورة الخناثي ، لين الكلام ، مسنون الوجه^(١) ، فيه طاقات شعر في ذقنه ، حقير الصورة ، دميم الخلقة^(٢) .
{ ثم تبسم في وجهي } تبسم خجل ووجل ، وذلك في ليلة الأحد ثاني عشر ذي الحجة من سنة { ستة عشر وخمسمئة } .

آبتداؤك على قدر مقامك

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : لا يزال الله يبتلي عبده المؤمن على قدر إيمانه ، فمن عظم إيمانه وكثر وتزايد ، عظم بلاؤه .
فالرّسول بلاؤه أعظم من بلاء النّبي ، { لأنّه أعظم وأكبر إيماناً } ، والنّبيّ بلاؤه أعظم من بلاء البدل ، وبلاء البدل أعظم من بلاء الولي ، كلّ واحد على قدر إيمانه و يقينه .

(١) أي ذو وجه مخروط أسيل مثل .

(٢) أي قبيح الخلقة

وأصل ذلك قول النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلم « إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلُ »^(١) ، فيُديم الله تعالى البلاء لهاؤلاء السادة الكرام حتى يكونوا أبدأً في الحضرة ، ولا يغفلوا عن اليقظة ، لأنَّه يحبُّهم . فهم أهل المحبة { أحبوا } الحقَّ عزَّ وجلَّ ، والمحبُّ أبدأً لا يختار بعد محبوبه .

فالبلاء خطاف لقلوبهم ، وقيد لنفوسهم ، يمنعهم عن الميل إلى غير مطلوبهم ، والسُّكون { والرُّكون } إلى غير خالقهم ، فإذا دام ذلك في حقِّهم ذابت أهويَّتهم ، وأنكسرت نفوسهم ، وتميَّز الحقُّ من الباطل ، فتزوى^(٢) الشَّهوات والإرادات ، والميل إلى اللَّذات والراحات بأجمعها دنيا وأخرى إلى ما يلي النَّفس ويصير السُّكون إلى وعد الحقِّ عزَّ وجلَّ ، والرِّضا بقضائه ، والقناعة بعطائه ، والصَّبر/ على بلائه ، والأمن من شرِّ ٢١/ب خلقه إلى ما يلي القلب ، فتقوى شوكة القلب ، فتصير الولاية على الجوارح إليه ، لأنَّ البلاء يقوي القلب واليقين ، ويحقِّق الإيمان والصَّبر ، ويضعف النَّفس والهوى ، لأنَّه كلما وصل الألم { إلى القلب } ووجد من { المؤمن } الصَّبر والرِّضى والتَّسليم لفعل الرَّبِّ { عزَّ وجلَّ } ، رضي { الرَّبُّ عزَّ وجلَّ } عنه وشكره هو ، فجاءه المدد والزَّيادة والتَّوفيق .

(١) أخرج الترمذی فی « الجامع الصَّحیح » برقم ٢٣٩٨ ، عن سعد بن أبی وقاص رضي الله عنه قال : قلت : یا رسول الله ، أيُّ الناس أشدُّ بلاءً ؟ قال : « الأنبياء ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَلَا أَمْثَلُ ، فَيَبْتَلِي الرَّجُلَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا أَشَدَّ بَلَاءُ ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ مَا عَلَيْهِ [مِنْ] خَطِيئَةٍ » . وهو حديث حسن صحيح .

(٢) أي تنصرف وتنطوي عنه .

قال الله تعالى : ﴿ . . لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ . . ﴾ [سورة إبراهيم ٧/١٤] .

وإذا تحرّكت النفس بطلب شهوة من شهواتها ، ولذّة من لذاتها من القلب ، فأجابها القلب إلى مطلوبها ، وذلك من غير أمر من الله [تعالى] وإذن منه ، وحصلت بذلك غفلة عن الحقّ [تعالى] وشرك ومعصية ، فعمّها الله [تعالى] { بالخذلان } والبلايا ، وتسليط الخلق ، والأوجاع والأمراض ، فينال { كلُّ } واحد من القلب والنفس حظّه من ذلك .

{ فإن } لم يُجب القلب النفس إلى مطلوبها حتّى يأتيه الإذن من قبل الحقّ { عزّ وجلّ } ، - بإلهام في حقّ الأولياء ، ووحى صريح في حقّ المرسلين والأنبياء - { فعمل } على ذلك عطاءً ومنعاً عمّمهم الله بالرحمة والبركة ، والعافية والرّضى ، والتّور والمعرفة ، والقرب والغنى ، والسّلامة من الآفات ، والتّصر على الأعداء .

فاعلم ذلك وأحفظه ، وأحذر البلاء جدّاً في المسارعة إلى إجابة النفس والهوى ، بل توقّف وترقّب في ذلك إذن المولى ، فتسلم في الدّنيا والعقبى إن شاء الله تعالى .

قليله كثير ، ونمضه فنيض ، وحرمانه عطاء

٢٢/أ قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه : أرض بالدّون والزمه/ جدّاً حتّى يبلغ الكتاب أجله ، فتنقل إلى الأعلى والأنفس ، وبه تهنأ وفيه تبقى وتُحفظ ، بلا عناء ، ولا تبعة ولا عدوى ، دنيا وأخرى ، ثمّ ترقى من ذلك إلى ما هو أقرّ عيناً منه وأهنأ .

وأعلم أَنَّ الْقَسْمَ لا يفوتك بترك الطَّلَب ، وما ليس { بِقَسْمِكَ } لا تناله بحرصك في الطَّلَب والجدَّ والاجتهاد . فاصبر وألزم الحال وأرض به ، ولا تأخذ بك ولا تعط بك حتَّى تؤمر ، ولا تتحرَّك بك ولا تسكن بك ، فتبتلى بك وبمن هو أشدُّ منك من الخلق ، لأنَّك بذالك تظلم والظالم لا يغفل عنه .

قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ۖ ۞ ﴾ [سورة الأنعام ١٢٩/٦] لأنَّك في دار مَلِكٍ عظيم أمره ، شديد شوكته ، كثير جُنده ، نافذة مشيئته ، قاهر حكمه ، باق ملكه ، دائم سلطانه ، دقيق علمه ، بالغة حكمته ، عدل قضاؤه ، لا يَعْرُبُ^(١) عنه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السَّماء ، لا يجاوزه ظلم ظالم . فَأَنْتَ أَعْظَمُ الظَّالِمَةِ وأكبرهم جريمة ، لأنَّك أشركت { بتصرُّفك } فيك وفي خلقه عزَّ وجلَّ بهواك .

قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ ۞ ۖ لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ۞ ﴾ [سورة لقمان ١٣/٣١] وقال { الله } عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۖ ۞ ﴾ [سورة النساء ١١٦/٤] .

أتق الشُّركَ جدًّا ولا تقربه ، وأجتنبه في حركاتك وسكناتك وليلك ونهارك ، في خلوتك وجلوتك ، وأحذر المعصية في الجملة ، في الجوارح والقلب ، وأترك الإثم ما ظهر منه وما بطن / ، ولا تهرب منه عزَّ وجلَّ ٢٢/ب وجلَّ بمخالفتك { له } فيدركك ، ولا تنازعه في قضائه فيقصمك ، ولا تتَّهمه في حكمه فيخذلك ، ولا تغفل عنه فينبهك ، ولا تُحدث في داره حادثة { فيهلكك } ، ولا تقل في دينه بهواك يرديك ويظلم قلبك ،

(١) أي لا يبعد ولا يغيب .

ويسلبك إيمانك ومعرفتك ، ويسلّط عليك شيطانك ونفسك وهواك
وأهلك وشهواتك وجيرانك وأصحابك وأخلاءك وجميع خلقه ، حتّى
عقارب دارك وحياتها وجنّها وبقية هوامها ، فينغص عيشتك في الدنيا
ويطيل عذابك في الأخرى .

الزم رحاب مَنْ لا يُغلق بابَه

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : أحذر معصية الله عزّ وجلّ
جداً ، ألزم بابَه حقّاً ، وأبذل طوقك وجهدك في طاعته ، معتذراً متضرّعاً
مفتقراً خاضعاً ، متخشّعاً مطرّقاً ، غير ناظر إلى خلقه ولا تابع لهواك ،
ولا طالب للأعواض دنيا وأخرى ، ولا أرتقاء إلى المنازل العالية
والمقامات الرّفيعّة الشّريفة .

وأقطع بأنّك عبده ، والعبد وما ملّك لمولاه ، لا يستحقّ عليه شيئاً
من الأشياء .

أحسن الأدب ولا تتهم مولاك ، فكلّ شيءٍ عنده بمقدار ، لا مقدّم
لما آخر ولا مؤخّر لما قدّم ، يأتيك ما قدّر لك عند وقته وأجله ، إنّ شئت
أو أبيت ، لا تشره على ما سيكون لك ، ولا تطلب وتلهف على ما هو
لغيرك فيما ليس هو عندك ، لا يخلو إمّا أن يكون لك أو لغيرك ، فإن كان
لك { فهو إليك } صائراً وأنّت إليه مقاد ومسير / . فاللقاء عن قريب
حاصل ، وما ليس لك فأنّت عنه مصروف ، وهو عنك مولّ ، فأنّي لكما
التّلاقي .

فاشتغل بإحسان الأدب فيما أنت بصدد من طاعة مولاك عزّ وجلّ في
وقتك الحاضر ، ولا ترفع رأسك ولا تُجِلّ عتقك إلى ما سواه .

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [سورة طه ١٣١/٢٠] .

فقد نهاك الله عزَّ وجلَّ عن الالتفات إلى غير ما أقامك فيه ، ورزقك من طاعته ، وأعطاك من قسِّمه ورزقه وفضله ، ونبَّهك أنَّما سوى ذلك فتنة أفْتَنْتَهُمْ { فيه } ، ورضاك بقسِّمك خير لك وأبقى وأبرك وأحرى وأولى .

فليكن هذا دأبك ومنقلبك ومثواك ، وشعارك وديارك ومرادك ومرامك ، وشهوتك ومناك ، تنال به كلَّ المرام ، وتصل به إلى كلِّ مقام ، وترقى به إلى كلِّ خير ونعيم و { طريف } وظريف وسرور ونفيس .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة السَّجْدَة ١٧/٣٢] ، فلا عمل بعد العبادات الخمس وترك الذُّنُوب أجمع ؛ أعظم ولا أشرف ولا أحبُّ إلى الله عزَّ وجلَّ ، ولا أرضى عنده ممَّا ذكرت لك ، وفَقَّنا الله { تعالى } وإِيَّاكَ لِمَا يحبُّ ويرضى عنه .

حسبكم بحبِّ نعيمًا

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : لا تقولنَّ يا فقير اليد ، يا مولِّي عن الدنيا { وأبنائها } ، يا خامل الذِّكر بين ملوك الدنيا

وأسبابها ، يا جائع { يا نائع }^(١) ، يا عريان الجسد ، يا ظمآن الكبد ،
 ٢٣/ ب يا مشتتاً/ في كل زاوية من الأرض ، من مسجد وبقاع خراب ، ومردوداً
 من كل باب ، ومدفعاً عن كل مراد ، ومنكسراً ومزدحماً في قلبه كل حاجة
 ومرام ؛ إِنَّ الله تعالى أفقرني وزوى عني الدنيا وعترني ، وتركني وقلاني
 وفرقني ولم يجمعني ، وأهانني ولم يعطني من الدنيا كفاية ،
 { وأحملني } ولم يرفع ذكري بين الخليقة وإخواني ، وأسبغ عليّ غيري
 نعمة منه سابغة يتقلب فيها ليله ونهاره ، وفضّله عليّ أهل دياره ،
 وكلانا مسلمان مؤمنان ، جميعنا أئمتنا حواء وأبونا آدم خير الأنام { عليهما
 السّلام } .

أمّا أنت فقد فعل الله بك ذلك ، لأنّ طينتك حرّة ، ونديّ رحمة الله
 تعالى متدارك عليك من الصّبر والرّضا واليقين ، والموافقة والعلم وأنوار
 الإيمان والتّوحيد متراكم لديك ، فشجرة إيمانك غرسها وبذورها ثابتة ،
 مكينة مورقة ، ثمرة ومستزيدة ، ومتشعّبة { غصّة } ، مظلّلة متفرّعة ،
 فهي في كلّ يوم في زيادة ونمو ، فلا حاجة بها إلى سباطة وعلف لتنمي
 بها وتربّي . وقد فرغ الله تعالى من أمرك على ذلك ، وأعطاك في الآخرة
 دار البقاء وخولك فيها ، وأجزل عطاءك في العقبى ، ممّا لا عين رأت
 ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا
 كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة السّجدة : ١٧ / ٣٢] .

٢٤/ أ أي ما عملوا في الدنيا من أداء / الأوامر ، والصّبر على ترك المناهي
 والتّسليم إليه في المقدور ، والموافقة له في جميع الأمور .

(١) نائع ينيّع : مال . والثوائع من الغصون : الموائيل .

وأما الغير الذي أعطاه الله عزَّ وجلَّ من الدُّنيا ، وخوَّلَه ونعَّمه فيها ، وأسبغ عليه فضله ، فعل به ذلك ، لأنَّ محلَّ إيمانه أرضٌ سبخة^(١) { وصخر } لا يكاد يثبت فيها الماء وتنت فيها الأشجار ، وتربى فيها الزُّروع والثُّمار ، فصبَّ عليها أنواع سباطه^(٢) وغيرها ممَّا يربى به النَّبات وهي الدُّنيا وحطامها ، ليتخفَّظ بذلك ما ينبت فيها من شجرة الإيمان وغرس الأعمال ، فلو قطع ذلك عنها [لجفَّ] النَّبات والأشجار ، وأنقطعت الثُّمار ، فخربت الدِّيَار ، وهو عزَّ وجلَّ يريد عمارتها .

فشجرة إيمان الغني ضعيفة المنبت ، خال عما هو مشحون به شجرة إيمانك يا فقير ، فقوتُّها وبقاؤها بما ترى عنده من الدُّنيا وأنواع النِّعيم ، فلو قطعها ذلك عنه مع { ضعف } الشَّجرة جفَّت الشَّجرة ، فكان كفراً وجحوداً وإلحاقاً بالمنافقين والمرتدين والكفار .

اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يبعث الله عزَّ وجلَّ إلى الغني الشَّاكر من الصَّبْر والرِّضا واليقين والتَّوفيق والعلم وأنواع المعارف ، فيقوى الإيمان بها حينئذٍ ، حتَّى لا يبالي بانقطاع الغنى والتَّعيم .

القلب دائرة لاتسع أثنان

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : لا تكشف البرقع والقناع عن وجهك حتَّى تخرج من الخلق وتولَّيهم ظهر قلبك في جميع الأحوال / ٢٤ / ب
فيزول هواك ، ثمَّ تزول إرادتك ومُنَّاك ، فتفنى عن الأكوان دنيا وأخرى ،

(١) وهي أرض ذات نرٍّ وملح لا تكاد تثبت .

(٢) السِّبط من المطر : الغزير .

فتصير كأناء مثلهم لا تبقى فيك إرادة غير إرادة ربك عز وجل ، فتمتلئ بربك عز وجل فلا يكون لغير ربك في قلبك مكان ولا مدخل ، وجعلت أبواب قلبك ، وأعطيت سيف التوحيد والعظمة والجبروت ، فكل من رأيته دنا من ساحة صدرك إلى باب قلبك ندرت^(١) رأسه من كاهله ، فلا يكون لنفسك وهواك وإرادتك ومُناك ودنياك وأُخراك عندك رأس منشأك ولا كلمة مسموعة ، ولا رأى متبع إلا أتباع أمر الرب عز وجل ، والوقوف معه ، والرضا بقضائه ، بل الفناء في قضائه وقدره ، فتكون عبد الرب وأمره ، لا عبد الخلق وآرائهم ، فإذا أستمروا الأمر فيك كذلك ، ضربت حول قلبك سرادقات الغيرة وخنادق العظمة وسلطان الجبروت ، وحفَّ بجنود الحقيقة والتوحيد ، ويقام دون ذلك حراس الحق عز وجل ، كيلا يخلص الخلق إلى القلب من الشيطان والنفس والهوى ، والإرادة والأمني الباطلة ، والدعاوى الكاذبة الناشئة من الطباع والثفوس الأمارة بالسوء والضلالات الناشئة من الأهواء .

فحينئذ إن كان في القدر مجيء الخلق وتواترهم إليك وتتابعهم ٢٥/أ وتطابقهم عليك ، ليصيبوا من الأنوار اللائحة / ، والعلامات المنيرة ، والحكم البالغة ، ويروا من الكرامات الظاهرة وخوارق العادات المستمرة ، ويزدادوا بذلك من القربات والطاعات والمجاهدات والمكابدات في عبادة ربهم ؛ حُفِظَتْ عنهم أجمعين ، وعن ميل النفس إلى هواها ، وعُجِبَها ومباهاتها ، وتعاضمها بالتكبر بهم ، وبقبولهم لك وإقبال وجوههم إليك .

وكذلك إن قُدِّرَ مجيء زوجة حسنة جميلة بكفايتها وسائر مؤنتها ،

(١) أي أسقطت .

حُفِظَتْ مِنْ شَرِّهَا وَتَحُمَّلُ أَثْقَالُهَا وَأَتْبَاعُهَا وَأَهْلُهَا ، وصارت عندك موهبة
مكفأة مهناة منقاة مصفاة من الغشِّ والخُبث والدَّغل والحقد والغضب
والخيانة في الغيب ، فتكون مسخرة لك حينئذٍ { هي } وأهلها ، محمولة
عنك مؤنتها ، مدفوعة عنك أذيتُها .

وإن قُدِّرَ مِنْهَا وَلَدٌ كَانَ صَالِحاً ذَرِيَّةً طَيِّبَةً قُرَّةَ عَيْنٍ ، قال الله تعالى :
﴿ .. وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ .. ﴾ [سورة الأنبياء ٩٠ / ٢١] .

وقال تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا .. ﴾ [سورة الفرقان ٧٤ / ٢٥] . وقوله تعالى :
﴿ .. وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًا ﴾ [سورة مريم ٦ / ١٩] .

فتكون هاذِهِ الدَّعَوَاتُ الَّتِي فِي هَازِهِ الْآيَاتِ مَعْمُولاً بِهَا ، مستجابة في
حَقِّكَ إِنَّ دَعْوَتَ بِهَا أَوْلَمَ تَدْعُ ، إِذْ هِيَ فِي مَحَلِّهَا وَأَهْلِهَا وَأَوْلَى مِنْ يَعْمَلُ
بِهَازِهِ النِّعْمَةِ أَوْ يَقَابِلُ بِهَا مَنْ كَانَ أَهْلاً لِهَازِهِ الْمَنْزِلَةِ ، وَأُقِيمَ فِي هَازِ
الْمَقَامِ ، وَقُدِّرَ لَهُ مِنَ الْفَضْلِ وَالْقُرْبِ هَازِ الْمَقْدَارِ .

وكذلك إِنَّ قُدِّرَ مَجِيءُ شَيْءٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالُهَا ، لَا يَضُرُّ إِذْ ذَاكَ / ٢٥ ب
فَمَا هُوَ قَسْمُكَ مِنْهَا لَا بُدَّ مِنْ تَنَاوُلِهِ وَتَصْفِيَتِهِ لَكَ بِفَعْلِ اللَّهِ وَإِرَادَاتِهِ ،
وَوُرُودِ الْأَمْرِ بِتَنَاوُلِهِ ، فَتَنَاوُلِهِ وَأَنْتَ مِمَثْلًا لِلْأَمْرِ ، مَثَابٌ عَلَى تَنَاوُلِهِ كَمَا
تُثَابُ عَلَى فَعْلِ صَلَوَاتِ الْفَرَضِ { وَصِيَامِ الْفَرَضِ } ، وَتَوْمَرُ فِيمَا لَيْسَ
بِقَسْمِكَ مِنْهَا بِصَرْفِهَا إِلَى أَرْبَابِهَا مِنَ الْأَصْحَابِ وَالْجِيرَانِ وَالْإِخْوَانِ
الْمُسْتَحَقِّينَ ، الْفُقَرَاءَ مِنْهُمْ وَأَصْحَابِ الْأَقْسَامِ عَلَى مَا يَقْتَضِي الْحَالُ ،
وَالْأَحْوَالُ تَكْشِفُهَا وَتُمَيِّزُهَا ، وَلَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمَعَايِنَةِ . فَحِينَئِذٍ تَكُونُ مِنْ
أَمْرِكَ عَلَى بَيْضَاءِ نَقِيَّةٍ لَطِيفَةٍ لَا غَبَارَ عَلَيْهَا ، وَلَا تَلْبِيسَ وَلَا تَخْلِيطَ ،
وَلَا شَكَّ وَلَا أُرْتِيَابَ .

فَالصَّبْرُ الصَّبْرُ ، الرِّضَا الرِّضَا ، حَفَظَ الْحَالَ حَفَظَ الْحَالَ ، الْخُمُولُ
الْخُمُولُ ، الْخُمُودُ الْخُمُودُ ، الْجُمُودُ الْجُمُودُ ، السُّكُونُ السُّكُونُ ،
الصُّمُوتُ الصُّمُوتُ ، الْحَذَرُ الْحَذَرُ ، النَّجَاةُ النَّجَاةُ ، الْوَحَا الْوَحَا^(١) ،
اللهُ اللهُ ثُمَّ اللهُ ، الْإِطْرَاقُ الْإِطْرَاقُ ، الْإِغْمَاضُ الْإِغْمَاضُ ، الْحَيَاءُ
الْحَيَاءُ ، حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ .

فِيؤْخَذُ بِيَدِكَ فَتَقْدَمُ وَتَنْزَعُ عَنْكَ مَا عَلَيْكَ ، ثُمَّ تَغُوصُ فِي بَحَارِ
الْفَضَائِلِ وَالْمَنَنِ وَالرَّحْمَةِ ، ثُمَّ تَخْرُجُ مِنْهَا فَيَخْلَعُ عَلَيْكَ خَلْعُ الْأَنْوَارِ
وَالْأَسْرَارِ وَالْعُلُومِ الْغَرَائِبِ اللَّدْنِيَّةِ ، فَتُقَرَّبُ وَتُحَدَّثُ وَتُكَلَّمُ وَتُعْطَى
وَتُغْنَى ، وَتَشْجَعُ وَتُرْفَعُ وَتُخَاطَبُ : بِأَنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ .

فَحِينَئِذٍ أَعْتَبِرْ حَالَةَ يَوْسُفَ الصَّدِيقِ عَلَيْهِ [الصَّلَاة] وَالسَّلَامُ حِينَ
خَوَّطَ بِهَذَا الْخُطَابِ عَلَى لِسَانِ مَلِكِ مِصْرَ وَعَظِيمِهَا وَفِرْعَوْنِهَا ، كَانَ
لِسَانُ الْمَلِكِ قَائِلًا وَمَعْبَرًا لِهَذَا الْخُطَابِ ، وَالْمُخَاطَبُ هُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ
أ/٢٦ عَلَى لِسَانِ الْمَعْرِفَةِ ، سَلِمَ إِلَيْهِ / الْمَلِكُ الظَّاهِرُ وَهُوَ مَلِكُ الْمَلِكِ وَمَلِكُ
النَّفْسِ وَمَلِكُ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُرْبَةِ وَالْخُصُوصِيَّةِ وَعُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ عِنْدَ
{ اللهُ } عَزَّ وَجَلَّ . قَالَ اللهُ { عَزَّ وَجَلَّ } فِي مَلِكِ الْمَلِكِ ﴿ . . وَكَذَلِكَ
مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ . . ﴾ [سُورَةُ يُونُسَ ١٢ / ٥٦] ، أَيُّ فِي أَرْضِ
مِصْرَ ﴿ . . يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ . . ﴾ الْآيَةُ ، وَقَالَ [تَعَالَى] فِي مَلِكِ
النَّفْسِ : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
الْمُخْلِصِينَ ﴾ [سُورَةُ يُونُسَ ١٢ / ٢٤] . وَقَالَ تَعَالَى فِي مَلِكِ الْمَعْرِفَةِ
وَالْعِلْمِ يُونُسَ : ﴿ ذَالِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ
بِاللهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ [سُورَةُ يُونُسَ ١٢ / ٣٧] . فَإِذَا خَوَّطْتَ

(١) الْوَحَا : الشَّرْعَةُ . الْوَحَا الْوَحَا : الْبِدَارُ الْبِدَارُ .

بهذا الخطاب أيُّها الصِّديق الأكبر ، أُعْطيت الحِظُّ الأوفر من العلم الأعظم ، ومُنحت وهنيت بالتوفيق والمنن والقدرة والولاية العامّة ، والأمر النافذ على النَّفس وغيرها من الأشياء والتَّكوين ، بإذن إله الأشياء في الدُّنيا قبل { الآخرة } .

وأما في { الآخرة } في دار السَّلام والجنَّة العُليا ، والنَّظر إلى وجه المولى الكريم فيها زيادة ومِنَّة ، وهو المُنَى الَّذي لا غاية له ولا منتهى .

تَحْيِيْرُ مِنَ الثَّمْرِ أَطْيَبُ

قال رضيَّ الله { تعالى } عنه وأرضاه : أجعل الخير والشرَّ ثمرتين من غصنين من شجرة واحدة ، أحد الغصنين يثمر الثَّمار حلواً والآخر مرّاً .

فاترك البلاد والأقاليم ونواحي الأرض الَّتِي تحمل إليها هاذِه الثَّمار المأخوذة من هاذِه الشَّجرة ، فابعد عنها وعن أهلها ، وأقرب من الشَّجرة وكن سائسها وخادمها القائم عندها ، وأعرف الغصنين والثمرتين والجانبين .

فكن إلى جانب الغصن / المثمر حلواً ، فحينئذ يكون غذاؤك وقوتك ٢٦/ ب منها . وأجنب أن تتقدَّم إلى جانب الغصن الآخر فتأكل من ثمرتها فتَهْلِكُك مرارتها ، { فإذا دمت } على هاذَا كنت في دَعَةٍ وأمن وسلامة من الآفات كُلِّها ، إذ الآفات وأنواع البَلَايا تتولَّد من تلك الثَّمرة المُرَّة ، وإذا غُبَّت عن الشَّجرة وهِمَّت في الآفاق ، وقُدِّم بين يديك من تلك الثَّمار وهي مختلطة غير متميِّزة الحلوة من المُرَّة فتناولت منها ، فربَّما وقعت يداك على المُرَّة فأدنيتها من فيك ، فأكلت منها جزءاً ومضغته ، فسرت المرارة

إلى أعماق لهواتك وباطن حلقك ودماعك وخياشيمك ، فعملت فيك وجرت في عروقك وأجزاء جسدك فهلكت بها ، ولفظت نقطة الباقي من فيك ، وغسل أثره لا يدفع عنك ما قد سرى في جسدك ولا ينفعك .

وإن أكلت ابتداء من الثمرة الحلوة ، وسرت حلاوتها في أجزاء جسدك ، وأنفعت بها وسررت فلا يكفيك ذلك ، فلا بد أن تتناول غيرها ثانية ، فلا تأمن أن تكون الثانية من المرة فيحل بك ما ذكرته لك ، فلا خير في البعد عن الشجرة والجهل بثمرتها ، والسلامة في قربها والقيام معها .

فالخير والشرُّ فعل الله عزَّ وجلَّ ، والله تعالى هو فاعلهما ومجرهما ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الصافات ٩٦/٣٧] وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم « والله خلق الجازر وجزوره »^(١)

٢٧/أ / فأعمال العباد خلق الله { وكسب لهم } . وقال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ .. أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة النحل ٣٢/١٦] .

سبحانه ما أكرمه وأرحمه أضاف العمل إليهم وأنهم استحقوا الدخول إلى الجنة بعملهم ، وهو بتوفيقه ورحمته لهم في الدنيا والآخرة . قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم : « لا يدخل الجنة أحدٌ بعمله » ، فقل له عليه الصلاة والسلام : ولا أنت يا رسول الله ؟ فقال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته ووضعه يده على رأسه »^(٢) مروي ذلك في عائشة رضي الله { تعالى } عنها .

(١) لم أعثر عليه فيما لدي من المصادر .

(٢) أخرجه أحمد في « مسنده » ج ٢/٢٥٦ . وأخرج البخاري في « صحيحه » برقم ٦٤٦٣ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لن يُنجي أحدٌ منكم عمله » ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله =

فإذا كنت طائعاً لله عزَّ وجلَّ ، ممثلاً لأمره ، منتهياً لنهيهِ ، مسلماً له في قَدَرِهِ ؛ حماك عن شرِّهِ وتفضَّل عليك بخيره ، وحماك عن الأسواء جميعاً دنياً وديناً .

أمَّا دنيا : فقلوه عزَّ وجلَّ : ﴿ .. كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ الشُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف ١٢ / ٢٤] .

وأمَّا دنياً فقلوه عزَّ وجلَّ : ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [سورة النساء ٤ / ١٤٧] .

شاكراً مؤمن ما يفعل البلاء عنده وهو إلى العافية أقرب من البلاء ، وهو في محل المزيد بأنَّه شاكر . قال الله تعالى : ﴿ .. لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [سورة إبراهيم ١٤ / ٧] .

فإيمانك يطفئ لهب النار في الآخرة التي هي عقوبة كلِّ عاص ، فكيف لا يطفئ نار البلاء في الدنيا ؟

اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْعَبْدُ مِنَ الْمَجْذُوبِينَ الْمُخْتَارِينَ لِلْوَلَايَةِ وَالْإِصْطِفَاءِ وَالْاجْتِنَاءِ ، فَلَا بَدَّ مِنَ الْبَلَاءِ لِيُطْفِئَ مِنْ خَبْثِ الْأَهْوَاءِ وَالْمِيلِ إِلَى الطَّبَاعِ ، وَالرُّكُونِ / إِلَى شَهَوَاتِ النَّفْسِ وَلَذَاتِهَا ، وَالطَّمَأْنِينَةِ إِلَى الْخَلْقِ وَالرِّضَا ٢٧/ب بَقَرِبِهِمْ ، وَالسُّكُونِ إِلَيْهِمْ وَالثُّبُوتِ مَعَهُمْ وَالْفَرَحِ بِهِمْ ، فَيَبْتَلِيَ حَتَّى يَذُوبَ جَمِيعُ ذَلِكَ ، فَيَتَنَظَّفَ الْقَلْبُ بِخُرُوجِ الْكَلِّ . وَيَبْقَى تَوْحِيدَ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ وَمَعْرِفَةَ الْحَقِّ وَمَوَارِدَ الْغَيْبِ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَسْرَارِ وَالْعُلُومِ وَأَنْوَارِ الْقُرْبِ ، لِأَنَّهُ بَيْتٌ لَا يَسَعُ أَثْنَانُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [سورة الأحزاب ٣٣ / ٤] . وَقَالَ : ﴿ .. إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا

= بِرَحْمَةٍ ، سَدَّدُوا وَقَارِبُوا ، وَأَغْدُوا وَرَوَّحُوا ، وَشَيْءٌ مِنَ الدَّلَاجَةِ ، وَالْقَصْدُ الْقَصْدُ تَبْلُغُوا » .

قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴿ [سورة التَّمَل ٢٧ / ٣٤] .

فَأَخْرَجُوا الْأَعِزَّةَ عَنْ طِيبِ الْمَنَازِلِ وَنَعِيمِ الْعَيْشِ .

كانت الولاية على القلب للشيطان والهوى والنفس والجوارح متحركة بأمرهم من أنواع المعاصي والأباطيل والثِّرَّهَاتِ فزالت تلك الولاية ، فسكنت الجوارح وفرغت دار الملك ، التي هي القلب ، وتنظفت السَّاحة التي هي الصدر .

فَأَمَّا الْقَلْبُ فَصَارَ مَسْكَنًا لِلتَّوْحِيدِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ . وَأَمَّا السَّاحَةُ فَمَحَطُّ الْمَوَارِدِ وَالْعَجَائِبِ مِنَ الْغَيْبِ .

كُلُّ ذَلِكَ نَتِيجَةُ الْبَلَايَا وَثَمَرَتِهَا ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ { تَعَالَى } عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ »^(١) ، وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ { تَعَالَى } عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ : « أَنَا أَعْرِفُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَوْفًا »^(٢) فَكُلُّ مَنْ قَرَّبَ مِنَ الْمَلِكِ أَشَدَّ أخطره وحذره / ، لِأَنَّهُ فِي مَرَأَى مِنَ الْمَلِكِ ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ تَصَارِيفُهُ وَحَرَكَاتُهُ وَلِحَظَاتُهُ .

فَإِنْ قُلْتَ : فَالْخَلِيقَةُ عِنْدَ اللَّهِ بِأَجْمَعِهِمْ كَشَخْصٍ وَاحِدٍ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، فَأَيُّ فَائِدَةٍ لِهَذَا الْكَلَامُ ؟

{ فَأَقُولُ } : قِيلَ ذَلِكَ لَمَّا عَلَتْ مَنَزَلَتُهُ ، وَشَرُفَتْ رَتَبَتُهُ ، عَظُمَ أخطره ، لِأَنَّهُ وَجِبَ عَلَيْهِ شُكْرُ مَا أَوْلَاهُ مِنْ جَسِيمِ نِعْمِهِ وَفَضْلِهِ ، فَأَدْنَى

(١) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ ، ص ٩١ ، وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

(٢) أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي « صَحِيحِهِ » بِرَقْم ٦١٠١ ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَتْ : صَنَعَ النَّبِيُّ شَيْئًا فَرَحَّصَ فِيهِ ، فَتَنَزَّهَ عَنْهُ قَوْمٌ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ ، فَخَطَبَ فَحَمَدَ اللَّهَ ثُمَّ قَالَ : « مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ ، فَوَ اللَّهُ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدَّهُمْ لَهُ خَشْيَةً » .

الالتفات عن خدمته تقصير في شكره ، وذلك نقصان في طاعته . قال الله تعالى ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ . . ﴾ [سورة الأحزاب ٣٣ / ٣٠] .

قال ذلك لهنَّ لتمام نعمته عزَّ وجلَّ عليهنَّ باتصالهنَّ بالنبيِّ صلى الله عليه { تعالى } عليه [وعلى] آله وأصحابه وسلَّم ، فكيف من كان { مواصلاً } بالله عزَّ وجلَّ وقربه - تعالى الله علواً كبيراً عن التشبيه بخلقه - ليس كمثله شيء وهو السميع البصير .

دع شمرَكَ على غصنٍ تقطفهُ يانعا

قال رضي الله تعالى عنه وأرضاه : أتريد الراحة والشُّرور ، والدَّعة^(١) والحبور ، والأمن والسُّكون ، والتَّعيم والدَّلال ، وأنت بعدُ في كير السِّبْكِ والتَّدويب ، وتمويت النَّفس ومجاهدة الهوى ، وإزالة المراتب والأعواض دنيا وأُخرى ، وقد بقيَ فيكَ بقيَّة من ذلك ظاهرة لائحة ؟

على { رسلك } يا مستعجل ، مهلاً مهلاً يا مترقِّب ، الباب مسدود إلى ذلك ، وقد بقيت عليك منه بقيَّة وفيكَ درة منه ، المكاتب^(٢) عبد ما بقيَ عليه درهم / ، أنت مصدود عن ذلك ما بقيَ عليك من الدُّنيا ٢٨/ب مقدار مصٍّ نواة .

الدُّنيا هواك ومرادك ومُنَّاك ورؤيتك لشيء من الأشياء ، وطلبك لشيء من الأشياء ، وتشوُّف نفسك إلى شيء من الأعواض دنيا وأُخرى .

(١) السُّكون والاستقرار .

(٢) المُكاتب : العبد يُكاتب على نفسه بشئ ، فإذا سعى وأذاه عُقِّق ،

فما دام فيك شيء من ذلك فأنت في باب الإفناء .

فاسكن حتى يحصل الفناء على التَّمام والكمال ، فتخرج من الكير وتكمل صياغتك وتُحلَّى وتُكسَى وتطَيَّب وتبحَّر ، ثمَّ تُرفع إلى الملك الأكبر ، فتخاطب بألك اليوم لدينا مكين أمين ، فتؤانس وتلاطف ، وتُطعم من الفضل ومنه تسقى ، وتقرب وتدنى ، وتطلع على الأسرار وهي عنك لا تخفى ، فتغنى بما تُعطى من ذلك عن جميع الأشياء .

ألا ترى إلى قراضة الذهب { متفرقة } مبتذلة مناوله ، غادية رائحة في أيدي العطَّارين والبقالين والقصابين والدُّبَّاغين والنَّقاضين^(١) والكناسين والكتَّافين ، أصحاب الصَّنائع النَّفيسة والرَّذيلة والدَّنية والخبیثة .

ثمَّ تجمع فتجعل في كير الصَّائغ فتذوب هناك بإشعال النار عليها ، ثمَّ تخرج منه فتطرق وترقق وتطبع وتصاغ فتجعل حليًّا ، ثمَّ تُحلَّى وتطَيَّب فتترك في خير المواضع والأمكنة من وراء الأغلاق في الخزائن والصَّناديق والأحقاق^(٢) ، أو تحلَّى بها العروس وتزيَّن وتكرم ، وقد تكون العروس ٢٩/أ للملك الأعظم فتنتقل القراضة من { هاذي الأيدي } إلى قرب / الملك ومجلسه بعد السَّبك والدَّق .

فهاكذا أنت يا مؤمن إذا صبرت على مجاري الأقدار { فيك } ، ورضيت بالقضاء في جميع الأحوال ، قربت إلى مولاك في الدنيا ، فتنعم بالمعرفة والعلوم والأسرار ، وتسكن في الآخرة دار السَّلام مع الأنبياء

(١) هادمي الأبنية والبيوت .

(٢) الحقُّ : وعاء صغير من عاج أو زجاج أو فخَّار ونحو ذلك .

والصّديقين والشّهداء والصّالحين ، في جوار الله عزّ وجلّ وداره وقربه
والأنس به عزّ وجلّ .

فاصبر ولا تستعجل ، وأرضَ بالقضاء ولا تتهم { الحقّ ،
فسينالك } بردُ { عفو الله عزّ وجلّ } ، وحلاوة مغفرته ورحمته ولطفه
وكرمه ومَنِّه .

قد يحبني من فقر غني

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه في قول النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ
{ تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم : « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ
كُفْرًا » (١) .

العبد يؤمن بالله عزّ وجلّ ، ويسلّم الأمور كلّها إليه ، ويعتقد تسهيل
الرّزق منه ، وأنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .
ويؤمن بقوله عزّ وجلّ : ﴿ . . وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ
حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ . . ﴾ [سورة الطلاق
٦٥/٢-٣] .

يقول ذلك { ويؤمن به } وهو في حال العافية والغنى ، ثمّ يبتليه الله
عزّ وجلّ بالبلاء والفقر ، فيأخذ في السّؤال والتّضرّع ، فلا يكشفها عنه .

(١) قطعة من حديث . أخرجه البيهقي في « الشعب » برقم ٦٦١٢ . عن أنس بن مالك
رضي الله عنه ، وتتمّته : « . . وَكَادَ الْحَسَدُ أَنْ يَغْلِبَ الْقَدَرَ » . وهو حديث ضعيف .
لاكن يشهد له ما أخرجه ابن حبان وصحّحه عن أبي سعيد الخدري ، عن
رسول الله ﷺ أنّه كان يقول : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكُفْرِ وَالْفَقْرِ فقال رجل :
يا رسول الله ويعتدلان ؟ قال ﷺ : « نعم » .

فحينئذ يتحقق قوله { عليه الصّلاة والسّلام } : « كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا » .

فمن تلطف الله به كشف الله عنه ما به ، فأدركه بالعافية والغنى ووفقه للشّكر والحمد والثّناء ، فيديم له ذلك إلى اللّقاء [وهو الرّجل الأوّل] .

٢٩/ ب ومن يُرد الله { عزّ وجلّ } فتنّته / أدام بلاءه وفقره ، فيقطع عنه مدد إيمانه ، فيكفر بالاعتراض والتّهمة للحقّ عزّ وجلّ والشّكّ في وعده ، فيموت كافراً بالله عزّ وجلّ ، جاحداً لآياته متسخطاً على ربّه { عزّ وجلّ } . [وهو الرّجل الثّاني] ، وإليه أشار رسول الله صلّى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم [بقوله] : « إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ بَيْنَ فَقْرِ الدُّنْيَا وَعَذَابِ الْآخِرَةِ »^(١) . نعوذ بالله من ذلك ، وهو الفقر المسمّى الَّذِي أَسْتَعَاذُ مِنْهُ النَّبِيُّ صلّى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم .

والرّجل الثّالث هو الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ عزّ وجلّ أَصْطِفَاءَهُ وَأَجْتَبَاءَهُ ، وجعله من خواصّه وأحبائه وأخلائه ووارث أنبيائه وسيّد أوليائه ، ومن { عظماء } عباده وعلمائهم وحكمائهم وشفعائهم ، وشيوخهم { ومتبوعهم } ومعلّمهم وهادِيهم إلى مولاهم ، ومرشدهم إلى سنن الهدى وأجتناب سُبُل الرّدى .

فأرسل الله إليه جبال الصّبر وبحار الرّضا ، والموافقة والفناء في فعل المولى ، ثمّ يدركه بجزيل العطاء ويدلّله في آناء اللّيل وأطراف النّهار في الخلوة ، وإذا خلى في الظّاهر مرّة وفي الباطن أُخرى بأنواع اللّطف وفنون الجزايا ، فيتّصل له ذلك إلى حين اللّقاء .

(١) لم أعثر عليه فيما لدي من المصادر .

أَمَّا الصَّبْرُ فَذَاقَةُ مُرٍّ وَعَاقِبَتُهُ شَهْدٌ !

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : ما أكثر ما تقول [أي شيء]
أعمل وما الحيلة ؟

فيقال لك : قف مكانك ولا تجاوز حدَّك حتَّى يأتيك الفرَج ممَّن
أمرَك بالقيام فيما أنت فيه .

قال / الله عزَّ وجلَّ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة آل عمران ٣ / ٢٠٠] .

أمرَك بالصَّبْر يا مؤمن ثمَّ بالمصابرة والمرابطة والمحافظة والملازمة
{ له } ، ثمَّ حدَّرك { تركه } ، ثمَّ قال : واتَّقوا الله في ترك ذلك - أي
لا تترك الصَّبْر فإنَّ الخير والسَّلامة في الصَّبْر - وقال { النَّبِيُّ } صَلَّى اللهُ
{ تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم : « الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ
مِنَ الْجَسَدِ »^(١) وقيل : لكلِّ شيء ثوابه بمقدار ، إلَّا ثواب الصَّبْر فإنَّه
جزاف غير مقدَّر . كما قال عزَّ وجلَّ : ﴿ .. إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ

(١) أخرجه الديلمي في « الفردوس » برقم ٣٨٤٠ ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ،
وأخرجه البيهقي في « الشعب » برقم ٤٠ ، عن علي رضي الله عنه موقوفاً وهو حديث
ضعيف .

قال المناوي في « فيض القدير » ج٤ / ٢٣٤ : « الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ
الْجَسَدِ » لأنَّ الصَّبْرَ يدخل في كلِّ باب ، بل في كلِّ مسألة من مسائل الدين ، فكان في
الإيمان بمنزلة الرأس من الإنسان . قال عليُّ كَرَّمَ اللهُ وجهه : فإذا قطع الرأس مات
الجسد . ثمَّ رفع صوته قائلاً : أمَّا إنَّه لا إيمان من لا صبر له ، أي وإن كان في إيمان
قليل وصاحبه ممَّن : « يعبد الله على حرف فإنَّ أصابه خير أطمأن به ، وإنَّ أصابته فتنة
أنقلب على وجهه » .

بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿ [سورة الزُّمَر ٣٩ / ١٠] .

فَإِذَا أَتَقَّيْتُ { الله } عَزَّ وَجَلَّ فِي حِفْظِكَ لِلصَّبْرِ وَمَحَافَظَةِ الْحُدُودِ أَنْجَزَ لَكَ مَا وَعَدَكَ فِي كِتَابِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ . . وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ . . ﴾ [سورة الطَّلَاق ٢-٣ / ٦٥] .

وَكُنْتُ بِصَبْرِكَ - حَتَّى يَأْتِيَكَ الْفَرْجُ - مِنَ الْمُتَوَكِّلِينَ ، وَقَدْ وَعَدَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْكَفَايَةِ فَقَالَ : ﴿ . . وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ . . ﴾ [سورة الطَّلَاق ٣ / ٦٥] ، وَكُنْتُ مَعَ صَبْرِكَ وَتَوَكُّلِكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَيُحِبُّكَ اللَّهُ تَعَالَى مَعَ ذَلِكَ ، لِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ . . إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة المائدة ٥ / ١٣] .

فَالصَّبْرُ رَأْسُ كُلِّ خَيْرٍ وَسَلَامَةٌ ، دُنْيَا وَأُخْرَى ، وَمِنْهُ يَتَرَقَّى الْمُؤْمِنُ إِلَى حَالَةِ الرِّضَا وَالْمُوَافَقَةِ ، ثُمَّ الْفَنَاءِ فِي أَعْمَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَالَةَ الْبَدَايَةِ وَالْغَيْبَةِ .

فاحذر أن تتركه فتُخْذَلْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيفوتك خيرهما .

مِيزَانُ الْحَسْبِ - هَوَى

قَالَ رَضِيَ اللَّهُ { تَعَالَى } عَنْهُ وَأَرْضَاهُ : إِذَا وَجَدْتَ فِي قَلْبِكَ بَغْضَ شَخْصٍ أَوْ حَبَّةٍ ، فَاعْرِضْ أَعْمَالَهُ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَإِنْ كَانَتْ فِيهِمَا ٣٠ / ب مَبْغُوضَةً / فَأَبْشِرْ { بِمُوَافَقَتِكَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ } ، وَإِنْ كَانَتْ أَعْمَالَهُ فِيهِمَا مُحْبُوبَةً وَأَنْتَ تَبْغِضُهُ فَاعْلَمْ أَنَّكَ صَاحِبُ هَوَى ، تَبْغِضُهُ بِهَوَاكَ ، ظَالِمٌ لَهُ بِبَغْضِكَ إِيَّاهُ ، وَعَاصٍ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ مُخَالَفٌ لِهَمَّا ، فَتَبِّإِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ بَغْضِكَ ، وَأَسْأَلُهُ عَزَّ وَجَلَّ مَحَبَّةَ ذَلِكَ الشَّخْصِ وَغَيْرِهِ مِنْ

أحباب الله وأوليائه وأصفياؤه والصالحين من عباده ، لتكون موافقاً له عزَّ وجلَّ في محبَّته .

وكذلك أفعَل فيمن تحبُّه - [يعني] أعرَض أعماله على الكتاب والسُّنة - فَإِنْ كانت محبوبه فيهما فأحبِّبه ، وَإِنْ كانت مبغوضة فيهما فابغضه ، كيلا تحبَّه بهواك وتبغضه بهواك ، وقد أُمِرْت بمخالفة هواك .
قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ .. وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾ [سورة ص ٣٨ / ٢٦] .

ما احببَّ إلا للحميم الأوحَد

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : ما أكثر ما تقول كلُّ من أحبَّه لا تدوم صحبتي له فيحال بيننا ، إمَّا بالغيبة أو بالموت أو العداوة وأنواع الأموال بالتَّلف والفوات من اليد .

فيقال : أما تعلم يا محبوب الحقِّ ، المُعنى به ، المنظور إليه ، المغار له وعليه ؛ أَنَّ الله { عزَّ وجلَّ } غيور خلقك له وتروم أن تكون لغيره ؟
أما سمعت قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ .. يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ .. ﴾ [سورة المائدة ٥ / ٥٤] . وقوله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [سورة الذَّاريات ٥١ / ٥٦] .

أما سمعت قول الرِّسول صلَّى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم : « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ ، فَإِنْ صَبَرَ أَقْتَنَاهُ » ، قيل : يا رسول الله / وما أَقْتَنَاهُ ؟ قال : « لَا يَذَرُهُ مَالًا وَلَا وَلَدًا »^(١) ؟
١ / ٣١ أ

(١) أخرجه الدَّيلمي في « الفردوس » برقم ٩٦٨ ، عن أبي عتبة الخولاني رضي الله عنه . وهو حديث ضعيف .

وذلك إذا كان له مال وولد أحبهما فتشعبت محبة لربه عز وجل فتقص وتجزأ ، فتصير مشتركة بين الله { عز وجل } وبين غيره ، والله { عز وجل } لا يقبل الشريك ، وهو غيور قاهر ، فوق كل شيء ، غالب لكل شيء ، فيهلك شريكه ويعدمه ليخلص قلب عبده له من غير شريك ، فيتحقق حينئذ قوله عز وجل : ﴿ . . يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ . . ﴾ وإذا تنظف القلب من الشركاء والأنداد من الأهل والمال والولد واللذات والشهوات ، وطلب الولايات والرياسات والكرامات والحالات والمنازل والمقامات والجنات والدراجات والقربات والزلفات ، فلا يبقى في القلب إرادة ولا أمنية ، { فيصير } كالإناء المثلث الذي لا يثبت فيه مائع ، فلا يثبت فيه إرادة شيء من الأشياء ، لأنه أنكسر بفعل الله عز وجل ، وكلما تجمعت فيه إرادة كسرها فعل الله عز وجل وغيرته ، فضربت { حينئذ } حوله سرادقات العظمة والجبروت والهيبة وحفرت من دونها خنادق الكبرياء والسطوة ، فلم يخلص إلى القلب إرادة شيء من الأشياء ، فحينئذ لا يضر القلب الأسباب من المال والولد والأهل والأصحاب والكرامات والحكم والعبارات ، فإن جميع ذلك يكون خارج القلب ، فلا يغار الله عز وجل ، بل يكون جميع ذلك كرامة من الله عز وجل لعبده ٣١/ ب ولطفاً به ونعمة ورفقاً ومنفعة للواردين إليه ، فيكرمون به / ويحفظون ويرحمون لكرامته على الله عز وجل ، فيكون خفياً لهم وشحنة وكهفاً وحرزاً وشفيعاً دنياً وأخرى .

مقامات الخلق ومنازل الرجال

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : الناس أربعة رجال .

[الرَّجُلُ الْأَوَّلُ] : رجل لا لسان له ولا قلب ، وهو العاصي الغرّ
الغبي سفساف^(١) ، لا يعبأ الله عزّ وجلّ به ، لا خير فيه ، هو وأمثاله حثالة
لا وزن لهم ، إِلَّا أَنْ يَعْمَهُمُ اللهُ بِرَحْمَتِهِ ، فيهدي قلوبهم للإيمان به ،
ويحرّك جوارحهم بالطّاعة له عزّ وجلّ .

فاحذر أَنْ تكون منهم ، ولا تلذّبهم { ولا تكثرث } بهم ، ولا تقم
فيهم ، فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الْعَذَابِ وَالْغَضَبِ وَالسُّخْطِ ، سَكَّانُ النَّارِ وَأَهْلُهَا ،
نعوذ بالله منهم .

إِلَّا أَنْ تَكُونَ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِاللّهِ عزّ وجلّ ومن معلّمي الخير وهُداة الدّين
وَقُودِهِ ودُعَاتِهِ ، فدونك فَأْتِيَهُمْ وَأَدْعُهُمْ إِلَى طَاعَةِ اللهِ عزّ وجلّ وحذّره
عن { معصيته ، فتكتب } عند الله جهيداً فتعطى ثواب الرُّسُلِ والأنبياء .

قال رسول الله صلّى الله { تعالى } عليه [وعلى آله وأصحابه] وسلّم
{ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ } عليّ بن أبي طالب رضي الله { تعالى } عنه « لَأَنْ
يَهْدِيَ اللهُ بِهَذَاكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ »^(٢) .

الرَّجُلُ الثَّانِي : لسان بلا قلب ، فينطق بالحكمة ولا يعمل بها ،
يدعو الناس إلى الله عزّ وجلّ وهو يفرّ منه عزّ وجلّ ، يستقبح عيب غيره
ويدوم هو على مثله في نفسه ، يُظْهِرُ لِلنَّاسِ تَنَسُّكًا وَيَبَارِزُ اللهُ بِالْعِظَائِمِ مِنَ
المعاصي ، إذا خلا { كأَنَّهُ } ذئب عليه ثياب .

وهو الَّذِي حَذَّرَ مِنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ { تعالى } عليه وعلى / آله ٣٢/١
وأصحابه وسلّم بقوله « أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلِّ مُنَافِقٍ عَلِيمٍ

(١) السّفسافُ : الرّديء الحقيّر من كلّ شيء وعمل .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » رقم ٩٣٠ ، عن أبي رافع رضي الله عنه . وهو حديث
صحيح .

اللِّسَانِ»^(١) وفي حديث آخر : « أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ »^(٢) ، نعوذ بالله من هذا .

فابعد عنه وهول لثلا يختطفك بلذيد لسانه ، فتحرقك نار معاصيه ، ويقتلك نتن باطنه وقلبه .

والرَّجُلُ الثالث : قلب بلا لسان ، وهو مؤمن ستره الله { عَزَّ وَجَلَّ } عن خلقه ، وأسبل عليه كنفه ، وبصره بعيوب نفسه ، ونور قلبه ، وعرفه غوائل مخالطة الناس وشؤم الكلام والتُّطْق ، وتيقن أنَّ السَّلامَةَ في الصَّمت والانزواء .

كما قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم : « مَنْ صَمَتَ نَجَا »^(٣) . { وكما قيل } : العبادة عشرة أجزاء ؛ تسعة منها في الصَّمت^(٤) .

(١) أخرجه ابن عدي في « الكامل » ج ٣ / ٩٧٠ . وأخرج ابن حبان في « صحيحه » برقم ٨٠ ، عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ : « أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ جِدَالَ الْمُتَنَافِقِ عَليمُ اللِّسَانِ » . وهذا حديث صحيح .

(٢) لم أعثر عليه فيما لدي من المصادر ، وقد أخرج المنذري في « الترغيب والترهيب » ج ١ / ١٢٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « عُلَمَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ رَجُلَانِ ؛ رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْماً فَبَدَّلَهُ لِلنَّاسِ ، وَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِ طَمَعاً ، وَلَمْ يَشْتَرِ بِهِ ثَمَنًا فَذَلِكَ تَسْتَغْفِرُ لَهُ حَيَاتَانُ الْبَحْرِ ، وَدَوَابُّ الْبَرِّ ، وَالطَّيْرُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ، وَيَقْدُمُ عَلَى اللهِ سَيِّدًا شَرِيفًا حَتَّى يُرَافِقَ الْمُرْسَلِينَ ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ عِلْماً فَبَخِلَ بِهِ عَنْ عِبَادِ اللهِ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ طَمَعاً ، وَشَرَى بِهِ ثَمَنًا ، فَذَلِكَ يُلْجِمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ ، وَيُنَادِي مُنَادٌ : هَذَا الَّذِي آتَاهُ اللهُ عِلْماً فَبَخِلَ بِهِ عَنْ عِبَادِ اللهِ ، وَأَخَذَ عَلَيْهِ طَمَعاً ، وَاشْتَرَى بِهِ ثَمَنًا ، وَكَذَلِكَ حَتَّى يَفْرُغَ الْحِسَابُ » .

(٣) أخرجه أحمد في « مسنده » ج ٢ / ١٥٩ ، والترمذي في « الجامع الصحيح » برقم ٢٥٠١ ، عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، وهو حديث صحيح .

(٤) ذكر ابن أبي الدنيا في « الصَّمت وآداب اللِّسَان » برقم ٣٦ ، عن وهيب بن الورد قال : الحكمة عشرة أجزاء ، فتسعة منها في الصمت ، والعاشره غزلة الناس . وقد أخرج =

فهاذا رجل وليُّ الله عزَّ وجلَّ ، في سِتْرِ الله { عزَّ وجلَّ } محفوظاً ، ذو سلامة وعقل { وفراصة } ، جليس الرَّحمان ، منعمٌ عليه ، فالخير كلُّ الخير عنده ، فدونك ومصاحبتك ومخالطتك [وخدمته] والتَّحُبُّ إليه بقضاء الحوائج التي تسنح له ومرافق يرتفق بها ، فيحبُّك الله ويصطفيك ، ويدخلك في زمرة أحبائه وعباده الصَّالحين ببركته { إن شاء الله تعالى } .

والرَّجل الرَّابع : له لسان وقلب ، وهو الرَّجل المدعو في الملكوت العظيم ، كما جاء في الحديث : « مَنْ تَعَلَّمَ وَعَمِلَ بِهِ وَعَلِمَ دُعِيَ فِي الْمَلَكُوتِ عَظِيماً »^(١) ، وهو العالم بالله عزَّ وجلَّ وآياته ، أَسْتودع الله عزَّ وجلَّ { في } قلبه غرائب علمه ، وأطلع على أسرار طواها عن غيره ، وأصطفاه وأجابه وجذبه إليه ورقاه ، وإلى باب قربه هداه ، وشرح صدره لقبول / تلك الأسرار والعلوم ، وجعله جهبذاً وداعياً للعباد ، ونذيراً ٣٢/ب لهم ، وحقَّة فيهم ، هادياً مهدياً ، شافعاً مشفعاً ، صادقاً مُصدِّقاً صديقاً ، بدلاً لرسله وأنبيائه عليهم صلواته وبركاته وتحياته .

فهاذا هو الغاية والمنتهى في بني آدم ، لا منزلة فوق منزلته إلاَّ الثُّبُوءُ ، فعليك { به } ، وأحذر أن تخالفه وتُنافره وتُجانبه وتُعاديهِ ، وتترك القبول منه ، والرُّجوع إلى قوله ونصيحته ، فإنَّ السَّلامة فيما يقول وعنده ، والهلاك والضَّلال عند غيره ، إلاَّ من يوفِّقه الله عزَّ وجلَّ { فيؤتيه } بالسَّداد والرَّحمة .

= هناد بن السَّرِيِّ في « الرُّهْد » ق ١٠٥/ب ، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَيْسَرِ الْعِبَادَةِ وَأَهْوَيْهَا عَلَى الْبَدَنِ ؟ الصَّمْتُ وَحَسَنُ الْخُلُقِ » .

(١) أخرجه أبو خيثمة النَّسَائِي في كتاب « العلم » ، وابن الجوزي في « ترجمة سفيان الثَّورِي » .

فقد قَسَّمت لك النَّاس ، فانظر لنفسك إِنْ كنت ناظراً ، وأحترز لها إِنْ
كنت محترزاً بها ، شقيقاً عليها ، هداًنا الله وإِيَّاكَ لما يحِبُّه وَيَرْضاه ، دنيا
وأُخرى برحمته .

لكلِّ أجلٍ كتاب

قال رضيَّ الله { تعالى } عنه وأرضاه : ما أعظم تسخطك على ربِّك
وتهمتك له عزَّ وجلَّ ، وأعتراضك عليه { ونسبك } له عزَّ وجلَّ إلى
الظُّلم ، وأستبطائك في الرِّزق والغنى وكشف الكروب والبلوى ؟
أما تعلم أنَّ لكلِّ أجلٍ كتاب ، ولكلِّ بليَّةٍ وكربة غاية ومنتهى ونفاذ .
لا يتقدَّم ذلك ولا يتأخَّر ؟

أوقات البلاء لا تنقلب فتصير عوافي ، ووقت البؤس لا ينقلب
نعمة ، وحالة الفقر لا تستحيل غنى .

فأحسن الأدب ، وألزم الصَّمت والصَّبر والرِّضا والموافقة لربِّك عزَّ
أ/٣٣ وجلَّ ، وتب { له من تسخطك } عليه وتهمتك له في فعله ، ليس هناك /
إلاَّ شقاء وأنتقام من غير ذنب وعلى الطَّبع ، كما هو في حقِّ العبيد بعضهم
في بعض .

هو عزَّ وجلَّ متفرِّد بالأزل ، سبق الأشياء وخلق مصالحها
ومفاسدها ، فعلم ابتداءها وأنتهاءها وأنقضاءها وعاقبتها ، وهو عزَّ وجلَّ
حكيم في فعله ، متقن في صنعه ، لا تناقض في فعله ، لا يفعل عبثاً ،
ولا يخلق باطلاً لعباً ، لا تجوز عليه التَّقائص ولا اللُّوم في أفعاله .

وأنْتَظر الفرج إِنْ عجزت عن موافقته ، وعن الرِّضا والغنى في فعله ،
إلى أن يبلغ الكتاب أجله ، فتسفر الحالة عن ضدها بمرور الرِّمان وأنقضاء

الآجال ، كما ينقضي الشتاء فيسفر عن الصيف ، وينقضي الليل فيسفر عن النهار ، فإذا طلبت ضوء النهار ونوره بين العشاءين لم تعطه ، بل تزداد { ظلمة في } الليل ، حتى إذا بلغت الظلمة غايتها ، وطلع الفجر وجاء النهار بضوئه ، طلبت ذلك وأردته ، أو سكت عنه وكرهته . فإن طلبت إعادة الليل حينئذ لم تجب دعوتك ولم تعطه ، لأنك طلبت الشيء في غير حينه ووقته ، فتبقى حسيراً منقطعاً متسحطاً خجلاً ، { فأربح } هاذا كله وألزم الموافقة ، وأحسن الظنَّ برَّبِّك والصبر الجميل . فما كان لك لا تُسلب ، وما ليس لك لا تُعطى .

لعمري إنَّك لتدعو وتبتهل إلى ربِّك بالدُّعاء والتضرُّع ، { وهما } عبادة وطاعة ، وأمثالاً لأمره عزَّ وجلَّ في قوله : ﴿ .. أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ .. ﴾ [سورة غافر ٦٠/٤٠] ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ .. وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾ [سورة النساء ٣٢/٤] ، وغير ذلك / من الآيات ٣٣/ب والأخبار .

أنت تدعوه وهو يستجيب لك عند حينه ووقته وأجله إذا أراد الله عزَّ وجلَّ ، أو كان لك في ذلك مصلحة في دنياك وأخراك ، أو وافق ذلك قضاءه وأنتهاء أجله .

لا تتَّهمه في تأخير الإجابة ، ولا تسأَم من دعائه ، فإنَّك إن لم تربح لم تخسر ، وإن لم يجبك عاجلاً أثابك أجلاً ، فقد جاء في الحديث : « إِنَّ الْعَبْدَ يَرَى فِي صَحَائِفِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَسَنَاتٍ لَمْ يَعْرِفْهَا ، فَيُقَالُ لَهُ : إِنَّهَا بَدَلُ سُؤَالِكَ فِي الدُّنْيَا ، الَّذِي لَمْ يُقَدِّرْ قِضَاؤَهُ فِيهَا »^(١) أو كما ورد .

(١) لم أعثر عليه فيما لدي من المصادر بهذا اللفظ . لكن أخرج الطبراني في « الدُّعاء » برقم ٣٥ ، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « مَنْ دَعَا =

ثُمَّ أَقْلُّ أَحْوَالِكَ أَنْ تَكُونَ ذَاكِرًا لِرَبِّكَ مُوحِّدًا لَهُ ، حَيْثُ تَسْأَلُهُ وَلَمْ تَسْأَلِ { أَحَدًا } غَيْرَهُ ، وَلَمْ تُنْزِلْ حَاجَتَكَ بِغَيْرِهِ عِزًّا وَجَلًّا ، فَأَنْتَ بَيْنَ حَالَيْنِ فِي زَمَانِكَ كُلِّهِ ؛ لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ ، وَصِحَّتِكَ وَسَقَمِكَ ، وَبُؤْسِكَ وَنِعْمَاتِكَ ، وَشِدَّتِكَ وَرَخَائِكَ .

إِمَّا أَنْ تَمْسِكَ عَنِ السَّوَالِ وَتَرْضَى وَتَوَافِقَ وَتَسْتَرْسِلَ لِفَعْلِهِ عِزًّا وَجَلًّا ، كَالْمَيْتِ بَيْنَ يَدَيِ الْغَاسِلِ ، وَالطِّفْلِ الرَّضِيعِ فِي يَدَيِ الظُّرِّ ، وَالْكُرَةِ بَيْنَ يَدَيِ الْفَارِسِ يَقْلِبُهَا بِصَوْلِحَانِهِ ، فَيَقْلِبُكَ الْقَدَرُ كَيْفَ شَاءَ .

إِنْ كَانَ التَّعْمَاءُ فَمِنْكَ الشُّكْرُ وَالثَّنَاءُ ، وَمِنْهُ عِزٌّ وَجَلٌّ الْمَزِيدُ فِي الْعَطَاءِ ، كَمَا قَالَ { عِزًّا وَجَلًّا } : ﴿ .. لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. ﴾ [سورة إبراهيم ١٤/٧] ، وَإِنْ كَانَ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ فَالصَّبْرُ وَالْمُوَافَقَةُ مِنْكَ بِتَوْفِيقِهِ وَالتَّثْبِيتِ وَالنَّصْرَةِ وَالصَّلَاةِ وَالرَّحْمَةِ مِنْهُ عِزٌّ وَجَلٌّ بِفَضْلِهِ كَمَا قَالَ عِزٌّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ .. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [سورة البقرة ١٥٣/٢ أ/٣٤] ، يَعْنِي : بِالنَّصْرِ وَالتَّثْبِيتِ ، وَكَيْفَ / لَا يَكُونُ الْحَقُّ عِزًّا وَجَلًّا مَعَ الصَّابِرِينَ بِنَصْرِهِ وَتَثْبِيتِهِ وَهُوَ بِصَبْرِهِ نَاصِرٌ لَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَهَوَاهُ وَشَيْطَانِهِ . كَمَا قَالَ { اللَّهُ } عِزًّا وَجَلًّا : ﴿ .. إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [سورة محمد ٤٧/٧] .

فَإِذَا نَصَرْتَ اللَّهَ { عِزًّا وَجَلًّا } فِي مُخَالَفَةِ نَفْسِكَ وَهَوَاكَ بِتَرْكِ الْإِعْتِرَاضِ عَلَيْهِ ، وَالتَّسَحُّطِ لِفَعْلِهِ فِيكَ ، وَكُنْتَ خَصِمًا لِلَّهِ عَلَى نَفْسِكَ سَيْفًا لَهُ عَلَيْهَا ، كُلَّمَا تَحَرَّكَتْ بِكُفْرِهَا وَشُرْكَهَا وَرِعَوْنَتِهَا جَزَزْتَ رَأْسَهَا

= بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِنْهُمْ وَلَا قَطِيعَةٌ رَحِمَ ، أَعْطَاهُ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ : إِمَّا أَنْ يَغْفِرَ لَهُ بِهَا ذَنْبًا قَدْ سَلَفَ ، وَإِمَّا أَنْ يُعْجِلَهَا لَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِمَّا أَنْ يَدْخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ .

بصبرك وموافقتك لرَبِّكَ ، والطَّمَأْنِينَةُ إِلَىٰ فعله ووعدده والرِّضَا { بهما } ؛
كان الله عَزَّ وَجَلَّ لك معيناً وناصرًا .

وَأَمَّا الصَّلَاةُ وَالرَّحْمَةُ فَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ . . وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾ [سورة البقرة ١٥٥-١٥٧] .

والحالة الأخرى أَنَّكَ تبتهل إِلَى رَبِّكَ عَزَّ وَجَلَّ بالدَّعَاءِ والتَّضَرُّعِ
إِعْظَامًا لَهُ وَأَمْتِثَالًا لِأَمْرِهِ ، { ووضِعَ الشَّيْءُ } فِي مَوْضِعِهِ لِأَنَّهُ { نَدَبُكَ }
إِلَى سَوَالِهِ وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، وَجَعَلَ لَكَ ذَلِكَ مُسْتَرَحَاً ، وَرَسُولًا مِنْكَ
إِلَيْهِ ، وَمَوَاصِلَةً وَوَسِيلَةً لَدَيْهِ ، بِشَرَطِ تَرْكِ التُّهْمَةِ لَهُ { وَالتَّسْحُطِ } عَلَيْهِ
عِنْدَ تَأْخِيرِ الإِجَابَةِ إِلَيْهِ حِينَهَا .

أَعْتَبِرْهَا بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ وَلَا تَكُنْ مِمَّنْ يَجَاوِزُ إِحْدَيْهِمَا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ هُنَاكَ
حَالَةٌ أُخْرَى .

فاحذر أَنْ تَكُونَ مِنْ { الْمُعْتَدِينَ } الظَّالِمِينَ ، فِيهِلِكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
وَلَا يَبَالِي كَمَا أَهْلَكَ مِنْ مَضْيِ مِنْ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ فِي الدُّنْيَا بِتَشْدِيدِ بَلَائِهِ وَفِي
الْآخِرَةِ بِأَلِيمِ عَذَابِهِ .

سُبْحَانَ اللَّهِ / الْعَظِيمِ ، يَا عَالِمًا بِحَالِي عَلَيْكَ أَتَّكَالِي . ٣٤/ ب

مَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى يوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ

قال رَضِيَ اللَّهُ { تَعَالَى } عَنْهُ وَأَرْضَاهُ : عَلَيْكَ بِالْوَرَعِ وَإِلَّا فَالْهَلَاكُ فِي
رَبْقِكَ^(١) ملازم لا تنجو منه أبداً ، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِرَحْمَتِهِ ،

(١) الرِّبْقُ : الْكَرْبُ .

فقد ثبت في الحديث المروي عن رسول الله [صَلَّى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم] أنّه قال : « إِنَّ مَلَكَ الدِّينِ الْوَرَعَ ، وَهَلَكَهُ الطَّمَعُ ، وَإِنَّ مَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى يوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ ، كَالرَّاتِعِ إِلَى جَنْبِ الزَّرْعِ يوشِكُ أَنْ يَمُدَّ فَاةً إِلَيْهِ لَا يَكَادُ أَنْ يَسْلَمَ الزَّرْعُ مِنْهُ »^(١) .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله { تعالى } عنه : كنا نترك تسعة أعشار من الحلال مخافة أن نقع في الحرام . وعن أبي بكر الصديق رضوان الله عليه : كنا نترك سبعين باباً من المباح مخافة أن نقع في الجناح^(٢) .

فعلوا ذلك تورعاً من مقاربة الحرام ، أخذاً بقول النَّبِيِّ صَلَّى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه سلّم : « إِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى وَإِنَّ حِمَى الله محارمُهُ ، فَمَنْ حَامَ حَوْلَ الْحِمَى يوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ »^(٣) .

فمن دخل حضرة الملك فجاوز الباب الأوّل ثمّ الثاني { ووقف على الباب الثالث } ، حتّى قرب من سدّته ، خيرٌ ممّن وقف على الباب الأوّل الذي يلي البرّ ، فإنّه إن أغلق عنه الباب الثالث لم يضرّه { ذلك } إذ هو وراء بابين من أبواب القصر ، ومن دونه { حراس } الملك وجنده .

وأما إذا كان على الباب الأوّل فأغلق عنه بقي في البرّ وحده ، أخذته

(١) لم أجده فيما لدي من المصادر بهذا اللفظ ، ويشهد له ما أخرجه البخاري في « صحيحه » برقم ٥٢ ، عن النّعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الْحَلَالُ بَيْنٌ ، وَالْحَرَامُ بَيْنٌ ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ : كَرَاعَ يَرَعَى حَوْلَ الْحِمَى ، يوشِكُ أَنْ يَوَاقِعَهُ ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمَى ، أَلَا إِنَّ حِمَى الله فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ . . » .

(٢) ذكرهما الزبيدي في « الاتحاف » ج ٦ / ٢٥ .

(٣) أخرجه ابن عساكر في « تاريخه » ج ٣ / ٢٧٣ ، من النّعمان بن بشير رضي الله عنه .

{ الرُّعَارُ }^(١) والأعداء فكان من الهالكين .

فهاكذا من سلك العزيمة ولازمها ، إن سلب عنه مدد التَّوْفِيق / ٣٥ / أ
والرُّعَايَة وأنقطعت عنه حصل في الرُّخْص ولم يخرج من فناء الشَّرْع ، فإن
أدركته المنيَّة كان على الطَّاعة والعبادة ، ويُشْهَد له بخير العمل .

ومن وقف مع الرُّخْص ولم يتقدَّم إلى العزيمة إن سُلِبَ التَّوْفِيق
وقطعت عنه أمداده ، فغلب الهوى عليه وشهوات النَّفس ، فتناول الحرام
خرج من الشَّرْع ، فصار في زمرة الشَّيَاطِين أعداء الله عزَّ وجلَّ ، الضَّالِّين
عن سبيل الهدى ، فإن أدركته المنيَّة قبل التَّوبَة كان من الهالكين ، إلَّا أن
يتغمَّده الله برحمته وفضله .

فالخطر في القيام مع الرُّخْص ، والسَّلامة كلُّ السَّلامة في القيام مع
العزيمة .

طلاق الدُّنْيَا مَهْضُرُ الْجَنَّةِ

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : أجعل آخرتك رأس مالك
ودنياك ربحه ، وأصرف زمانك أولاً في تحصيل آخرتك ، ثمَّ إن فضل من
زمانك شيء أصرفه في دنياك وفي طلب معاشك . ولا تجعل دنياك رأس
مالك وآخرتك ربحه ، ثمَّ إن فضل من زمانك { فضلة } صرفتها في
آخرتك ، تقضي فيها الصَّلوات الخمس تسبكها سبكة واحدة ساقطة
الأركان ، مختلفة الواجبات من غير ركوع وسجود وطمأنينة بين الأركان
أو يلحقك التَّعب والإعياء فتنام عن القضاء جملة ، جيفة في الليل بطالاً

(١) عديمي الأخلاق والخير .

المبالاة بأمرها ، ونسيان يوم القيامة وما سيصيروا إليه غداً ممّا ذكر في ٣٦/ ب الكتاب / والسُّنَّة .

فانظر لنفسك وأختر لها خير القبيلتين وأفردها عن أقران السّوء من شياطين الإنس والجنّ ، وأجعل الكتاب والسُّنَّة إمامك ، وأنظر فيهما وأعمل بهما ، ولا تغترّ بالقال والقال والهوس .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [سورة الحشر ٥٩/ ٧] ، { أي واتقوا الله { ولا تخالفوه ، فتركوا العمل بما جاء به وتخترعوا لأنفسكم عملاً وعبادة ، كما قال عزّ وجلّ في { حقّ } قوم ضلّوا عن سبيل الله : ﴿ .. وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [سورة الحديد ٥٧/ ٢٧] .

ثمّ إنّ قد زكّى الله عزّ وجلّ نبيّه محمّد صلّى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه [وسلّم ونزّهه من الباطل والرّور فقال { الله تعالى } : ﴿ وَمَا يُنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ [سورة النّجم ٥٣/ ٤-٣] ، أي ما آتاكم به فهو من عندي لا من هواه ونفسه فاتّبِعوه .

ثمّ قال : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ .. ﴾ [سورة آل عمران ٣/ ٣١] فيبين أنّ طريق المحبّة اتّباعه صلّى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه [وسلّم قولاً وفعلاً ، فالنّبيّ صلّى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه [وسلّم قال : « الاكتسابُ سُنتي ، والتّوكّلُ حالتي »^(١) أو كما قال .

(١) لم أعثر عليه فيما لدي من المصادر . وقد يظنّ بعض النّاس أنّ التّوكّل يُنافي الاكتساب وتعاطي الأسباب ، وأنّ الأمور إذا كانت مقدّرة فلا حاجة إلى الأسباب !! وهذا =

فُكِّنَ بين { سُنَّتِهِ وحَالَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ } إِنْ ضَعُفَ إِيْمَانُكَ ،
فَالْتَكَسَّبَ الَّذِي هُوَ سُنَّتُهُ وَإِنْ قَوِيَ إِيْمَانُكَ فَحَالَتُهُ الَّتِي هِيَ التَّوَكُّلُ ، قَالَ
اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ . . وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة المائدة
٢٣/٥] وَقَالَ { اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ } : ﴿ . . وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ
حَسْبُهُ . . ﴾ [سورة الطَّلَاق ٣/٦٥] ، وَقَالَ : ﴿ . . إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ
الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [سورة آل عمران ١٥٩/٣] .

فَقَدْ أَمَرَكَ بِالتَّوَكُّلِ وَنَبَّهَكَ عَلَيْهِ كَمَا أَمَرَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ / { تَعَالَى } ٣٧/أ
عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ .

فَاتَّبَعَ أَوَامِرَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ فِي أَعْمَالِكَ ، وَإِلَّا فَهِيَ مُرَدُودَةٌ
{ عَلَيْكَ } . قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ { تَعَالَى } عَلَيْهِ [وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ]
وَسَلَّمَ : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ »^(١) ، هَذَا يَعْمُ طَلَبَ
الرِّزْقِ وَالْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ ، لَيْسَ لَنَا نَبِيٌّ غَيْرُهُ فَتَتَّبِعْهُ ، وَلَا كِتَابَ غَيْرَ
الْقُرْآنِ فَنَعْمَلْ بِهِ ، فَلَا تَخْرُجْ عَنْهُمَا فَتَهْلِكَ ، فَيُضِلُّكَ هَوَاكَ وَالشَّيْطَانُ .

= فاسدٌ . فَإِنَّ الْاِكْتِسَابَ : مِنْهُ فَرَضٌ ، وَمِنْهُ مُسْتَحَبٌّ ، وَمِنْهُ مَبَاحٌ ، وَمِنْهُ مَكْرُوهٌ ، وَمِنْهُ
حَرَامٌ كَمَا قَدْ عُرِفَ . وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ أَفْضَلَ الْمُتَوَكِّلِينَ ، يَلْبَسُ لِأَمَةِ الْحَرْبِ ،
وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لِلْاِكْتِسَابِ ، حَتَّى قَالَ الْكَافِرُونَ : ﴿ مَا لِي هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ
الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ﴾ [سورة الفرقان ٧/٢٥] .
(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي « صَحِيحِهِ » ، كِتَابُ الْأَقْضِيَّةِ ، بِرَقْمِ ١٨ ، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهَا .

قَالَ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ : الرَّدُّ هُنَا بِمَعْنَى الْمُرْدُودِ . وَمَعْنَاهُ : فَهُوَ بَاطِلٌ غَيْرُ مُعْتَدٍّ بِهِ ، وَهَذَا
الْحَدِيثُ قَاعِدَةٌ عَظِيمَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ مِنْ جَوَامِعِ كَلِمَةِ ﷺ ، فَإِنَّهُ صَرِيحٌ فِي
رَدِّ كُلِّ الْبَدْعِ وَالْمُحَدَّثَاتِ . وَهُوَ مِمَّا يَنْبَغِي حِفْظَهُ وَاسْتِعْمَالَهُ فِي إِبْطَالِ الْمُنْكَرَاتِ
وِإِشَاعَةِ الْإِسْتِدْلَالِ بِهِ .

قال الله تعالى : ﴿ .. وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴾
[سورة ص ٣٨ / ٢٦] .

فالسَّلامَةُ مع الكتاب والسُّنَّة ، والهَلَاكُ مع غيرهما ، وبهما يترقى
العبد إلى حالة الولاية والبدليَّة والغوثيَّة .

كَأَنَّ الْحَاسِدَ إِنَّمَا خُلِقَ لِيُغْنَاظَ

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : مالي أراك يا مؤمن حاسداً
لجارك في مطعمه ومشربه وملبسه ومنكحه ومسكنه ، وتقلُّبه في غناه ونعم
مولاه ، وقسُّمه الَّذي قُسِمَ له ؟

أما تعلم أنَّ هاذا ممَّا يُضَعِفُ إيمانك ويسقطك من عين مولاك عزَّ
وجلَّ ويبغضك إليه ؟

أما سمعت الحديث المروي عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ { تعالى } عليه
[وعلى آله وأصحابه] وسلَّم { أنَّه قال : فيما يُحكى } أنَّ الله { تعالى }
يقول : « الْحَسُودُ عَدُوٌّ نِعَمَتِي »^(١) ؟ وما سمعت قول النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ
{ تعالى } عليه [وعلى آله وأصحابه] وسلَّم : « إِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ
الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ »^(٢) ؟

(١) ذكره الغزالي في « الإحياء » ج ٣ / ١٨٨ ، عن زكريا عليه السَّلام وزاد عليه : « ..
متسخط لقضائي ، غير راضٍ بقسمتي الَّتِي قسمت بين عبادي » . وله شاهد من السُّنَّة
لاكنَّ سنده ضعيف ومعناه صحيح ، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال ﷺ :
« إِنَّ لِنِعْمِ اللَّهِ أَعْدَاءَ » قيل : وَمَنْ أُولَئِكَ ، قال : « الَّذِينَ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى
مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » .

(٢) أخرجه أبو داود في « سننه » برقم (٤٩٠٣) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه . وأخرجه
ابن ماجه في « سننه » برقم (٤٢١٠) ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، وزاد =

ثُمَّ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ تَحْسَدُهُ { يَا مَسْكِينُ } ؟ أَعَلَى قَسَمِهِ أَمْ عَلَى قَسَمِكَ ؟

فَإِنْ حَسَدْتَهُ عَلَى قَسَمِهِ { الَّذِي } قَسَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ .. نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [سورة الرُّخْف ٣٢ / ٤٣] فَقَدْ ظَلَمْتَهُ .

رَجُلٌ يَتَقَلَّبُ فِي { نَعَمِ } مَوْلَاهُ الَّتِي تَفْضُلُ بِهَا عَلَيْهِ { وَقَدَّرَهَا لَهُ } ، وَلَمْ يَجْعَلْ / لِأَحَدٍ فِيهَا حِطًّا وَنَصِيبًا ، فَمَنْ يَكُونُ أَظْلَمُ مِنْكَ وَأَبْخَلُ ٣٧/ب وَأَرْعَنُ وَأَنْقَصُ عَقْلًا مِنْكَ ؟

وَإِنْ حَسَدْتَهُ عَلَى قَسَمِكَ فَقَدْ جَهِلْتَ غَايَةَ الْجَهْلِ ، فَإِنَّ قَسَمَكَ لَا يُعْطَى لغيرِكَ ، وَلَا يَنْتَقِلُ مِنْكَ إِلَيْهِ ، حَاشَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [سورة ق ٢٩ / ٥٠] .

إِنَّ اللَّهَ { عَزَّ وَجَلَّ } لَا يَظْلِمُكَ فَيَأْخُذُ مَا قَسَمَهُ وَقَدَّرَهُ لَكَ { فَيُعْطِيهِ

= عليه : « .. وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ ، وَالصَّلَاةُ نُورُ الْمُؤْمِنِ ، وَالصَّيَامُ جُنَّةٌ مِنَ النَّارِ » . وَهُوَ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ . قَالَ الْمَنَاوِي فِي « فَيْضِ الْقَدِيرِ » ، ج ٣ / ٤١٤ : قَالَ الْغَزَالِيُّ : الْحَسَدُ هُوَ الْمَفْسَدُ لِلطَّاعَاتِ ، الْبَاعِثُ عَلَى الْخَطِيئَاتِ ، وَهُوَ الدَّاءُ الْعُضَالُ الَّذِي أَبْتُلِيَ بِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ فَضْلًا عَنْ الْعَامَّةِ حَتَّى أَهْلَكَهُمْ وَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ، وَحَسِبَكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ الْحَاسِدِ فَقَالَ : ﴿ وَمَنْ شَرُّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [سورة الْفُلُق : ٥ / ١١٣] ، كَمَا أَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ . فَانْظُرْ كَمْ لَهُ مِنْ شَرٍّ وَفِتْنَةٍ حَتَّى أَنْزَلَهُ مِنْزِلَةَ الشَّيْطَانِ وَالسَّاحِرِ . وَيَنْشَأُ عَنْ الْحَسَدِ إِفْسَادُ الطَّاعَاتِ ، وَفِعْلُ الْمَعَاصِي وَالشُّرُورِ ، وَالتَّعَبُ وَالْهَمُّ بِلَا فَائِدَةٍ ، وَعَمَى الْقَلْبُ حَتَّى لَا يَكَادُ يَفْهَمُ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ ، وَالْحِرْمَانِ وَالْخِذْلَانِ فَلَا يَكَادُ يَظْفِرُ بِمَرَادِ نَفْسٍ دَائِمٍ وَعَقْلٍ هَاشِمٍ وَغَمٍّ لَازِمٍ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . رَاجِعْ كِتَابَنَا سِرَ الْأَسْرَارِ لِلشَّيْخِ الْجِيلَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، ص ١٢٣ .

لغيرك } ، فهذا جهل منك وظلم لأخيك .

ثمَّ حسدك للأرض التي هي معدن الكنوز والذخائر من أنواع الذهب والفضة والجواهر ممَّا جمَعتهُ الملوك المتقدِّمة من عاد وثمود وكسرى وقیصر أولى من حسدك { لجارك المؤمن أو الفاجر ، فإنَّما [في بيته] لا يكون جزءاً من أجزاء ألف ألف جزء ممَّا هناك .

فما حسدك لجارك { إلاَّ كمثِّل رجل رأى ملكاً مع سلطانه وجنوده وحشمه وملكه على الأرض وجباية خراجها^(١) { إليه } ، وارتفاعها لديه ، وتنعمه بأنواع النعيم واللذات والشَّهوات فلم يحسده على ذلك ، ثمَّ رأى كلباً يخدم كلباً برياً من كلاب ذلك الملك يقوم { ويبيت { ويصيح معه ، ويعطى من مطبخ الملك { نفاية { الطَّعام { ورداوته { ، فيقوَّت به ، فيأخذ يحسده ويعاديه ويتمنَّى هلاكه ، وكونه مكانه ، وأنَّ يخلفه في ذلك خِسة ودناءة لا زهداً وديناً وقناعة .

فهل يكون في الزَّمان رجل أحمق منه وأرعن وأجهل ؟ .

٣٨/أ ثمَّ لو علمت يا مسكين ما سيلقى جارك غداً من طول الحساب يوم / القيامة إنَّ لم يكن أطاع الله { عزَّ وجلَّ } فيما خوَّله من نعمه { وأداء { حقِّه فيها ، وأمثِّل أمره وأنتهى نهيه فيها ، وأستعان بها على { عبادة الله تعالى { وطاعته ، ممَّا يتمنَّى أنَّه لم يعط من ذلك ذرَّة ولا رأى نعيماً يوماً قطُّ .

أما سمعت ما قد ورد في الحديث [عن النَّبيِّ صَلَّى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم] أنَّه [قال] : « لَيْتَمَنَّى أَقْوَامٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ

(١) الخراج : الضَّريبة المفروضة على البلاد التي فُتحت صلحاً .

تُقَرَضَ لِحَوْمُهُمْ بِالْمَقَارِضِ مِمَّا يَرَوْنَ لِأَصْحَابِ الْبَلَاءِ مِنَ الثَّوَابِ «^(١) ،
 فيتمنّى جارك غداً مكانك في الدنيا لما يرى من طول حسابه ومناقشته
 وقيامه خمسين ألف سنة في حرّ الشّمس في القيامة ، لأجل ما تمتّع به من
 النّعيم في الدنيا ، وأنت في معزل { عن ذلك } في ظلّ العرش آكلاً شارباً
 متنعماً فرحاً مسروراً مستريحاً ، لصبرك على شدائد الدنيا وضيقها وآفات
 وفقرها وبؤسها ، ورضاك بقسمك وموافقتك لرّبك فيما دبر وقضى من
 فقرك وغنى غيرك ، وسقمك وعافية غيرك ، وشدّتك ورخاء غيرك ،
 ودلّك وعزّ غيرك .

جعلنا الله وإياك ممّن صبر على البلاء ، وشكر على النّعماء ، وأسلم
 وفوّض الأمور إلى ربّ الأرض والسّماء .

الصدق دليل النّفوى وجمال النّجوى وكماؤ الدّين والدّنيا

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : من عامل الله بالصدق
 { والنّصاحة }^(٢) استوحش ممّا سواه في المساء والصّباح .

يا قوم لا تدعوا ما ليس لكم ، ووحدوا ولا تشركوا ، والله إنّ سهام
 القدر تصيبكم خدشاً لا قتلاً ، ومن كان في الله تَلَفَه كان / على الله ٣٨/ ب
 خلفه^(٣) .

(١) أخرجه الطبراني في « الصّغير » ج ١/ ٨٨ . وأخرج الترمذي في « الجامع الصّحيح »
 برقم ٢٤٠٢ ، عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ
 يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِضِ » . وهو
 حديث حسن صحيح .

(٢) نصح الشّيء نصْحاً ، ونُصُوحاً ، ونصّاحَةً : خلّص .

(٣) هنالك زيادة في الأصل ، ولم ترد في النسخ الأخر ، فأحببت ذكرها هنا في الحاشية . =

الهوى موطن الداء

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : الأخذ مع وجود الهوى من غير الأمر عناد وشقاق ، والأخذ مع عدم الهوى وفاق وأنفاق ، وتركه رياء ونفاق .

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَّا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ

أ/٣٩ قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه / : لا تطمع في أن تدخل في زمرة الروحانيين حتى تُعادي جملتك ، وتباين جميع الجوارح والأعضاء ، وتنفرد عن وجودك وحركاتك وسكناتك ، وسمعتك وبصرك ، وكلامك وبطشك ، وسعيك وعملك وعقلك ، وجميع ما كان منك قبل وجود الروح فيك ، وما أوجد فيك بعد نفخ الروح ، لأن جميع

= والريادة هي : (وأعلموا أنكم لم توافقوا مجاري الأقضية إلا قصمتكم ، وأنه لا يصطفي القلب حتى يُصطفى ، وتصير مثل كلب رابضة على الباب ، وتنادي يا أيتها النفس المطمئنة ، أرجعي إلى ربك راضية مرضية . حينئذ يدخل القلب الحضرة ، ويصير كعبة الطواف الرب تعالى ، ويكشف له عز وجل عن جلال الملك ، ويستوطن خيمة القرب ، ويغرس في جوار الملك ، ويظهر بجانبه ويخرج الفاقة ، ويسلم إليه دراية ويسلم إليه ويسمع النداء في الرفيق الأعلى : يا عبدي وكل عبدي أنت لي وأنا لك ، فإذا طالت صحبته صار بطانة الملك ، وخليفته على رعيته ، وأمينه على أسرارهِ ، وأرسله إلى البحر لينقذ الغرقى ، أو إلى البر ليهدي الضال ، فإن مرَّ على ميت أحياء ، أو على عاص ذكره ، أو على بعيد قرَّبه ، أو على شقي أسعده . الولي غلام البدل ، والبدل غلام النبي ، والنبي غلام الرسول ﷺ ، مثال الولاية مثال مسامر الملك ومباطن حضرته لا يزال في صحبته إلا إذا ركب الخلوة مضت عروسهم ، والليل سرير ملكهم ، والنهار يعزيهم ، يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك) .

ذلك حجابك عن ربك عز وجل ، فإذا صرّت روحاً منفردة ، سر السر ، غيب الغيب ، مابيناً للأشياء في سرّك ، متّخذاً لكلّ عدوّاً وحجاباً وظلمة ، كما قال { عز وجل } في حق إبراهيم الخليل عليه الصّلاة والسّلام : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء ٧٧ / ٢٦] . قال عليه السّلام ذلك للأصنام .

فاجعل أنت جملتك وأجزاءك أصناماً مع سائر الخلق ، ولا تطع شيئاً من ذلك ولا تتّبعه جملة ، فحينئذ تؤمّن على الأسرار والعلوم اللدنيّة وغرائبها ، ويرد إليك التكوين وخرق العادات التي هي من قبيل القدرة التي تكون للمؤمنين في الجنّة ، فتكون في هذه الحالة كأنتك أحييت بعد الموت في الآخرة ، فتكون كليتك { قدرة } ، تسمع بالله ، وتبصر بالله ، وتنطق بالله ، وتبشّط بالله ، وتسعى بالله ، وتعقل بالله ، وتطمئن وتسكن بالله ، فتعمى عمّا سواه { سبحانه } وتصم عنه ، فلا ترى لغيره وجوداً مع { حفظ الحدود ، والأوامر والنّواهي } . فإذا { أنخرم } ^(١) فيك شيء من الحدود فاعلم أنّك مفتون متلاعب بك الشياطين .

فارجع إلى حكم الشرع وألزمه ، ودع / عنك الهوى ، لأنّ كلّ ٣٩/ب حقيقة لا تشهد لها الشريعة فهي زندقة .

الولاية مرّة الفطام !

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : { أضرب } لك مثلاً في الغنى فنقول : ألا ترى المليك يوليّ رجلاً من العوامّ ويعطي له الولاية على

(١) نقص وأنقطع .

بلدة من البلاد ، ويخلع عليه^(١) ويعقد له أُلوية ورايات ، ويعطيه المكوس^(٢) والطَّبل والجند فيكون على ذلك برهة من الزَّمان ، حتَّى إذا أطمأن إلى ذلك وأعتقد بقاءه وثباته ، وعجب به ونسي حالته الأولى ونقصانه وفقره وخموله ، وداخلته النَّخوة والكبرياء ؛ جاءه العزل من الملك في أسرٍّ ما كان من أمره ، ثمَّ طالبه الملك بجرائم صنعها وتعدَّى أمره ونهيه فيها ، فحبسه في أضيق الحبوس وأشدّها ، فطال حبسه ودام ضرّه وذله وفقره ، وذابت نخوته وكبرياؤه ، وأنكسرت نفسه وخمدت { نارِيَّة } هواه ، كلُّ ذلك بعين الملك وعلمه ، ثمَّ { تعطَّف } الملك عليه ، فنظر { إليه } بعين الرَّأفة والرَّحمة ، فأمر بإخراجه من الحبس والإحسان إليه ، والخلعة عليه وردَّ الولاية إليه ومثلها معها ، وجعلها { له } موهبة ، فدامت له وبقيت مصفّاة مكفّاة مهنّاة .

فكذلك المؤمن إذا قرَّبه الله تعالى إليه وأجْتَباه ، فتح { له } قبالة { باب } عين قلبه باب الرَّحمة والمِنَّة والإنعام ، فيرى بقلبه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، من مطالعة الغيوب من ٤٠/أ ملكوت السَّمَاوَات والأَرْض وتقريب ، / وكلام لذيد لطيف ، ووعد جميل ودلال ، وإجابة دعاء وتصديق ، ووعد ووقاية وكلمات حكمة تُرمى إلى قلبه قذفاً من مكان بعيد ، فتظهر على لسانه ، ومع ذلك يسبغ عليه نِعْمه ظاهرةً على جسده وجوارحه ، في المأكول والمشروب والملبوس ، والمنكوح الحلال والمباح ، وحفظ الحدود والعبادات الظاهرة ، فيديم الله عزَّ وجلَّ ذلك لعبده المؤمن المجذوب برهة من

(١) خَلَعَ عَلَيْهِ خِلْعَةً : أَلْبَسَهُ إِثَابَهَا .

(٢) الضَّرْبِيَّة الَّتِي تُفَرِّضُ عَلَى الْبُضَائِعِ الْوَارِدَةِ إِلَى الْبَلَدِ مِنَ الْخَارِجِ . وَهِيَ مَا يَسْمَى فِي عَصْرِنَا هَذَا بِضَرْبِيَّةِ الْجَمَارِكِ .

الزَّمان ، حتَّى { إذا } أطمأنَّ العبدُ إلى ذلك وأَغترَّ به وأَعتقد دَوامه ، فتح اللهُ تعالى عليه أبوابَ البلاء وأنواعَ المحن في النَّفس والمال والأهل والولد { والقلب } ، فينقطع عنه جميع ما كان قد أنعم اللهُ عليه من قبل ، فيبقى متحيراً حسيراً منكسراً مقطوعاً به .

إنَّ نظرَ إلى ظاهره رأى به ما يسُوؤه ، وإنَّ نظرَ إلى قلبه وباطنه رأى ما يُحزنه ، وإنَّ سأل الله كَشَفَ ما به من الضَّرِّ لم يرَ إجابةً ، وإنَّ طلب وعداً جميلاً لم يجده سريعاً ، وإنَّ وُعد بشيءٍ لم يعثر على الوفاء به ، وإنَّ رأى رؤيا لم يظفر بتعبيرها وتصديقها ، وإنَّ { رام } الرُّجوع إلى الخلق لم يجد إلى ذلك سبيلاً ، وإنَّ ظهرت له رخصة في ذلك فعمل بها تسارعت العقوبات نحوه ، وتسَلَّطت أيدي الخلق على جسمه ، وأَلَسْتَهُمْ على عرضه ، وإنَّ طلب الإقالة فيما قد أُدخل فيه من الحالة والرُّجوع إلى الحالة الأولى قبل الاجتباء لم { يُقَلَّ } ، وإنَّ طلب الرِّضا والطَّيبة والتَّنعُّم بما به من البلاء/ لم يعط .

ب/٤٠

فحينئذٍ تأخذ النَّفس في الدُّوبان ، والهوى في الزَّوال ، والإرادات والأمانى في الرَّحيل ، { والأكوان } في التَّلاشي ، فيُدام له ذلك ، بل يزداد تشدُّداً { وعسراً } وتأكيداً ، حتَّى إذا فني العبد من الأخلاق الإنسانيَّة { والصِّفات } البشريَّة بقيَ روحاً فقط ، يسمع نداءً في باطنه : أركض برجلك هاذا مغتسل بارد وشراب . كما قيل لأَيُّوب عليه الصَّلَاة والسَّلَام^(١) ، { فيمطر } الله عزَّ وجلَّ على قلبه بحار رحمته ورأفته ولطفه ومَنِّته ، { ويحييه } بروحه { ويطيِّبه } بمعرفته ودقائق علومه ،

(١) وهو مصداق قول الله تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ [سورة ص ٤٢/٣٨] .

{ ويفتح } عليه أبواب نعمه ودلاله ، { ويُطلق إليه الأيدي } بالبذل والعطاء والخدمة في سائر الأحوال والألسن بالحمد والثناء ، والذكر الطَّيِّب في جميع المحال ، والأرجل بالترحال ، { ويذلّل } له الرِّقاب { ويسخّر } له الملوك والأرباب ، { ويسبغ عليه } نعمه باطنة وظاهرة ، يتولّى تربية ظاهره بخلقه ونعمه ، وأستأثر تربية باطنه بلطفه وكرمه ، { ويديم } له ذلك إلى اللّقاء ، ثمّ يُدخله فيما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، كما قال جلّ وعلا : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [سورة السّجدة : ١٧/٣٢] . .

في شهيد والمخنظل دوار!

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : النَّفس لها حالتان لا ثالث لهما . حالة عافية ، وحالة بلاء .

فإذا كانت في بلاء فالجزع والشكوى والسخط والاعتراض والتّهمة ٤١/أ للحقّ عزّ وجلّ ، لا صبر ولا رضى ولا موافقة ، / بل سوء الأدب والشرك بالخلق والأسباب والكفر .

وإذا كانت في عافية فالأشر والبطر وأتباع الشّهوات واللذات ، كلّما نالت شهوة طلبت أخرى ، { وأستزرات } ^(١) ما عندها من التّعيم من مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح ومكسوب ومركوب ، فتخرج { لكلّ واحدة } من هذه النعم عيوباً ونقصاناً ، وتطلب أعلى منها وأسنى ممّا

(١) استهزأت .

{ لم } يُقسم لها ، وتُعرض عما قُسم لها فتوقع الإنسان في تعب طويل ولا ترضى بما في يديها وما قسم لها ، فترتكب الغمرات وتخوض المهالك في تعب طويل لا غاية { له } ولا منتهى في الدنيا ، ثم في العقبى كما قيل : إِنَّ من أشد العقوبات طلب ما لا يقسم .

فإذا كانت في بلاء لا تتمنى سوى أن يكشفه وتنسى كل نعيم وشهوة ولذة ، ولا تطلب شيئاً منها ، فإذا عوفيت منه رجعت إلى رعونتها وأشهرها وبطرها وإعراضها عن طاعة ربّها وأنهماكها في معاصيه ، وتنسى ما كانت فيه من أنواع البلاء ، وما حلّ بها من الويل ، فتردّ إلى أشدّ ما كانت عليه من أنواع البلاء والضّرّ عقوبة لها بما قد أجتربت وركبت من العظائم ، فطمأ لها وكفّاً عن المعاصي في المستقبل ، إذ لا { تصلح } لها العافية والنعمة ، بل حفظها في البلاء والبؤس .

فلو أحسنت الأدب عند أنكشاف البليّة ولازمت الطاعة والشكر والرضا بالمقسوم لكان خيراً لها دنيا وأخرى ، فكانت تجد / زيادة في ٤١/ ب التّعيم والعافية والرضا من الله عزّ وجلّ ، والطّيبة والتّوفيق واللّطف .

فمن أراد السّلامة في الدنيا والآخرة فعليه بالصّبر والرضا ، وترك الشّكوى إلى الخلق ، وإنزال حوائجه برّبّه عزّ وجلّ ، ولزوم طاعته ، وانتظار الفرج منه عزّ وجلّ والانقطاع إليه عزّ وجلّ ، [إذ] هو خير من غيره ومن جميع خلقه ، حرمانه عطاء ، وعقوبته نعماء ، وبلاؤه دواء ، ووعدّه نقد نسيئته^(١) ، وحالة قوله فعل ، إنّما قوله وفعله : ﴿ . . إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ﴾ [سورة يس : ٨٢ / ٣٦] .

كل أفعاله حسنة وحكمة ومصلحة ، غير أنّه عزّ وجلّ طوى علم

(١) أي أنّ وعد الله تعالى نافذ وإن أجلّه .

المصالح عن عباده وتفرّد به ، فالأولى للعبد واللائق بحالة الرّضا والتّسليم ، والاشتغال بالعبوديّة من أداء الأوامر واجتناب النّواهي والتّسليم في القدر ، وترك الاشتغال بالرّبوبيّة التي هي علّة الأقدار ومجاريها وأصولها ، والشّكوت عن لم وكيف ومتى ، والتّهمة للحقّ عزّ وجلّ في جميع حركاته وسكناته .

وتستند هذه الجملة إلى حديث عبد الله بن عباس رضي الله { تعالى } عنهما قال : بينما أنا رديف رسول الله صلى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم إذ قال لي يا غلام : « أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ ، وَإِذَا أَسْتَعَنْتَ فَاستَعِنْ بِاللَّهِ ، جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ ، فَلَوْ جَهَدَ الْعِبَادُ أَنْ يَنْفَعُوا بِشَيْءٍ لَمْ / يَقْضِهِ اللَّهُ لَكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ ، وَلَوْ جَهَدَ الْعِبَادُ أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَقْضِهِ اللَّهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَيْهِ ، فَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تُعَامِلَ اللَّهَ بِالْصِّدْقِ فِي الْيَقِينِ فَاعْمَلْ ، وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَإِنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَأَعْلَمُ أَنَّ التَّصَرُّعَ مَعَ الصَّبْرِ وَالْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » (١) .

فينبغي لكلّ مؤمن أن يجعل هذا الحديث { مرآة } لقلبه وشعاره ودثاره وحديثه ، فيعمل به في جميع حركاته وسكناته ، حتّى يسلم في الدنيا والآخرة ويجد العزّة فيهما ، برحمة الله عزّ وجلّ .

إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : ما سأل الناس من سأل إلّا

(١) أخرجه أحمد في « مسنده » ج ١ / ٣٠٧ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما . وهو حديث صحيح .

لجهله بالله عزَّ وجلَّ ، وضعف إيمانه ومعرفته و يقينه ، وقلة صبره ، وما تعقَّف من تعقَّف عن ذلك إلا { لوفور } علمه بالله عزَّ وجلَّ ، وقوَّة إيمانه و يقينه ، وتزايُد معرفته برَّبّه عزَّ وجلَّ في كلِّ { يوم } ولحظة ، وحيائه منه عزَّ وجلَّ .

طَرِّق اليَسْبِجَاجِي الخوف والرجاء

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : إنّما لم يستجب للعارف كلّما يسأل ربّه عزَّ وجلَّ ويوفي له بكلِّ وعد لئلا يغلب عليه الرجاء فيهلك ، لأنَّ ما من حالة ومقام إلاّ ولذلك خوف ورجاء ، هما كجناحي طائر لا يتمُّ الإيمان إلاّ بهما^(١) ، وكذلك الحال والمقام ، غير أنّ خوف كلّ حالة ورجاءها بما يليق بها .

فالعارف مقرب ، وحالته ومقامه أنّ لا يريد شيئاً سوى الله عزَّ وجلَّ ، ولا يركن ولا يطمئن إلى غيره { عزَّ وجلَّ } ، ولا يستأنس بغيره { عزَّ وجلَّ } ، فطلبه لإجابة سؤاله والوفاء بعهده / غير ما هو بصدده ولاثق ٤٢/ب بحاله ، ففي ذلك أمران اثنان :

(١) الخوف والرجاء كجناحي الطائر إذا أستويا أَسْتَوَى الطَّيْر ، وتمَّ طيرائه ، وإذا نَقَصَ أحدهما ، وقع فيه النقص ، وإذا ذهب صار الطائر في حدِّ الموت ، وقد مدح الله تعالى أهل الخوف والرجاء بقوله : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً أَوْ قَائِماً يُحْذِرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [سورة الزمر ٣٩ / ٩] وقال أيضاً : ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ [سورة السجدة ٣٢ / ١٦] .
فالرجاء يستلزم الخوف ، ولولا ذلك لكان أمناً ، والخوف يستلزم الرجاء ، ولولا ذلك لكان قنوطاً ويأساً .

أحدهما لئلا يغلب عليه الرجاء والغرة بمكر ربّه عزّ وجلّ ، فيغفل عن القيام بأدبه فيهلك .

والآخر شرّكه بربّه عزّ وجلّ شيء سواه ، إذ لا معصوم في العالم في الظاهر بعد الأنبياء عليهم [الصّلاة] والسّلام .

ولا يجيبه ولا يوفي له كيلا يسأل عادة ويريد طبعاً لا أمثالاً للأمر ، لِمَا في ذلك من الشُّرك ، والشُّرك كبيرة في الأحوال كلّها والأقدام جميعها والمقامات بأسرها .

وإذا كان السّؤال بأمر فذلك ممّا { يزيده } قرباً كالصّلاة والصّوم وغيرهما من الفرائض والتّوافل ، لأنّه يكون في ذلك ممثلاً في الأوامر .

حبيب على ما كان من حبيب!

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : أعلم أنّ الناس رجلان : منعم عليه ، ومبتلى بما قضى ربّه عليه .

فالمنعم { عليه } لا يخلوا من النّعمة والتّكدر فيما أنعم عليه ، فهو أنعم ما يكون من ذلك إذا جاء القدر بما يكدره عليه ، من أنواع الرّزايا والبلايا من الأمراض والأوجاع والمصائب في النّفس والمال والأهل والأولاد فيتغنّص بذلك ، فكأنّه لم يُنعم عليه قطّ ، وينسى ذلك النّعيم وحلاوته ، وإنّ كان الغنى قائماً بالمال والجاه والعبيد والإماء والأمن من الأعداء ، فهو في حال النّعماء كأن لا بلاء في الوجود ، وفي { حال } البلاء كأن لا نعيم في الوجود ، كلّ ذلك لجهله بمولاه { عزّ وجلّ } .

٤٣/ أفلو علم أنّ مولاه { عزّ وجلّ } فعّال / لِمَا يُريد ، يغيّر ويبدّل ، ويُخل ويمر ، ويُعني ويُفقر ، ويرفع ويُخفض ، ويُعزّز ويُدلّ ، ويُحيي ويُميت ،

وَيُقَدِّمُ وَيُؤَخِّرُ ، لَمَّا أَطْمَأَنَّ إِلَى مَا بِهِ مِنَ النَّعِيمِ ، وَلَمَّا أَغْتَرَبَهُ ، وَلَمَّا أَيْسَ مِنْ الْفَرْجِ فِي حَالَةِ الْبَلَاءِ ، وَلِجَهْلِهِ أَيْضاً بِالدُّنْيَا { أَطْمَأَنَّ إِلَيْهَا ، وَطَلَبَ فِيهَا صَفَاءً لَا يَشُوبُهُ كَدْرٌ ، وَنَسِيَ أَنَّهَا { دَارُ بَلَاءٍ وَتَنْغِيصٍ ، وَتَكَالِيفٍ { وَتَكْدِيرٍ } ، وَأَنَّ أَصْلَهَا بَلَاءٌ وَطَارَفُهَا نِعْمَاءٌ ^(١) ، فَهِيَ كَشَجَرَةِ الصَّبْرِ أَوَّلُ ثَمَرَتِهَا مُرَّةٌ وَآخِرُهَا شَهْدٌ حَلْوٌ ، لَا يَصِلُ الْمَرْءُ إِلَى حِلَاوَتِهَا حَتَّى يَتَجَرَّعَ مَرَارَتَهَا ، فَلَنْ يَبْلُغَ الشَّهْدَ إِلَّا بِالصَّبْرِ عَلَى الْمُرِّ .

فَمَنْ صَبَرَ عَلَى بَلَائِهَا حَلَّ لَهُ نَعِيمُهَا ، إِنَّمَا يُعْطَى الْأَجِيرُ أَجْرَهُ بَعْدَ عَرَقِ جَبِينِهِ ^(٢) ، وَتَعَبِ جَسَدِهِ ، وَكَرْبِ رُوحِهِ ، وَضِيقِ صَدْرِهِ . وَذَهَابِ قُوَّتِهِ ، وَإِذْلالِ نَفْسِهِ ، وَكَسْرِ هَوَاهُ فِي خِدْمَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِهِ ، فَلَمَّا تَجَرَّعَ هَازِلَ الْمَرَاتِرِ { كُلَّهَا } أَعْقَبَتْ لَهُ طَيِّبُ طَعَامٍ وَإِدَامُ وَفَاكِهِةٍ وَلِبَاسُ وَرَاحَةٍ وَسُرُورٌ وَلَوْ أَقَلَّ قَلِيلٌ .

فَالدُّنْيَا أَوَّلُهَا مُرَّةٌ كَالصَّحْفَةِ الْعُلْيَا مِنْ عَسَلٍ فِي ظَرْفٍ مَشُوبَةٍ بِمَرَارَةٍ ، فَلَا يَصِلُ الْآكِلُ إِلَى قَرَارِ الظَّرْفِ وَتَنَاوُلِ الْخَالِصِ مِنْهُ إِلَّا بَعْدَ تَنَاوُلِ الصَّحْفَةِ الْعُلْيَا ، فَإِذَا صَبَرَ الْعَبْدُ عَلَى آدَاءِ أَوْامِرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَأَنْتَهَاءِ نَوَاهِيهِ ، وَالتَّسْلِيمِ وَالتَّقْوِيضِ فِيمَا يَجْرِي بِهِ الْقَدَرُ ، وَتَجَرَّعَ مَرَاتِرِ ذَلِكَ كُلِّهِ وَتَحَمَّلَ أَثْقَالَهُ ، وَخَالَفَ هَوَاهُ وَتَرَكَ مَرَادَهُ ، أَعَقَبَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ طَيِّبَ عَيْشٍ فِي آخِرِ عَمْرِهِ وَالدَّلَالِ وَالرَّاحَةِ وَالْعَزَّةِ / ، وَتَتَوَلَّاهُ وَيَغْذِيهِ كَمَا يَغْذِي ٤٣/بِ الطِّفْلِ الرِّضِيعَ مِنْ غَيْرِ { تَكْلُفٍ } مِنْهُ وَتَحَمَّلُ مِثْلَهُ وَتَبْعُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، كَمَا يَتَلَذَّذُ آكِلُ الْمُرِّ مِنَ الصَّحْفَةِ الْعُلْيَا مِنَ الْعَسَلِ بِأَكْلِهِ مِنْ قَرَارِ

(١) أُمُورُ الدُّنْيَا الْمُسْتَحْدَثَةُ وَغَيْرُ الثَّابِتَةِ عَلَى حَالِ النَّمَاءِ .

(٢) وَهَذَا مُصَدِّقُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ ، الَّذِي أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَةَ فِي « سُنَنِ » بِرَقْمِ ٢٤٤٣ ، عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ ، قَبْلَ أَنْ يَجْفَ عَرْفُهُ » .

الظَّرَف . فينبغي للعبد المنعم عليه ألا يأمن مكر الله عزَّ وجلَّ ، فيغتَرَّ
بالنَّعمة ويقطع بداومها ، ويغفل عن شكرها ويرخي قيدها بتركه
لشكرها ، قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم
وعلى آله وسلَّم : « النَّعْمَةُ وَحْشِيَّةٌ فَقَيِّدُوهَا بِالشُّكْرِ »^(١) .

فشكر نعمة المال الاعتراف بها للمنعم المتفضل وهو الله عزَّ وجلَّ ،
والتَّحَدُّثُ بها لنفسه في سائر الأحوال ، ورؤية فضله ومَنته عزَّ وجلَّ
وجلَّ ، وألاَّ يتملَّك عليه ولا يتجاوز حدَّه فيه ، ولا يترك أمره فيه ، ثمَّ
بأداء حقوقه من الرِّكَاة وكفَّارة الذُّنوب والتُّذُور والصَّدقة وإِغاثة
الملهوف ، وأفتقاد أرباب الحاجات وأهلها في الشَّدائد عند تقلُّب
الأحوال وتبدُّل الحسنات بالسَّيِّئات ، أعني ساعات النِّعم والرِّخاء بالبأساء
والضَّرَاء .

وشكر نعمة العافية في الجوارح والأعضاء بالاستعانة بها { على }
الطَّاعات والكفَّ عن المحارم والسَّيِّئات ، والمعاصي والآثام ، فذلك
قيد النِّعمة عن الرِّحلة والدَّهَاب ، وسقي شجرتها ، وتنمية أغصانها
٤٤/أ وأوراقها ، وتحسين ثمرتها ، وحلاوة طعمها ، وسلامة عاقبتها / ،
ولذاذة مضغها ، وسهولة بلعها ، وتعقب عافيتها وريعها في الجسد ، ثمَّ
ظهور بركتها على الجوارح من أنواع الطَّاعات والقُرَبات والأذكار ، ثمَّ
دخول العبد بعد ذلك في الآخرة في رحمة الله عزَّ وجلَّ والخلود في
الجَنَّات مع التَّبَيُّين والصَّديقين والشُّهداء والصَّالحين وحسن أولئك

(١) لم أَعثر عليه فيما لدي من المصادر ، لكن وجدت عند البيهقي في « الآداب » برقم
٢٥٧ ، عن يحيى بن عبد الله ، عن النَّبِيِّ ﷺ : « مَنْ أُنْزِلَتْ إِلَيْهِ نِعْمَةٌ فَلْيَشْكُرْهُ » .
وأخرج البيهقي عن عمر بن عبد العزيز أنَّه قال : قِيدُوا نِعَمَ اللهِ عزَّ وجلَّ بالشُّكر لله عزَّ
وجلَّ ، وشكر الله ترك معصيته .

رفيقاً ، فإن لم يفعل { ذلك } وأغترَّ بما ظهر من زينتها و { ما } ذاق من لاذتها ، وأطمأن إلى بريق سراها ، وما لاح من برقها ، وما هبَّ من نسيم أول نهار قبضها ، ونعومة جلود حياتها وعقاربها ، وغفل { وعمي } عن سمومها القاتلة المودعة في أعماقها { ومكامنهما } ومصائدھا المنصوبة لأخذه وحبسه وهلاكه ، فليهنأ بالردى وليستبشر بالعطب والفقر العاجل مع الدل والهوان في الدنيا والعذاب الآجل في النار [واللظى] .

وأما المبتلى فتارة يُبتلى عقوبةً ومقابلةً لجريمة ارتكبها ومعصية أقترفها ، وأخرى يُبتلى تكفيراً وتمحيصاً ، وأخرى يُبتلى لارتفاع الدرجات وتبليغ المنازل العاليات في الآخرة ، ليلحق بأولي العلم من أهل الحالات والمقامات ، { ممَّن } سبقت { لهم } عناية رب الخليفة والبريات ، وسيّرهم مولاھم في ميادين البليات على مطايا الرفق والألطف ، وروّحهم بنسيم النظرات { واللمحات } واللحظات / في ٤٤/ ب الحركات والسكنات ، إذ لم يكن { ابتلاهم للإهلاك } والإهواء في الدركات ، ولاكن اختبارهم بها للاصطفاء والاختيار ، وأستخرج بها حقيقة الإيمان ، وصفّاها وميّزها من الشُّرك والدَّعاوى والتَّفاق ، ويحلّهم بها أنواع العلوم والأسرار والأنوار ، فجعلهم من { الخُلص الخواص } ، أئتمنهم على أسرارہ ، وأرتضاهم لمجالسته دنيا وأخرى ، في الدنيا بقلوبهم ، وفي الآخرة بأجسادهم .

قال صلّى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم : « الفقراء الصُّبرُ جُلَساءُ الرَّحمانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(١) فكانت البلايا مطهرة لقلوبهم من

(١) قطعة من حديث . أخرجه الدَّيلمي في « الفردوس » برقم ٤٩٩٣ ، عن عمر بن =

درن الشُّرك ، والتَّعلُّق بالخلق والأسباب والأُماني والإرادات ، وذوابة لها ، وسباكة من الدَّعاوي والهوسات ، وطلب الأعواض بالطَّاعات من الدَّرجات والمنازل العليا في الآخرة في الفردوس والجنَّات .

فعلامه الابتلاء - على وجه المقابلة والعقوبات - عدم الصَّبْر عند { وجودها } ، والجزع والشَّكوى إلى الخليفة والبريات .

وعلامه الابتلاء - تكفيراً وتمحيصاً للخطيئات - وجود الصَّبْر الجميل من غير شكوى ، وإظهار الجزع إلى الأصدقاء والجيران ، والتَّضجُّر بأداء الأوامر والطَّاعات .

وعلامه الابتلاء - لارتفاع الدَّرجات - وجود الرِّضا والموافقة ، ٤٥/أ وطمأنينة النَّفس والسُّكون لفعل إله الأرض والسَّماءات / ، والفناء فيها إلى حين { الانكشاف } بمرور الأيام والسَّاعات .

إِذْكَرَةُ تُكْفِي مَا أُنْغَمَسُ

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه في قول النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم عن ربِّه عزَّ وجلَّ : « مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي مِنْ مُسَاءٍ لَتِي أُعْطِيَتْهُ أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ »^(١) .

وذلك أنَّ المؤمن إذا أراد الله عزَّ وجلَّ أصطفاه وأجتاباه ، سلك به

= الخطَّاب قال : قال رسول الله ﷺ : « لِكُلِّ شَيْءٍ مِفْتَاحٌ ، وَمِفْتَاحُ الْجَنَّةِ حُبُّ الْمَسَاكِينِ ، وَالْفُقَرَاءِ الصُّبْرُ هُمْ جُلَسَاءُ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » . وهو حديث موضوع .
(١) قطعة من حديث . أخرجه التِّرْمِذِيُّ في « الجامع الصَّحِيح » برقم ٢٩٢٦ ، عن أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . وَتَمَّتْهُ : « . . . وَفَضْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ » . وهو حديث حسن غريب .

في الأحوال وأمتحنه بأنواع المحن والبلايا والمصائب ، فيفقره بعد الغنى ، ويضطره إلى مساءلة الخلق في الرزق عند سدّ جهاته عليه ، ثمّ يصونه { عن } مساءلتهم ، فيضطره إلى القرض منهم ، ثمّ يصونه عن القرض ، فيضطره إلى الكسب ويسهّله عليه { ويسّره له } ، فيأكل بالكسب الذي هو الشُّنَّة ، ثمّ يعسّره عليه ويلهمه بالسؤال للخلق ، ويأمره به بأمر باطن يعلمه ويعرفه ويجعل عبادته فيه ومعصيته في تركه ، ليزول بذلك هواه وتنكسر نفسه ، وهي حالة الرياضة ، فيكون سؤاله على وجه { الإخبار } لا على وجه الشُّرك بالجبار ، ثمّ يصونه عن ذلك ويأمره بالقرض منهم أمراً جزمياً لا { يمكنه } تركه كالسؤال من قبل ، ثمّ ينقله من ذلك ويقطعه عن الخلق ومعاملتهم ، فيجعل رزقه في السؤال لله عزّ وجلّ فيسأله جميع ما يحتاج { إليه } ، فيعطيه عزّ وجلّ ، ولا يعطيه إن سكت وأعرض عن السؤال ، ثمّ ينقله من السؤال باللسان إلى السؤال بالقلب ، فيسأله بقلبه جميع ما يحتاج / { إليه } فيعطيه ، حتّى لو سأله بلسانه لم ٤٥/ب. يعطه ، أو سأل الخلق لم يعطوه .

ثمّ { يغنيه } عنه وعن السؤال جملة ، ظاهراً وباطناً ، فيباده بجميع ما يصلحه ، ويقوّم به أودّه^(١) من المأكول والمشروب والملبوس وجميع مصالح البشر ، من غير أن يكون هو فيها أو يخطر بباله ، فيتولاه عزّ وجلّ ، وهو قوله { عزّ وجلّ } : ﴿ إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [سورة الأعراف ١٩٦/٧] .

فيتحقّق { حينئذٍ } قوله { عزّ وجلّ } : « مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مُسَاءَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ » .

(١) قوّته ، وهي كناية عما يحتاجه في الحياة .

وهي حالة الفناء التي هي غاية أحوال الأولياء والأبدال ، ثم قد يردُّ إليه التَّكوين ، فيكون جميع ما يحتاج إليه بإذن الله عزَّ وجلَّ ، وهو قوله عزَّ وجلَّ في بعض كتبه { المنزلة } (يا بن آدم أنا الله الَّذي لا إله إلا أنا أقولُ للشيء كن فيكون ، أطعني { أجعلك } تقول للشيء كن فيكون) .

صوى على درب الهوى

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : سألني رجل شيخ في المنام فقال لي : أيُّ شيء { يقرب } العبد إلى الله عزَّ وجلَّ ؟
فقلت : لذلك ابتداء وانتهاء .

فابتدأه الورع ، وانتهاه الرضا والتسليم والتوكل .

لوصح منكم الهوى أرشدت للعمل

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : ينبغي للمؤمن أن يشتغل أولاً بالفرائض ، فإذا فرغ { منها } أشغل بالسُّنن ، ثم يشتغل بالتَّوافل والفضائل فما لم يفرغ من الفرائض .

فلاشتغال بالسُّنن حمق ورعونة ، فإنَّ أشغل بالسُّنن والتَّوافل قبل ٤٦ / أ الفرائض / لم يقبل منه وأهين .

فمثله كمثل رجل يدعو الملك إلى خدمته فلا يأتي إليه ويقف في خدمة الأمير الَّذي هو غلام الملك وخادمه وتحت يده وولايته .

عن عليِّ بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم : « إنَّ مصلَّ التَّوافلِ وعَلِيَّه

فَرِيضَةٌ كَمَثَلِ أَمْرَةِ حَمَلَتْ ، فَلَمَّا دَنَا نَفْسُهَا أَسْقَطَتْ ، فَلَا هِيَ ذَاتُ حَمْلٍ وَلَا هِيَ ذَاتُ وَلَدٍ ، كَذَلِكَ الْمُصَلِّي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ لَهُ نَافِلَةً حَتَّى يُؤَدِّي الْفَرِيضَةَ «^(١)» ، [ومثل المصلي كمثل التاجر لا يخلص له ربحه حتى يأخذ رأس ماله] .

وكذلك من ترك السُّنَّةَ واشتغل بالتَّوافل التي لم ترتب مع الفرائض ، ولم يُنصَّ عليها ، ولم يؤكد أمرها .

فمن الفرائض ترك الحرام والشُّرك بالله عزَّ وجلَّ خلقه ، والاعتراض عليه في قَدَرِهِ وقضائه ، وإيجابته الخلق وطاعتهم ، والإعراض عن أمر الله وطاعته ، قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم : « لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ { الْخَالِقِ } »^(٢) .

لا كل للعاشق إلا الشَّهاد!

قال رضيَّ الله { تعالى } عنه وأرضاه : من أختار النَّومَ على السَّهَرِ الَّذِي هو سبب اليقظة فقد أختار الانقاص والأدنى واللُّحوق بالموت والغفلة عن جميع المصالح ، لأنَّ النَّومَ أخو الموت ، ولهذا لا يجوز النَّومَ على الله عزَّ وجلَّ لما أنْتَفَى { عزَّ وجلَّ } عن { التَّقائصِ أَجْمَعِ } ، وكذلك الملائكة لما قربوا منه عزَّ وجلَّ نفى عنهم النَّومَ ، وكذلك أهل

(١) لم أعثر عليه فيما لدي من المصادر .

(٢) أخرجه أحمد في « مسنده » ج ١/ ١٣١ ، عن عليِّ رضيَّ الله عنه . وأخرجه ابن أبي شيبة في « المصنَّف » ج ١٢/ ٥٤٦ ، عن الحسن رضيَّ الله عنه ، وهو حديث صحيح .

٤٦/ ب الجنة لما كانوا في أرفع المواضع / وأطهرها وأنفسها وأكرمها نفى النوم عنهم لكونه نقصاً في حالتهم .

فالخير كلُّ الخير في اليقظة ، والشرُّ كلُّ الشرِّ في النوم والغفلة عن المصالح .

فمن أكل بهواه أكل كثيراً ، { فشرّب كثيراً } ، فنام كثيراً ، { فندم كثيراً طويلاً } ، وفاته خير كثير .

ومن أكل قليلاً من الحرام { كان كمن أكل كثيراً } من المباح بهواه ، لأنَّ الحرام يغطّي الإيمان ويظلمه^(١) - كالخمر يظلم العقل ويغطيه - ، فإذا أظلم الإيمان فلا صلاة ولا عبادة ولا إخلاص .

ومن أكل من الحلال كثيراً بالأمر كان كمن أكل منه قليلاً في النشاط في العبادة والقوّة .

فالحلال نور في نور ، والحرام ظلمة في ظلمة ، لا خير فيه .
فأكلُ الحلال بهواه بغير الأمر ، { وأكلُ } الحرام { في الجملة مستجلبات } للنوم ، فلا خير فيه .

هوى كل نفسٍ حيث حلَّ حبّيب

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : لا يخلوا أمرُك من قسمين :

(١) قال سهل التستري : لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتّى يكون فيه أربع خصال : أداء الفرائض بالسُنّة ، وأكل الحلال بالورع ، واجتناب التّهي من الظّاهر والباطن ، والصّبر على ذلك إلى الموت .

إِمَّا أَنْ تَكُونَ غَائِبًا عَنِ الْقُرْبِ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، { أَوْ } قَرِيبًا مِنْهُ وَاصِلًا إِلَيْهِ .

فَإِنْ كُنْتَ غَائِبًا عَنْهُ فَمَا قَعُودُكَ وَتَوَانِيكَ عَنِ الْحِظِّ الْوَافِرِ ، وَالنَّعِيمِ وَالْعِزِّ الدَّائِمِ ، { وَالْكَفَايَةِ } الْكِبْرَى ، وَالسَّلَامَةِ وَالْغِنَى وَالذَّلَالَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَى ؟

فَقُمْ وَأَسْرِعْ فِي الطَّيْرَانِ إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ { بِحَنَاحَيْنِ } ، أَحَدُهُمَا : تَرَكَ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ الْحَرَامَ مِنْهَا وَالْمَبَاحَ ، وَالرَّاحَاتِ أَجْمَعَ . وَالْآخَرُ : أَحْتِمَالِ الْأَذَى وَالْمَكَارَةِ وَرُكُوبِ الْعَزِيمَةِ وَالْأَشَدِّ ، وَالْخُرُوجِ مِنَ الْخَلْقِ وَالْهَوَى وَالْإِرَادَاتِ وَالْمَنَى / دُنْيَا وَآخِرَى ، حَتَّى تَظْفِرَ بِالْوَصُولِ ٤٧/أ وَالْقُرْبِ .

فَتَجِدُ عِنْدَ ذَلِكَ جَمِيعَ مَا تَتَمَنَّى ، وَتَحْصِلُ لَكَ الْكَرَامَةُ الْعَظْمَى وَالْعِزَّةُ الْكِبْرَى .

وَإِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ الْوَاصِلِينَ إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ ، مِمَّنْ أَدْرَكَتْهُمْ الْعِنَايَةُ ، وَشَمِلَتْهُمْ الرَّعَايَةُ ، وَجَذَبَتْهُمْ الْمَحَبَّةُ ، وَنَالَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَالرَّأْفَةُ ؛ فَأَحْسِنِ الْأَدَبَ ، وَلَا تَغْتَرَّ بِمَا أَنْتَ فِيهِ ، فَتَقْصُرَ فِي الْخِدْمَةِ ، وَلَا تُسَيِّءِ الْأَدَبَ فِي الْخِدْمَةِ ، وَلَا تَخْلُدْ إِلَى الرُّعُونَةِ الْأَصْلِيَّةِ مِنَ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ وَالْعَجَلَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [سُورَةُ الْأَحْزَابِ : ٧٢ / ٣٣] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ .. وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ [سُورَةُ الْإِسْرَاءِ : ١٧ / ١١] .

وَأَحْفَظْ قَلْبَكَ مِنَ الْإِلْتِفَاتِ إِلَى مَا قَدْ تَرَكَتَهُ مِنَ الْخَلْقِ وَالْهَوَى { وَالْإِرَادَاتِ ، وَالتَّجَبُّرِ } وَالتَّدْبِيرِ ، وَتَرَكَ الصَّبْرَ وَالْمُوَافَقَةَ عِنْدَ نَزُولِ الْبَلَاءِ ، وَأَسْتَطِرْحَ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَالْكُرَةِ بَيْنَ يَدَيِ الْفَارَسِ يَقْلِبُهَا

حقَّهما ، لأنَّهما يطالبانه عَزَّ وجلَّ عند سؤال المؤمن بالإجابة ، وقد تحصل الإجابة { ولا } يحصل التَّقد والتَّفاذ لتعويق القدر ، لا على وجه عدم الإجابة والحرمان والصَّد .

فليتأدَّب العبد عند نزول البلاء ، وليفتش عن ذنوبه في ترك الأوامر ٤٨/ب وأرتكاب المناهي ما ظهر منها وما بطن / ، والمنازعة في القدر إذ الغالب عليه ، إنَّما يتبلي { لذلك } مقابلة ، فإنَّ أنكشف البلاء ، وإلَّا فليخلد إلى البكاء والتَّضرُّع والاعتذار ، ويديم السَّؤال لجواز أن يكون أبتلاه ليسأله ولا يتَّهمه لتأخير الإجابة لما بينا .

شكر المولى هو الأولى

{ قال رضي الله { تعالى { عنه وأرضاه : أطلبوا من الله عَزَّ وجلَّ الرِّضا بقضائه والغنى في فعله { ، لأنَّه هو الرِّاحة الكبرى والجنَّة العاجلة المفقودة { في الدُّنيا ، وهو باب الله الأكبر ، { وسبب { محبة الله لعبده المؤمن ، فمن أحبه الله لم يعذِّبه في الدُّنيا ولا في الآخرة ، { وبه { اللُّحوق بالله عَزَّ وجلَّ والوصول إليه والأنس به .

{ فلا { تشتغلوا بطلب الحظوظ ، وأقسام لم تُقسم أو قُسمت ، فإنَّ كانت لم تُقسم فالاشتغال بطلبها حمق ورعونة وجهل ، وهو أشدَّ العقوبات ، كما قيل : من أشدَّ العقوبات طلب ما لم يُقسم .

وإنَّ كانت مقسومة ففي الاشتغال بها شرٌّ وحرص وشرك في باب العبوديَّة والمحبة والحقيقة ، لأنَّ الاشتغال بغير الله عَزَّ وجلَّ شرك ، وطالب الحظَّ ليس بصادق في محبته وولايته فمن اختار { مع محبته { غيره فهو كذاب ، وطالب العوض على عمله غير مخلص ، وإنَّما

المخلص من عبد الله ليعطي الرُّبُوبِيَّةَ حَقَّهَا لعبده للملكِيَّةِ والحَقِيَّةِ ، لأنَّ الحقَّ عَزَّ وَجَلَّ يملكه ويستحقُّ عليه العمل والطَّاعة { له } ، إذ جميعه بحركاته وسكناته وسائر أكسابه والعبد وما مَلَكَ لمولاه .

كيف وقد بيَّنا في غير / موضع أنَّ العبادات بأسرها نعمة من الله عزَّ ٤٩/أ وجلَّ وفضل منه على عبده ، إذ وفَّقه لها وأقدَّره عليها ؟
فاشتغاله بالشُّكر لربِّه { عزَّ وجلَّ } خيرٌ وأولىُّ من طلبه منه الأعواض والجزاء عليها .

ثمَّ كيف يشتغل بطلب الحظوظ وقد يرى خلقاً كثيراً كلَّما كثرت الحظوظ عندهم وتواترت وتتابعَت اللَّذَّات والنِّعم والأقسام إليهم ، زاد تَسَخُّطهم على ربِّهم { عزَّ وجلَّ } وتضجَّروهم ، وكفروهم بالنِّعم ، وكثرة همومهم وغمومهم وفقرهم إلى أقسام لم تُقسم لهم غير ما عندهم ، وحقرت وصغرت وقبحت أقسامهم عندهم ، وعظمت وكبرت وحسنت أقسام غيرهم في قلوبهم وأعينهم ، فشرعوا في طلبها وهي غير مقسومة لهم ، فذهبت أعمارهم وأنحَلَّت قواهم ، وقوى وكبر سُئهم وفنيت أموالهم ، وتعبت أجسادهم ، وعرقت جباههم ، وأسودَّت صحائفهم بكثرة آثامهم ، وأرتكاب عظام الذُّنوب في طلبها ، وترك أوامر ربِّهم ؟

فلم ينالوها ، وخرجوا من الدُّنيا مفاليس لا إلى هاؤلاء ولا إلى هاؤلاء ، { ولم } يشكروا ربَّهم فيما قَسَمَ لهم من أقسامهم ، فاستعانوا على طاعته ، ولا نالوا ما طلبوا من أقسام غيرهم ، بل ضيَّعوا دنياهم وآخرتهم ، فهم أَشَرُّ الخليقة وأجهلهم وأحمقهم وأخسَّهم عقولاً وبصيرةً .

فلو أنَّهم رضوا بالقضاء ، وقنعوا بالعطاء ، وأحسنوا طاعة المولى ،

٤٩ / ب لَأَتَتْهُمْ أَقْسَامُهُمْ مِنَ الدُّنْيَا / من غير تعب ولا عناء ، ثُمَّ نَقَلُوا إِلَى جِوَارِ الْعِلِيِّ الْأَعْلَى ، فوجدوا عنده كلَّ مراد ومنى .

جعلنا الله وإياكم ممَّن رَضِيَ بالقضاء ، وجعل سؤاله ذاك والفناء وحفظ الحال والتَّوفيق لِمَا يَحِبُّهُ ويرضاه .

أَرِحْ إِلَيْهِمْ مَا لَعَيْنَ رَأَتْ وَلَا أُذُنَ سَمِعَتْ

قال رَضِيَ الله { تعالى } عنه وأرضاه : من أراد الآخرة فعليه بالزُّهد في الدُّنيا ، ومن أراد الله { عزَّ وجلَّ } فعليه بالزُّهد في الآخرة ، فيترك دنياه لآخرته وآخرته لرَبِّه .

فما دام في قلبه شهوة من شهوات الدُّنيا ، أو لذة من لذاتها ، أو طلب راحة من راحتها من سائر الأشياء من مأكول أو مشروب وملبوس ومنكوح ومسكون ومركوب ، وولاية ورياسة ، وطبقة في علم من فنون العلم من الفقه فوق العبادات الخمس ، ورواية الحديث ، وقراءة القرآن بروايات ، والتَّحْوِ واللُّغَةِ والفصاحة والبلاغة ، وزوال الفقر ووجود الغنى ، وذهاب البليَّة ومجيء العافية ، وفي الجملة أنكشف الضُّرُّ ومجيء النَّفْع فليس بزاهد حقًّا ؛ لَأَنَّ كُلَّ واحد من هاذِهِ الْأَشْيَاء فيه لَذَّة النَّفْس ، وموافقة الهوى وراحة للطَّبع { وحبُّ } له ، وكلُّ ذاك من الدُّنيا وممَّا يَحِبُّ البقاء فيها ويحصل به السُّكُون والطمأنينة إِلَيْهَا .

فينبغي أَنْ يجاهد الزَّاهد في إخراج جميع ذاك عن القلب ، ويأخذ نفسه بإزالة ذاك وقلعه ، والرِّضَا بالعدم والإفلاس والفقر الدائم ، فلا ٥٠ / أ يبقى من ذاك مقدار مصَّ نواة ، ليخلص زهده / في الدُّنيا .

فإذا تمَّ له ذاك زالت الهموم والأجْزَان من القلب ، والكرب عن الأحشاء ، وجاءت الرِّاحات والطَّيب والأنس بالله عزَّ وجلَّ كما قال النَّبِيُّ

صَلَّى اللهُ { تَعَالَى } عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ : « الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا يُرِيحُ الْقَلْبَ وَالْجَسَدَ » (١) .

فما دام في قلبه شيء من ذلك فالهموم والغموم والخوف والوجل قائم في القلب ، { والخذلان } لازم له ، والحجاب عن الله عزَّ وجلَّ وعن قربهِ متكاثف متراكم ، فلا ينكشف جميع ذلك إلا { بزوال } حبِّ الدُّنْيَا عَلَى الكَمَالِ وقطع العلائق بأسرها .

ثمَّ يزهد في الآخرة ، فلا يطلب الدَّرَجَاتِ والمنازل العاليات والحدور { العين } والولدان والدُّور والقصور والبساتين والمراكب ، والحُلل والحلِّي والمآكل والمشارب وغير ذلك ممَّا أعدَّه اللهُ تَعَالَى لعباده المؤمنين ، فلا يطلب عَلَى عمله جزاءً وأجرًا من الله عزَّ وجلَّ أَلَبَتِ دُنْيَا وَأُخْرَى .

فحينئذٍ يجد الله عزَّ وجلَّ فيوفيه حسابه تفضُّلاً منه ورحمة ، فيقرِّبه ويدنيه ويلطف به ويتعرَّف إليه بأنواع الطافه وبرِّه ، كما هو دأبه عزَّ وجلَّ مع رسله وأنبيائه وأوليائه وخواصِّه وأحبابه وأولي العلم به عزَّ وجلَّ ، فيكون العبد كلَّ يوم في مزيد من أمره { مدَّة } حياته ، ثمَّ ينقل إلى دار الآخرة { إلى } ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر عَلَى قلب بشر ، ممَّا تضيق عنه الأفهام وتقصر عن وصفه العبارات / . ٥٠/ب

اترك نفسك وتعال !

قال رضي الله { تَعَالَى } عنه وأرضاه : تترك الحظوظ ثلاث مرَّات :

(١) أخرجه المنذري في « التَّوْبَةِ وَالتَّوْبَةِ » برقم ٤٦٩٧ ، عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، وأخرجه الطبراني في « الأوسط » . وهو حديث ضعيف .

الأولى : يكون العبد ماراً في غشواه متخبطاً فيه ، منصرفاً بطبعه في جميع أحواله من غير تعبد لربه { عز وجل } ولا متمسكاً { بزمام } من الشرع يرده ، ولا حد من حدود ينتهي إليه من حكمه ، فبينما هو على ذلك ينظر الله إليه نظر عين الرحمة ، فيبعث { الله عز وجل } إليه واعظاً من خلقه ، من عباده الصالحين ، ويشينه بواعظ من نفسه ، { فيتضافر } الواعظان على نفسه وطبعه ، فتعمل الموعظة عملها ، فيتبين عندها عيب ما هي فيه من ركوب مطية الطبع والمخالفات ، فتميل إلى الشرع في جميع تصرفاتها فيصير العبد مسلماً قائماً مع الشرع فانياً عن الطبع ، فيترك حرام الدنيا { وشبهها } ومنن الخلق ، فيأخذ مباح الحق عز وجل وحلال الشرع في مأكله ومشربه وملبسه ومنكحه ومسكنه وجميع أحواله ما لا بد منه ، لتتحفظ البنية { ويقوى } على طاعة الرب عز وجل ، وليستوفي قسمة المقسوم له الذي لا يتجاوزه .

ولا سبيل إلى الخروج من الدنيا قبل تناوله { والتلبس } به وأستيفائه ، فيسير على مطية المباح والحلال بالشرع في جميع أحواله إلى أن تنتهي به هاذم المطية إلى عتبة الولاية والدخول في زمرة المحققين ٥١/ أ الخواص أهل العزيمة يريدون الحق عز وجل ، فيأكل بالأمر ، فحينئذ { يسمع } النداء من قبل الحق عز وجل من باطنه : أترك نفسك وتعال ، أترك الحظوظ والخلق إن أردت الخالق ، وأخلع نعل دنياك وأخرتك ، وتجرّد عن الأكوان والموجودات وما سيوجد والأمني بأسرها ، وتعرّ عن الجميع ، وأفن عن الكل ، وتطيب بالتوحيد ، وأترك الشرك { وصدق } الإرادة ، ثم أدخل وطاً البساط بالأدب مطرقاً ، لا تنظر يميناً إلى الآخرة ولا شمالاً إلى الدنيا ، ولا إلى الخلق ولا [إلى] الحظوظ .

فإذا حلّ في هذا المقام وتحقّق الوصول جاءته الخلع من قبل الحق

عَزَّ وَجَلَّ ، وغشيتَه أنواع المعارف والعلوم وأنواع الفضل ، فيُقال له تلبَّس بالنعَم والفضل ولا تسيء الأدب بالرَّد وترك التَّلبُّس ، لأنَّ في ردِّ نعم الملك أفتتاتاً على الملك وأستخفافاً بالحضرة ، فحينئذٍ يتلبَّس بالفضل والقسم بالله عزَّ وجلَّ من غير أن يكون هو فيه ، ومن قبل كان يتلبَّس بهواه ونفسه ، فكلَّما حلَّ منزلاً تغيَّرت لقمته ، فله أربع حالات في تناول الحظوظ والأقسام :

الأولى بالطبع وهو الحرام . والثانية بالشرع وهو المباح والحلال . والثالثة بالأمر وهي حالة الولاية وترك الهوى . والرابعة بالفضل وهي حالة زوال الإرادة وحصول البدليَّة ، وكونه مراداً قائماً مع القدر الَّذي هو فعل الحقِّ عزَّ وجلَّ ، وهي حالة العلم والاتِّصاف بالصَّلاح ، فلا يسمَّى صالحاً على الحقيقة إلَّا من أوصلَ إلى هذا المقام ، وهو قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [سورة الأعراف ٦/٧] .

فهو العبد الَّذي كُفِّت يده عن جلب مصالحه ومنافعه وعن ردِّ مضاره ومفاسده ، كالطفل الرضيع مع الطَّئر ، والميت الغسيل مع الغاسل ، فتتولَّى يد القدرة تربيته من غير أن يكون له اختيار وتدبير ، فإنَّ عن جميع ذلك لا حالاً ولا مقاماً ولا إرادة ، بل القيام مع القدرة ، تارة ييسط وتارة يقبض ، وتارة يغنى وأخرى يفقر ، ولا يختار ولا يطلب ولا يتمنَّى زوال ذلك وتغييره ، بل الرضا الدائم والموافقة الأبدية ، فهو آخر ما ينتهي إليه أحوال الأولياء والأبدال .

أخرج الهوى من صدرك تحل القيود من رحبتك

وقال رضي الله [تعالى] عنه [وأرضاه] : إذا فني العبد عن

الخلق والهوى والنفس والإرادة والأمني دنيا وأخرى ، ولم يُرد إلا الله عز وجل وخرج الكل عن قلبه ، فوصل إلى الحق عز وجل ، وأصطفاه وأجابه ، [وأحبه] وحبه إلى خلقه ، وجعله نجية وتحت قربه ، وتنعم بفضلته وتقلب في نعمه ، وفتح عليه أبواب رحمته ، ووعدته ألا يغلقها عنه أبداً ، فيختار العبد حينئذ الله باختيار الحق عز وجل ، ويريد بإرادته ، ويدبر بتدبيره عز وجل ، ويشاء بمشيئته عز وجل ، ويرضى برضاه عز وجل ، ويمثل أمره دون غيره ، فلا يرى لغيره عز وجل وجوداً ولا فعلاً .

فحينئذ { يجوز أن يعده } الله عز وجل بوعد ثم لا يظهر للعبد وفاء بذلك ، ولا يبلغه { ما } قد توهمه من ذلك ، لأن الغيرة قد زالت بزوال الهوى والإرادة وطلب الحظوظ ، فصار في نفسه { فعلاً لله } عز وجل وإرادته ومراداً له عز وجل فلا يضاف إليه وعد { وخلف } ، لأن هذه صفة من له هوى وإرادة ، فيصير الوعد حينئذ في حقه مع الله عز وجل كرجل عزم على فعل شيء في نفسه ونواه ثم صرفه إلى غيره ، كالتاسخ والمنسوخ فيما أوحى الله تعالى { إلى } نبينا محمد { المصطفى } صلى الله عليه وآله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلم قوله عز وجل : ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة البقرة ١٠٦/٢] ، لما كان النبي صلى الله عليه وآله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلم منزوع الهوى والإرادة ، وسوى المواضع التي ذكرها الله عز وجل في القرآن من الأسر يوم بدر وغيره وهو مراد الحق عز وجل ومحبوه ؛ لم يتركه على حالة واحدة وعلى شيء واحد ووعد واحد ، بل نقله إلى { القدرة } ، فأطلق عنان القدرة إليه ، فصرفه في

القدرة وقلبه فيها ، ونبّهه بقوله تعالى : ﴿ . . أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [سورة البقرة ٢/١٠٦] .

يعني أنك في بحر القدرة تقلّبك أمواجه تارة كذا وتارة كذا .
فمتمنّى أمر الولي ابتداء أمر النبيّ مابعد الولاية والبدليّة إلا الثبوت .

القضاء غائب والأجل طالب

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : الأحوال قبض كلّها ، لأنّه يؤمر/ الولي بحفظها ، وكلّما يؤمر بحفظه فهو قبض ، والقيام مع ٥١/ب { القدرة } بسط كلّها ، لأنّه ليس هناك شيء يؤمر بحفظه سوى كونه موجوداً في القدر ، فعليه ألاّ ينازع في القدر بل يوافق ولا ينازع في جميع ما يجري عليه ممّا يُحلي ويُمِرُّ ، والأحوال { محدودة } وقد أمر { بحفظ حدودها ، والفعل الذي هو القدر غير { محدود } فيحفظ { هو فيه } .

وعلاوة أنّ العبد دخل في مقام القدر والفعل والبسط أنّه يؤمر بالسؤال في الحظوظ بعد أن أمر بتركها والرّهد فيها ، لأنّه لمّا خلا باطنه من الحظوظ { أجمع } ، ولم يبق فيه غير الرّبّ عزّ وجلّ بوسط فأمر بالسؤال والتّشهي وطلب الأشياء التي هي قسّمه ، ولا بدّ { له } من تناولها والتّوصّل إليه بسؤاله ، لتتحقّق كرامته عند الله عزّ وجلّ ومنزلته ، وأمتنان الحقّ عزّ وجلّ عليه بإجابته إلى ذلك .

فالإطلاق بالسؤال في إعطاء الحظوظ من أكبر علامات البسط بعد القبض ، والإخراج من الأحوال والمقامات والتكليف في حفظ الحدود .
فإن قيل : هاذا يدلّ على زوال التّكليف والقول بالزندقة والخروج

من الإسلام ، ورد قوله عز وجل : ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [سورة الحجر ٩٩/١٥] قيل لا يدلُّ على ذلك ولا يؤدي إليه ، بل الله أكرم ، ووليُّه أعزُّ عليه من أن يدخله في مقام النقص {والقبيح} في شرعه ودينه ، بل يعصمه من جميع {ما ذكرت ٥٢/أ لك} ، ويصرفه / عنه ، أو يحفظه وينبِّهه ويسدِّده لحفظ الحدود ، {فتحصل} العصمة {وتنحفظ} الحدود من غير تكلفٍ منه ومشقة ، وهو عن ذلك في غيبة في القرب من ربِّه عز وجل . قال عز وجل : ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة يوسف ٢٤/١٢] وقال عز وجل : ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [سورة الحجر ٤٢/١٥] وقال عز وجل : ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة الصافات ٤٠/٣٧] .

يا مسكين هو محمول الربِّ عز وجل ومراده ، وهو يربِّيه في حجر قربهِ ولطفهِ ، أتى يصل الشيطان إليه وتتطرق القبائح والمكاره في الشرع نحوه ؟

أبعدت النَّجعة وأعظمت الفرية وقلت قولاً فظيماً تَبّاً لهاذه الهمم الخسيسة الدنيئة والعقول الناقصة البعيدة والآراء الفاسدة {المختلة} ، أعاذنا الله والإخوان من الضلالات المختلفة بقدرته الشاملة وألطفه الكاملة ورحمته الواسعة ، وسترنا بأستاره التامة المانعة الحامية ، وربانا بنعمه السابغة وفضائله الدائمة بمَنِّه وكرمه .

لَا نُورَ إِلَّا مِنْ شَكَاتِهِ !

قال رضي الله {تعالى} عنه وأرضاه : تعام عن الجهات كلها ولا تبصص على شيء منها ، فما دمت تنظر إلى واحدة منها لا يفتح

لك جهة فضل الله عزَّ وجلَّ وقربه ، فسَدَّ الجهات { جميعها }
بتوحيده ، { وأَمَحها بيقينك } ، ثمَّ فنائك ومحوك وعلمك ، فحينئذٍ
٥٢/ ب يفتح في عين قلبك/ { جهة الجهات وهي } جهة فضل الله العظيم ،
فتراها بعيني رأسك إذ ذاك بشعاع نور قلبك وإيمانك ويقينك عليك ،
فيظهر عند ذلك الثَّور من باطنك على ظاهرك كنور الشَّمعة الَّتِي في
البيت المظلم في ليلة ظلماء ، يظهر من كوى البيت ومنافذه فيشرق
ظاهر البيت بنور باطنه ، فتسكن النَّفس والجوارح إلى وعد الله عزَّ
وجلَّ وعطاءه عن عطاء غيره ووعد غيره عزَّ وجلَّ .

فارحم نفسك ولا تظلم { قلبك } ولا { تلقيهما } في ظلمات
جهلك ورعونتك ، فتنظر إلى الجهات وإلى الخلق والحوال والقوَّة
والكسب والأسباب ، فتتكل عليها ، { فتَنسَدُ } عنك الجهات
ولا يفتح لك جهة فضل الله عزَّ وجلَّ عقوبة ومقابلة لشركك بالنَّظر إلى
غيره عزَّ وجلَّ ، فإذا وجدته عزَّ وجلَّ ونظرت إلى فضله ورجوته دون
غيره وتعاميت عمَّا سواه ، قَرَّبك وأدناك ، ورحمك وربَّاك ، وأطعمك
وشهَّاك ، وداواك وعافاك ، وأعطاك وأغناك ، وبصَّرك ووالاك ، ثمَّ
محاك عن الخلق وعن نفسك وأفناك ، فلا ترى بعد ذلك لا ففرك
ولا غناك .

الشُّكر شوارِدِ النِّعمَةِ أو ثِقْ عِقَالٍ

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : لا تخلو حالتك إمَّا أَنْ
تكون بليَّةً أو نعمة ، فإنَّ كانت بليَّةً فتُطالِب فيها بالتَّصَبُّر ، وهو
الأَدْنَى ، والصَّبْر وهو الأعلى منه ، ثمَّ الرِّضا والموافقة ، ثمَّ الفناء

٥٣/أ وهو للأبدال والعارفين ، أهل العلم بالله عز وجل / .

{ فَإِنْ } كانت نعمة فتطالَب فيها بالشُّكر عليها . والشُّكر باللسان والقلب والجوارح .

أما باللسان { فالاعتراف } بالنعمة أنَّها من الله عز وجل ، وترك إضافتها إلى الخلق ، { ولا تضيفها } إلى نفسك وحولك وقوتك { وحركاتك } وكسبك ، ولا إلى غيرك من الذين جرت على أيديهم ، لأنَّك وإياهم أسباب { وآلة } وأداة لها ، قاسمها ومجريها وموجدها والفاعل فيها والمسبَّب لها هو الله عز وجل ، { والقاسم والمجري والموجد هو عز وجل } ، فهو أحقُّ بالشُّكر من غيره .

{ لا تنظر } إلى الغلام الحَمال للهدية ، إنَّما النَّظر إلى الأستاذ المنفَذ المنعم بها .

قال الله تعالى في حقِّ من عُدِمَ هذا النَّظر : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [سورة الرُّوم ٣٠ / ٧] .

فمن نظر إلى الظَّاهر والسَّبب ولم يجاوزهما علمه ومعرفته فهو الجاهل الناقص قاصر العقل ، إنَّما سَمِّيَ العاقل عاقلًا لنظره في العواقب .

وأما الشُّكر بالقلب ، فبالاعتقاد الدَّائم ، والعقد الوثيق الشَّدِيد { المنبرم } .

إنَّ جميع ما بك من { النِّعم } والمنافع واللَّذات في الظَّاهر والباطن في حركاتك وسكناتك من الله عز وجل لا من غيره ، ويكون { شكرك } بلسانك معبراً عمَّا في قلبك . وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ [سورة النَّحل ١٦ / ٥٣] وقال

تعالى : ﴿ .. وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [سورة لقمان
 ٢٠/٣١] ، / وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ٥٣/ب
 [سورة النحل ١٦/١٨] .

فمع هذا لا يبقى { للمؤمن من } منعم سوى الله عز وجل .
 وأما الشكر بالجوارح فبأن تحركها وتستعملها في طاعة الله عز وجل دون غيره من الخلق ، فلا تجيب أحداً من الخلق فيما فيه إغراض عن الله عز وجل ، وهذا يعم النفس والهوى والإرادة والأمانى وسائر الخليفة ، تجعل طاعة الله عز وجل أصلاً ومتبوعاً وإماماً ، وما سواها فرعاً وتابعاً { ومأموماً } ، فإن فعلت غير ذلك كنت جائراً ظالماً حاكماً بغير حكم الله عز وجل الموضوع لعباده المؤمنين ، وسالكاً غير سبيل الصالحين . قال الله عز وجل : ﴿ .. وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [سورة المائدة ٤٤/٥] ، وفي آية { أخرى } : ﴿ .. وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [سورة المائدة ٤٥/٥] ، وفي أخرى : ﴿ .. وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [سورة المائدة ٤٧/٥] .

فيكون أنتهاؤك إلى النار التي وقودها الناس والحجارة ، وأنت لا تصبر على حمى ساعة في الدنيا وأقل شظية وشرارة من النار فيها ، فكيف تصبر على الخلود في الهاوية مع أهلها .
 النجاة النجاة ، الوحا الوحا ، الله الله .

أحفظ الحاليتين وشروطهما ، فإنك لا تخلو في جميع عمرك من أحديهما ؛ إما البلية ، وإما النعمة .

فَأَعْطِي كُلَّ حَالَةٍ حَظَّهَا وَحَقَّهَا مِنَ الصَّبْرِ وَالشُّكْرِ عَلَى مَا بَيَّنْتَ
لَكَ .

فلا تشكونَ في حالةِ البليَّةِ إلى أحدٍ من خلقِ الله { تعالى } ،
٥٤/أولا تظهرون الضَّجَرَ لأحدٍ ، ولا تَتَّهَمَنَّ رَبَّكَ / { عزَّ وجلَّ } في
باطنك .

ولا تَشْكَنَّ في حكمته ، { وأخياره } الأصلح لك في دنياك
وآخرتك ، فلا تذهبن بهمَّتِك إلى أحدٍ من خلقه في معافاتك ، فذلك
إشراك منك به عزَّ وجلَّ ، لا يملك معه عزَّ وجلَّ في ملكه أحدٌ شيئاً ،
لا ضار ولا نافع ، ولا رافع ولا جالب ، { ولا مسقم } ولا مبلي
ولا معافي ، ولا مبرئ غيره عزَّ وجلَّ .

فلا تشتغلنَّ بالخلق في الظَّاهر ولا في الباطن ، فإنَّهم لن يُغنوا
عنك من الله شيئاً ، بل ألزم الصَّبْر والرِّضا والموافقة والفناء في فعله
عزَّ وجلَّ ، فإنَّ حُرِمْتَ ذلك كلَّه فعليك بالاستغاثة إليه عزَّ وجلَّ ،
والتَّضرُّع والاعتراف بالذنوب والتَّظلم من شؤم النَّفس { ومن } نزاهة
الحقِّ عزَّ وجلَّ ، والاعتراف له بالتَّوحيد { والنَّعم } ، والتَّبرِّي من
الشُّرك ، وطلب الصَّبْر والرِّضا والموافقة إلى حين يبلغ الكتاب أجله .
فتزول البليَّة وتنكشف الكربة ، وتأتي النِّعمة والسَّعة والفرحة
والشُّرور - كما كان في حقِّ نبي الله أيُّوب عليه السَّلام - كما يذهب
سواد اللَّيل { المظلم } ويأتي بياض النَّهار ، ويذهب برد الشِّتاء ويأتي
نسيم الصَّيف وطيبه ، { لأنَّه لكلِّ شيءٍ } ضدّاً وخلافاً وغايةً ومراداً
ومنتهى .

فالصَّبْر مفتاحه وأبتدأؤه وأنتهاؤه وجماله . كما جاء في الخبر :

« الصَّبْرُ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ »^(١) . وفي لفظ { آخر } :
« الصَّبْرُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ »^(٢) .

وقد يكون / الشُّكر هو التَّلَبُّس بالنَّعم ، وهي { أقسامك } ٥٤/ب
المقسومة لك ، فشكرك التَّلَبُّس بها في حال فنائك وزوال الهوى
والحمية والحفظ ، وهاذه حالة { الأبدال } وهي المنتهى .
{ أعتبر } ما ذكرت لك ترشد إن شاء الله تعالى .

مواقع أقدار الله خير لك من آمالك

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : البداية هي الخروج من
المعهود إلى المشروع ثم { إلى } المقدور ، ثم الرجوع إلى المعهود
بشرط حفظ الحدود ، فتخرج من معهودك من المأكول والمشروب
والملبوس والمنكوح والمسكون بالطَّبع والعادة إلى أمر الشرع ونهيه ،
فتتبع كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله
وأصحابه وسلَّم ، كما قال الله تعالى : ﴿ . . وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ
وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [سورة الحشر ٥٩/٧] ، وقال تعالى :
﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ . . ﴾ [سورة آل عمران
٣١/٣] .

فتفنى عن هواك ونفسك ورعونتها في ظاهرك وباطنك ، فلا يكون

(١) تقدّم تخريجه ، ص ١٠٩ وهو حديث ضعيف .

(٢) لم أجده بهذا اللفظ فيما لدي من المصادر . أخرج القُضاعي في « الشَّهاب » برقم
١٥٨ ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الصَّبْرُ
نِصْفُ الْإِيمَانِ وَالْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ » . وهو حديث موقوف على ابن مسعود .

في باطنك غير توحيد الله { تعالى } ، وفي ظاهرك غير طاعة الله وعبادته ممّا أمر ونهى ، فيكون هاذا دأبك وشعارك ودثارك في حركتك وسكونك ، في ليلك ونهارك ، وسفرك وحضرك ، وشدّتك ورخائك ، وصحّتك وسقمك ، وأحوالك كلّها .

ثمّ تُحمل إلى وادي القدر { فيتصرّف } فيك القدر ، فتفنى عن ٥٥/أ جدّك وأجتهادك وحولك وقوّتك ، فتساق إليك / الأقسام الّتي جفّ بها القلم وسبق بها العلم ، فتلبّس بها وتعطى منها الحفظ والسّلامة ، فتحفظ فيها الحدود ، وتحصل فيها الموافقة لفعل المولى ، { ولا تنخرق } قاعدة الشرع إلى الرّندقة وإباحة المحرّم . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ الذَّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [سورة الحجر ٩/١٥] ، وقال عزّ وجلّ : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف ٢٤/١٢] .

{ فيستصحب } الحفظ والحمية إلى حين اللقاء برحمة الله عزّ وجلّ ، وإثمًا هي أقسامك معدّة لك ، { حبست } عنك في حال سيرك في طريقك وسلوكك فيافي الطّبع ومفاوز الهوى والمعهود ، لأنّها أثقال وأحمال { فأزّيحت } عنك . لئلا يثقلك فتضعفك وتثبطك عن مقعدك ومطلوبك إلى حين الوصول إلى عتبة الفناء ، وهو الوصول إلى قرب الحقّ عزّ وجلّ والمعرفة به عزّ وجلّ ، والاختصاص بالأسرار والعلوم اللدنيّة ، والدّخول في بحار الأنوار ، حيث لا تضرّ ظلمة الطّبائع الأنوار .

فالطّبع باقٍ إلى أن تفارق الرّوح الجسد لاستيفاء الأقسام ، إذ لو زال الطّبع من الآدمي لالتحق بالملائكة وأنخرم النّظام وبطلت الحكمة ، فبقي الطّبع فيك ليستوفي به الأقسام والحظوظ ، فيكون

ذلك وظائفاً لا أصلياً ، كما قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ { تعالى } عليه وعلى/ آله وأصحابه وسلّم : « حُبَّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ : الطَّيِّبُ ، ٥٥/ب والنِّسَاءُ ، وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ »^(١) .

فلَمَّا فَنَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم عن الدُّنْيَا وما فيها ، رُدَّتْ إِلَيْهِ صَلَّى اللهُ { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم أقسامه المحبوسة عنه في حال مسيره إلى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فاستوفاهما موافقة لربِّه عَزَّ وَجَلَّ ورضى بفعله { عَزَّ وَجَلَّ } وممثلاً لأمره ، تقدّست أسماؤه وعمّت { رحمته } ، وشمل فضله لأوليائه وأنبيائه .

فهاكذا الولي في هذا الباب تَرَدُّ إِلَيْهِ أقسامه وحظوظه بعد الفناء مع حفظ الحدود ، فهو الرُّجُوع من النِّهَايَةِ إلى البَدَايَةِ .

لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى فَأَحْذَرِ حِمَى الرَّحْمَنِ

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : كلُّ مؤمن مكلف بالتوقُّف { والتَّقَتُّيش } عند حضور الأقسام ، عن التَّنَاول والأخذ ، حتّى يشهد له الحكم بالإباحة ، والعلم بالقسم ، { قال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ تعالى عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم } : « المؤمن فتّاش ، والمنافق لقّاف ، وَالْمُؤْمِنُ وَقَافٌ »^(٢) ، وقال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ تعالى عليه وعلى آله

(١) تقدّم تخريجه ، ص ٥٧ وهو حديث حسن صحيح . ٥٦

(٢) لم أجد بهَذَا اللَّفْظ . أخرج الديلمي في « الفردوس » برقم ٦٥٤٤ ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمنُ كَيْسٌ فَطِنٌ حَذِرٌ وَقَافٌ مُبْتَلًى لَا يَعْجَلُ ، عَالِمٌ وَرِعٌ ، وَالْمُنَافِقُ هَمَزَةٌ لَمْزَةٌ حَطْمَةٌ لَا يَقِفُ عِنْدَ شُبْهَةٍ وَلَا عِنْدَ حَرَامٍ ، =

وأصحابه وسلّم : « دَعْ مَا يُرِيكَ إِلَى مَا لَا يُرِيكَ » (١) .

فالمؤمن يقف عند كلِّ قسم { من } مأكول ومشروب وملبوس ومنكوح وسائر الأشياء التي تفتح له ، فلا يأخذ حتّى يحكم { له } بجواز الأخذ والتناول { والحكم } إذا كان في حالة التّقوى ، أو حتّى يحكم { له } بذلك الأمر إذا كان في حالة الولاية ، أو حتّى يحكم له ٥٦/أ العلم إذ كان في / حالة البدليّة والغوثيّة ، أو الفعل الذي هو القدر المحض وهو حالة الفناء .

ثمّ تأتيه حالة أخرى يتناول { كلّما } يأتيه ويفتح له على الإطلاق ، ما لم يعترض عليه الحكم أو الأمر أو العلم ، فإذا أعترض أحد هاذة الأشياء أمتنع من التناول وتركه ، فهي ضدّ الأولى .

ففي الأولى الغالب عليه التّوقّف والتّثبت ، وفي الثانية الغالب عليه التناول والأخذ والتلبّس بالمفتوح ، ثمّ تأتي الحالة الثالثة ؛ فالتناول المحض والتلبّس بما يفتح من النعم من غير أعتراض أحد الأشياء الثلاثة ، وهي حقيقة الفناء . فيكون المؤمن فيها محفوظاً من الآفات ، وخرق حدود الشرع ، مصاناً مصروفاً عنه الأسواء . كما قال الله تعالى : ﴿ . . كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [سورة يوسف ١٢ / ٢٤] .

فيصير العبد مع الحفظ من خرق الحدود كالمفوّض إليه ،

= كحاطب اللّيل لا يبالى من أين كَسَبَ وفيما أنفق . وهو حديث ضعيف .
والمؤمن وقاف مثبت عالم ورع إذا ذكر تذكّر وإذا علم تعلّم ، والمنافق همزة لمزة حطمة لا يقف عند شبهة ولا يرعوي عن محرّم ، كحاطب اللّيل لا يبالى من أين كَسَبَ وفيما أنفق .

(١) تقدّم تخريجه ، ص ٨٨ . وهو حديث صحيح .

المأذون له ، والمطلق له في { الإباحات } ، الميسر له الخير .

فجميع ما يأتيه قسمه { المصطفى } له من الآفات والكدورات والتبعات في الدنيا والآخرة ، والموافق لإرادة الحق عز وجل ورضاه وفعله ، ولا حالة فوقها وهي الغاية ، وهي لسادة الأولياء الكبار الخالص أصحاب الأسرار ، الذين أشرفوا على عتبة أحوال الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .

وهل بعد الحبيب مطلب ؟

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : ما أكثر ما تقول قَرُبَ فلان بعزّة/ وبُعِدْتُ ، وأُعطيَ فلان وحُرِّمْتُ ، وأُغنيَ فلان وأُفقرْتُ ، ٥٦/ب وعُوفي فلان وأُسقيمتُ ، وعُظِّمَ فلان وحقِّرتُ ، وحُمِدَ فلان وذُمَّتُ ، { وصوبَ فلان وصُدِّقَ } وكذِّبت .

أما تعلم أنّه الواحد ، وأنّ الواحد يحبُّ الوجدانيّة في المحبّة ، ويحبُّ الواحد في محبّته ؟

إذا قرّبتك بطريق غيره نقصت محبّتك له عز وجلّ وتشعّبت ، فربّما داخلك الميل إلى من ظهرت المواصلة والتّعمة على يديه ، فتنقص محبّة الله في قلبك ، وهو عز وجلّ غيور لا يحبُّ شريكاً ، فكفّ أيدي الغير عنك بالمواصلة ، ولسانه عن حمدك وثنائك ، ورجليه عن السّعي إليك كيلا يشتغل به عنه عز وجلّ ، أما سمعت قول النّبيّ صلى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم :

« جُبِلَتْ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا ، وَبُغِضَ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهَا »^(١) .

فهو عز وجل يكفُ الخلق عن الإحسان إليك من كل وجه وسبب ، حتّى { توَحَّده وتعبَّه } ، وتصير له من كل وجه بظاهرك وباطنك ، { في } حركاتك وسكناتك ، فلا ترى الخير إلّا منه ، ولا الشرّ إلّا منه عز وجل . وتنفى عن الخلق عن النَّفس والهوى والإرادات والمُنَى ، وعن جميع ما سوى المولى . ثمَّ يطلق الأيدي إليك باليسط والبذل والعطاء ، والألسن بالحمد والثناء ، { فيدُلُّك } أبداً في الدُّنيا ثمَّ في العقبى .

فلا تُسيء الأدب ، أنظر إلى من ينظر/ إليك ، وأقبل على من ٥٧/أ { هو مقبل } عليك ، { وأحب } من يحبُّك ، وأسْتجب من يدعوك { إليه } ، وأعط يدك من { ينشلك من سقطتك } ، ويخرجك من ظلمات جهلك ، وينجيك من هلكتك ، ويغسلك من أنجاسك ، وينظّفك من أوساخك ، ويخلّصك من جيفتك ونتنك ، ومن هممك الرَّدِيَّة ، ونفسك الأمّارة بالسوء ، وأقرانك الضُّلال المضلّين شيطانك وهواك ، وأخلائك الجهّال قطاع طريق الحقّ عز وجلّ ، الحائلين بينك وبين كلّ نفيس وثمين وعزيز .

إلى متى العادة ، إلى متى الخلف ، إلى متى الهوى ، إلى متى الرُّعونة ، إلى متى الدُّنيا ، إلى متى الآخرة ، إلى متى ما سوى المولى ؟

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية » ج ٤/ ١٢١ ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً . وأخرجه الخطيب البغدادي في « تاريخه » ج ٧/ ٣٤٦ ، أيضاً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه . وهو حديث موضوع .

أين أنت من خالق الأشياء ، المكوّن { للأكوان } ، والأوّل
والآخر ، والظاهر والباطن ، المرجع والمصدر إليه ، وله القلوب
وطمأنينة الأرواح ، { ومحطُّ } الأثقال ، والعطاء بلا { أمتنان } .

من شِعَبِ المعرفة

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : رأيت في المنام كأني
أقول يا مشركاً برّبّه { عزَّ وجلَّ } في باطنه بنفسه ، وفي ظاهره
بخلقه ، وفي عمله بإرادته ، فقال رجل إلى { جانبي } : ما هذا
الكلام ؟ فقلت : هذا نوع من المعرفة .

أمت نفسك حتى تحيا !

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : ضاق بي الأمر يوماً ،
فتحرّكت النفس تحت حملها وطلبت الراحة والمخرج والفرج .
فقلت لي : ماذا تريد ؟ فقلت : أريد موتاً لا حياة فيه ، وحياة
لا موت فيها ؟

فقلت لي : ما الموت / الذي لا حياة فيه ، وما الحياة { التي } ٥٧/ب
لا موت فيها ؟

قلت : الموت الذي لا حياة فيه ، موتي عن جنسي من الخلق ، فلا
أراهم في الضّرّ والتّفec ، وموتي عن نفسي وهوائي وإرادتي ومُنائي في
دنياي وأخراي ، فلا أحيّا في جميع ذلك { ولا أوجد } .

وأما الحياة التي لا موت فيها ، فحياتي بفعل ربّي عزَّ وجلَّ بلا

وجودي فيه ، والموت في ذلك وجودي معه عزَّ وجلَّ ، وكانت هذه
الإرادة { أنفس إرادة } أردتها منذ عقلت .

آية المحبِّ الرضى !

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : ما هذا التَّسْحُطُ على ربِّك عزَّ
وجلَّ لأجل تأخير إجابة الدُّعاء ؟

تقول : حرَّم عليَّ السَّؤال للخلق وأوجب عليَّ السَّؤال له عزَّ وجلَّ ،
وأنا أدعوه وهو لا يجيبني ، فيقال لك : أحرَّأنت أم عبدٌ ، فإن قلت : أنا
حرٌّ ، فأنت كافر ، وإن قلت : أنا عبد ، فيقال لك : أمَّتْهُمْ أنت لمولاك
عزَّ وجلَّ في تأخير إجابة دعائك ، وشاكُّ في حكمته ورحمته بك وبجميع
خلقه ، وعلمه بأحوالهم ، أم غير متَّهم له عزَّ وجلَّ ؟ .

فإن كنتَ غير متَّهم له عزَّ وجلَّ ومقرُّ بحكمته وإرادته ومصلحته لك
في تأخير ذلك ، فعليك بالشُّكر له عزَّ وجلَّ ، لأنَّه اختار لك الأصلح
والنَّعمة ، ودفع الفساد عنك .

وإن كنتَ متَّهماً له في ذلك فأنت كافر بتهمتك له ، لأنَّك بذلك
٥٨/أ ناسبَ له إلى الظُّلم / ، وهو عزَّ وجلَّ ليس بظلام للعبيد ، ولا يقبل
الظُّلم ، ويستحيل عليه أن يظلم ، إذ هو مالِكُك ومالِكُ كلِّ شيء ،
والمالِك له التَّصرُّف في مُلكه كيف يشاء ، فلا يطلقُ عليه اسم الظُّلم ،
وإنَّما الظَّالم من يتصرَّف في مُلكٍ غيره بغير إذنه .

فاسدُّ عليك سبيل التَّسْحُط عليه عزَّ وجلَّ في فعله فيك ، بما يخالف
طبعك وشهوة نفسك ، وإن كان في الظاهر مفسدة لك .

فعليك بالشُّكر والصَّبْر والموافقة والرضا ، وترك التَّسْحُط والتهمة

والقيام مع رعونة النَّفس وهواها { الذي } يضلّ عن سبيل الله .

وعليك بدوام الدُّعاء وصدق الالتجاء ، وحسن الظَّنَّ برَّبِّكَ عزَّ وجلَّ ، وانتظار الفرج منه ، والتَّصديق بوعده ، والحياء منه ، والموافقة لأمره ، وحفظ توحيده ، والمصارعة إلى أداء أوامره ، والتَّقاعد عن ارتكاب نهيه ، والتَّماوت عند نزول قدره بك وفعله فيك .

وإنَّ كان لا بدَّ أن تتَّهم وتسيء الظَّنَّ ؛ فنفسك الأمارة بالسَّوء العاصية لرَبِّها عزَّ وجلَّ أولى بهما ، ونسبتك الظُّلم إليها { أخرى } من مولاك .

فاحذر موافقتها وموالاتها ، والرِّضا بفعلها وقولها في الأحوال كلّها ، لأنَّها عدوة الله عزَّ وجلَّ وعدوتك ، وموالية لعدوِّ الله وعدوك الشَّيطان الرَّجيم ، هي خليفته وجاسوسته ومصافيته .

الله الله ثمَّ الله ، الحذر/ الحذر ، النِّجاة النِّجاة . ٥٨/ب

اتَّهمها أبداً ، وأنسب الظُّلم إليها ، وأقرأ عليها قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ مَا يُفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [سورة النساء ١٤٧/٤] ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ ذَالِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ﴾ { وأنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ } [سورة الحج ١٠/٢٢] ، وقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَا يَكُنَّ النَّاسُ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [سورة يونس ٤٤/١٠] ، وغيرها من الآيات والأخبار .

كُنْ خصماً لله عزَّ وجلَّ على نفسك ، ومجادلاً لها عنه عزَّ وجلَّ ، ومحارباً وسيافاً { لرَبِّكَ عزَّ وجلَّ } ، وصاحب جنده وعسكره ، فإنَّها أعدى عدوِّ الله عزَّ وجلَّ^(١) . قال الله عزَّ وجلَّ : (يا داود اهجر هواك ، فإنَّه لا منازع ينازعني في ملكي غير الهوى) .

(١) ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما : أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك .

تنزل الطير حيث ينثر الحب

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : لا تَقُلْ لا أدعو الله عزَّ وجلَّ .

فإن كان ما أسأله مقسوم فسيأتيني إن سألته أو لم أسأله ، وإن كان غير مقسوم فلا يعطيني بسؤالي .

بل أسأله عزَّ وجلَّ جميع ما تريد وتحتاج إليه من خير الدنيا والآخرة ، ما لم يكن فيه محرَّم ومفسدة ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ أمر بالسؤال له وحثَّ عليه ، وقال { عزَّ وجلَّ } : ﴿ .. أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ .. ﴾ [سورة غافر : ٦٠ / ٤٠] ، وقال { الله تعالى } : ﴿ .. وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ .. ﴾ [سورة النساء ٣٢ / ٤] .

وقال النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم : « أسألوا الله وَأَنْتُمْ مَوْقِفُونَ بِالْإِجَابَةِ »^(١) .

وقال : « أسألوا الله بِبُطُونِ أَكْفُكُمْ »^(٢) . وغير ذلك من الأخبار .

(١) قطعة من حديث . أخرجه أحمد في « مسنده » ج ٢ / ١٧٧ ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . وأخرجه الترمذي في « الجامع الصحيح » برقم ٣٤٧٩ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه . وتمتته : « .. وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٌ غَافِلٌ لَاهٍ » وهو حديث حسن صحيح .

(٢) قطعة من حديث . أخرجه أبو داود في « سننه » برقم ١٤٨٥ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لَا تَسْتَرْ الْجُدْرَ ، مَنْ نَظَرَ فِي كِتَابِ أَخِيهِ بِغَيْرِ إِذْنِهِ فَإِنَّمَا يَنْظُرُ فِي النَّارِ ، سَلُوا اللَّهَ بِبُطُونِ أَكْفُكُمْ وَلَا تَسْأَلُوهُ بِظُهُورِهَا ، فَإِذَا فَرَّغْتُمْ فَامْسَحُوا بِهَا وُجُوهَكُمْ » . وهو حديث ضعيف .

ولا تقل إني أسأله فلا يعطيني فإذن لا أسأله ، بل دُم { على } دعائه عز وجل .

فإن كان ذلك مقسوماً ساقه إليك بعد أن تسأله / ، فيزيدك ذلك ٥٩/ أ
إيماناً و يقيناً وتوحيداً ، وترك سؤال الخلق والرجوع إليه عز وجل في
جميع أحوالك وإنزال حوائجك به عز وجل .

وإن لم يكن مقسوماً لك أعطاك الغنى عنه في الباطن ، والرضا عنه
عز وجل بالفقر ، فإن كان فقراً أو مرضاً أرضاك بهما ، وإن كان ديناً قلب
تلب صاحب الدين من سوء المطالبة إلى الرفق بك والتأخير والتسهيل إلى
حين ميسورك ، أو إسقاطه عنك أو نقصه ، فإن لم يسقط عنك ولم يترك
منه في الدنيا ، أعطاك عز وجل في الآخرة ثواباً جزيلاً بدل ما لم
{ يعطك } سؤلك في الدنيا ، لأنه كريم غني رحيم ، فلا يخيب سائله في
الدنيا والآخرة .

فلا بد من فائدة ونائلة إما عاجلاً وإما آجلاً .

وقد جاء في الحديث : « إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى فِي صَحِيفَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
حَسَنَاتٍ لَمْ يَعْمَلْهَا ، وَلَمْ يَدْرِ بِهَا ، فَيُقَالُ لَهُ : أَتَعْرِفُهَا ؟ فَيَقُولُ :
مَا أَعْرِفُهَا ، مِنْ أَيْنَ لِي هَذِهِ ؟ فَيُقَالُ لَهُ : إِنَّهَا بَدَلُ مَسْأَلَتِكَ الَّتِي سَأَلْتَهَا فِي
دَارِ الدُّنْيَا » (١) .

وذلك أنه { بسؤال الله } عز وجل يكون ذاكرًا له وموحدًا ، وواضعًا
الشيء في موضعه ، ومعطي الحق أهله ، ومتبرئًا من حوله وقوته ،
وتاركًا { التكبر } والتعظم والأنفة ، وجميع ذلك أعمال صالحة لها
ثواب عند الله عز وجل .

(١) لم أعر عليه فيما لدي من المصادر .

افطم نفسك قبل أن تفترسك

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : كلما جاهدت النفس وغلبتها ٥٩/ب وقتلتها بسيف المخالفة أحيها / الله عز وجل ، ونازعتك وطلبت منك الشهوات واللذات ، الجناح منها والمباح ، لتعود إلى المجاهدة والمسابقة ليكتب لك ثواباً دائماً ، وهو معنى قوله صلى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلم : « رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ » (١) .

أراد به صلى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلم مجاهدة النفس لدوامها واستمرارها على اللذات وأنهماكها في المعاصي ، وهو معنى قول الله عز وجل : ﴿ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [سورة الحجر ٩٩/١٥] .

أمر الله عز وجل لنبيه { محمد } صلى الله { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلم بالعبادة ، وهي مخالفة النفس ، لأن العبادات كلها تأبأها النفس وتريد ضدها ، إلى أن يأتيه اليقين - يعني : الموت - .

{ فإن قال قائل } : كيف تأبى نفس رسول الله صلى الله { تعالى } عليه

(١) أخرج البيهقي في « الزهد » برقم ٣٧٣ ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قدم على رسول الله ﷺ قوم غزاة ، فقال ﷺ : « قدمتم خير مقدم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر » ، قيل : وما الجهاد الأكبر ؟ قال : « مجاهدة العبد هواه » . وهو ضعيف الإسناد مخالف تماماً لقول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه قال : « ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده ، وذروة سنامه ؟ » قلت : بلى يا رسول الله ، قال : « رأس الأمر الإسلام ، وعموده الصلاة ، وذروة سنامه الجهاد » . وهذا حديث حسن صحيح .

عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم العبادة وهو عليه الصّلاة والسّلام لا هوئى له ؟ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [سورة النّجم : ٥٣ / ٤٠٣] .

{ فنقول } : إنّهُ عزّ وجلّ خاطب نبيّه بهاذي الخطاب ليتقرّر به الشّرع ، فيكون عامّاً بين أُمّته إلى أن تقوم السّاعة ، ثمّ هو عزّ وجلّ أعطى نبيّه القوّة على النّفس والهوى ، كيلا يضرّاه ويحوجاه إلى المجاهدة والمحاربة ، بخلاف أُمّته .

فإذا دام المؤمن على هاذي المجاهدة إلى أن يأتيه الموت ويلحق برّبّه عزّ وجلّ بسيف مسلول متلطّخ بدم النّفس والهوى / ، أعطاه الله { عزّ ٦٠ / أ وجلّ } ما ضمن له من الجنّة ، بقوله عزّ وجلّ : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾ [سورة النّازعات : ٧٩ / ٤٠ - ٤١] .

فإذا أدخله الجنّة وجعلها داره ومقرّه ومصيره ، { وأمن } من التّحويل عنها والنّقلة إلى غيرها والعود إلى دار الدّنيا ، جدّد له كلّ يوم وكلّ ساعة من أنواع النّعيم ، وتغيّر عليه أنواع الحلل والحلي { إلى } ما لا نهاية له ولا غاية ولا نفاذ ، كما جدّد هو في الدّنيا كلّ يوم وكلّ ساعة ولحظة مجاهدة النّفس والهوى .

وأما الكافر والمنافق والعاصي لَمّا تركوا مجاهدة النّفس والهوى في الدّنيا وتابعوهما ، ووافقوا الشّيطان فانمزجوا في أنواع المعاصي من الكفر والشّرك وما دونهما ، حتّى أتاهم الموت من غير الإسلام والتّوبة ، أدخلهم الله عزّ وجلّ النّار الّتي أعدّها للكافرين في قوله عزّ وجلّ : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران ٣ / ١٣١] ، فإذا أدخلهم فيها وجعلها مقرّهم ومصيرهم وأُمّهم ، فأحرقت جلودهم

ولحومهم ، جَدَّدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ جُلُوداً وَلَحُوماً غَيْرَهَا ، كما قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ . . كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا . . ﴾ [سورة النساء : ٥٦ / ٤] ، يفعلُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِمُ اللهُ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ وافقُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا فِي مَعَاصِيهِ عَزَّ وَجَلَّ .

فأهل النار يجدد لهم كل وقت جلوداً ولحوماً لإيصال العذاب والآلام / ٦٠ ب إليهم ، وأهل الجنة يجدد / لهم كل وقت النعيم { لتضاعف } الشهوات واللذات لديهم .

وسبب ذلك مجاهدة النفس وترك موافقتها في دار الدنيا ، وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلم : « الدنيا مزرعة الآخرة »^(١) .

ما أحكم من يسوق المقادير إلى المواقيت !

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : إذا أجاب الله عبده ما سأل ، وأعطاه ما طلبه ، لم تنخرم بذلك إرادته ، ولا ما جفَّ به القلم وسبق به العلم ، لا كتبه يوافق سؤاله مراد ربه عَزَّ وَجَلَّ في وقته ، فتحصل الإجابة وقضاء الحاجة في الوقت المقدَّر الذي قدَّر في السابقة لبلوغ القدر وقته ، كما قال أهل العلم في قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ . . كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [سورة الرَّحْمَان ٢٩ / ٥٥] ، أي يسوق المقادير إلى المواقيت ، فلا يعطي الله { عَزَّ وَجَلَّ } أحداً شيئاً في الدنيا بمجرد دعائه ، وكذلك لا يصرف عنه السوء { بمجرد دعائه } .

(١) قال القاري في « الأسرار المرفوعة » برقم ٢٠٥ : لم أقف عليه مع إيراد الغزالي له في « الإحياء » . قلت : لا أصل له ، إنما يروى من كلام عيسى عليه الصلاة والسلام .

والَّذِي ورد في الحديث { عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ } : « لَا يَرُدُّ الْقَضَاءُ إِلَّا الدُّعَاءُ » (١) .

قيل المراد به لا يردُّ القضاء إلا الدعاء الَّذِي قضِيَ أَنْ يردَّ القضاء به ، وكذلك لا يدخل أحد الجنة في الآخرة { بعمله } ، بل برحمة الله عزَّ وجلَّ ، لا كَنَّهُ { عزَّ وجلَّ } يُعطي العباد الدَّرجات في الجنة على قدر أعمالهم .

وقد ورد في حديث عائشة رضي الله { تعالى } عنها : أَنَّهَا سَأَلَتِ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ { تعالى } عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ : هل يدخل أحد الجنة بعمله ؟ فقال : « لا / بل برحمة الله { تعالى } » ، فقالت : ٦١/أ ولا أنت ؟ فقال : « وَلَا أَنَا إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى هامَتِهِ » (٢) .

وذلك لأنَّ الله عزَّ وجلَّ لا يجب لأحدٍ عليه حقٌّ ، ولا يلزمه الوفاء بالعهد ، بل يفعل ما يريد ، يعذب من يشاء ، { ويغفر لمن يشاء } ، ويرحم من يشاء ، وينعم من يشاء ، فعَالٍ لما يريد ، لا يُسألُ عما يفعل وهم يُسألون ، يرزق من يشاء بغير حساب ، بفضل رحمته ومِنَّتِهِ ، ويمنع من يشاء بعدله .

وكيف لا يكون { ذلك } كذلك والخلق من لدن العرش إلى الثرى التي هي الأرض السابعة السفلى ملكه وصنعه ، لا مالِكٌ لهم غيره ولا صانع لهم سواه .

(١) قطعة من حديث . أخرجه الترمذِيُّ في « الجامع الصَّحيح » برقم ٢١٣٩ ، عن سلمان رضي الله عنه . وتَمَّتْهُ : « . . وَلَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبُرُّ » . وهو حديث صحيح .

(٢) تقدَّم تخريجه ، ص ١٠٢ وهو حديث صحيح .

قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ .. هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ﴾ [سورة فاطر : ٣/٣٥] ، { وقال } : ﴿ .. أَعْلَاهُ مَعَ اللَّهِ .. ﴾ [سورة النمل : ٢٧/٦٣] و { قال } : ﴿ .. هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ [سورة مريم : ١٩/٦٥] ، و { قال } : ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ * تولجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [سورة آل عمران : ٢٦/٣ - ٢٧] .

لا تطلب من الجواد إلاّ شيئاً

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : لا تطلبنَّ من الله عزَّ وجلَّ شيئاً سوى المغفرة للذنوب السالفة ، والعصمة منها في الأيام الآتية اللاحقة^(١) ، والتوفيق لحسن الطاعة وأمثال الأمر ، والانتفاء عن التواهي والرِّضا بِمُرِّ القضاء ، والصَّبر على شدائد البلاء ، والشُّكر على جزيل ٦١/ب النِّعماء والعطاء ، ثمَّ الموافاة بخاتمة الخير / ، واللُّحوق بالأنبياء والصَّديقين والشُّهداء والصَّالحين وحَسُنَ أُولَئِكَ رفيقاً .

ولا تطلب منه الدُّنيا { ولا كشف } الفقر والبلاء إلى الغنى والعافية ، بل أَرْضَ بما قَسَمَ ودَبَّرَ ، وأسأله الحفظ الدائم على ما أقامك فيه وأحلَّك وأبتلاك ، إلى أن ينقلك منه إلى غيره وضدّه ، لأنَّك لا تعلم الخير في أيَّهما ، في الفقر أو في الغنى ، في البلاء أو في العافية ، طوى

(١) يستحب أن يدعو المرء بهذا الدعاء : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جميع ما أسلفته ، وأعصمني فيما بقي لي ، وأرزقني عملاً صالحاً تَرْضَى به عني ، يا ذا الفضل العظيم .

عنك { علم } الأشياء ، وتفرّد هو عزّ وجلّ بمصالحها ومفاسدها .

وقد ورد عن عمر بن الخطّاب رضي الله { تعالى } عنه : (لا أبالي على أي حال أصبح ، على ما أكره أو على ما أحبّ ، لأنّي لا أدري الخير في أيّهما) . قال ذلك رضوان الله عنه لحسن رضاه بتدبير الله عزّ وجلّ له ، والطّمأنينة إلى اختياره وقضائه عزّ وجلّ .

قال الله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة : ٢١٦ / ٢] .

كُن على هاذا الحال إلى أن يزول هواك ، وتنكسر نفسك ، فتكون ذليلة مغلوبة تابعة لك ، ثمّ تزول إرادتك وأمانيك ، وتخرج الأكوان من قلبك ، فلا يبقى { في قلبك } شيء سوى الله تعالى ، فيمتلئ قلبك بحبّ الله عزّ وجلّ ، وتصدق إرادتك في طلبه عزّ وجلّ ، فيردّ إليك الإرادة { ويأمرك } بطلب حظّ من الحظوظ { الدنيويّة / والأخرويّة } ، ٦٢/أ فحينئذ تسأله عزّ وجلّ ذلك وتطلبه ممثلاً لأمره { عزّ وجلّ } وموافقاً له .

إن أعطاك شكرته وتلبّست به ، وإن منعك لم تتسخط عليه ، ولم تتغيّر عليه في باطنك ، ولا تتهمه في ذلك ، لأنك لم تكن طلبته بهواك وإرادتك ، لأنك فارغ القلب عن ذلك غير مرید له ، بل ممثلاً لأمره بالسؤال والسلام .

ما رميت إذ رميت ولا كنن الله رمي

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : كيف يحسن منك العُجب في { الأعمال } ورؤية نفسك فيها ، وطلب الأعواض عليها ؟

وجميع ذلك بتوفيق الله عزَّ وجلَّ وعونه وقوّته وإرادته وفضله ، وإنْ كان ترك معصيته فبعصمته عزَّ وجلَّ ، وحفظه { وحمايته } .

أين أنت من الشُّكر { على } ذلك والاعتراف بهاذة النِّعم الَّتِي أَوْلَاكِهَا ، ؟ ما هاذة الرُّعونة والجهل ؟

تعجب بشجاعة غيرك وسخائه وبذله لماله ، إذا لم تكن قاتلاً لعدوك إِلَّا بعد معاونة شجاع ضرب في عدوك ثمَّ أتممت قتله ، لولاه كنت مصروعاً مكانه وبذله ؟

ولا باذلاً لبعض مالك إِلَّا بعد ضمان صادق كريم أمين ، ضَمِنَ لك عَوَضَهُ وخلفه ، لولا قوله وطمعك فيما { وعدك } وضَمِنَ لك ، ما بذلت حَبَّةً منه ، كيف { تعجب } بمجرّد فعلك ؟

أحسن حالك ، الشُّكر والثناء على المعين ، { والحمد الدائم له } ، وإضافة ذلك إليه في الأحوال كلّها ، إِلَّا الشَّرَّ والمعاصي واللُّوم ، فَإِنَّكَ ٦٢/ ب تضيفها / إلى نفسك ، وتنسبها إلى الظُّلم وسوء الأدب وتتَّهمها به ، فهي أَحَقُّ بذلك ، لَأَنَّهَا مأوئى كُلِّ شَرٍّ ، وأَمارة بكلِّ سوء وداھية .

وإنْ كان الله هو عزَّ وجلَّ خالق أفعالك مع كسبك ، أنت الكاسب وهو الخالق ، كما قال بعض العلماء بالله عزَّ وجلَّ : تجيء له ولا بدّ منك . وقوله عليه الصَّلَاة والسَّلَام : « أَعْمَلُوا وقاربوا وسدّدوا فكلُّ مُيسِّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ »^(١) .

(١) أخرجه الترمذيّ في « الجامع الصَّحيح » برقم ٣١١١ ، عن ابن عمر رضي الله عنهما ، بنحوه وهو حديث صحيح حسن غريب . ولفظة : « فكلُّ ميسر لما خُلِقَ له » صحيحة .

وهل يناسب تذكرك إلا ما خلق عليك ؟

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : لا يخلو إما أن تكون مُريداً أو مُراداً .

فإذا كنت مُريداً فأنت محمل وحمّال ، تحمل كلّ ثَقِيل وشديد ، لأنّك طالب ، والطالب مشقوق عليه متعوب حتّى يصل إلى مطلوبه ويظفر بمحبوبه ويدرك مراده .

ولا ينبغي لك أن تنفر من بلاء ينزل بك في النفس والمال والأهل والولد ، إلى أن تحطّ عنك الأحمال ، { وتُزال } عنك الأثقال ، { وترفع } عنك الآلام ، ويُزال عنك الأذى والإذلال ، فتصان عن جميع الرذائل والأدران والأوساخ والمهانات والأدواء والأوجاع والافتقار إلى الخليفة والبريات ، فتدخل في زمرة المحبوبين المدلّين المرادين .

وإن كنت مُراداً فلا تتهمنّ الحقّ عزّ وجلّ في إنزال البليّة بك أيضاً ، ولا تشكّرنّ في منزلتك وقدرك عنده عزّ وجلّ ، لأنّه قد يبتليك / ليلغك ٦٣/أ مبلغ الرّجال ، ويرفع منزلتك إلى منازل الأولياء والأبدال .

أتحبّ أن تحطّ منزلتك عن منازلهم ، ودرجتك عن درجاتهم ، وأنّ تكون خلعتك وأنوارك ونعيمك دون ما لهم ؟

فإن رضيت أنت بالدُّون فالحقّ عزّ وجلّ لا يرضى لك بذلك ، قال الله تعالى : ﴿ .. وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة ٢/٢١٦] ، يختار لك الأعلى والأسنى والأرفع والأصلح وأنت { تأبى } .

فإن قلت كيف يصحُّ ابتلاء المراد مع هذا التَّقْسِيم والبيان مع أنَّ الابتلاء إنما هو للمحبِّ ، والمدلِّل إنما هو المحبوب .

يقال : ذكرنا لك الأغلب أولاً وشهرنا بالنادر الممكن ثانياً .

لا خلاف أنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم كان سيِّد المحبوبين ، وكان أشدَّ الناس بلاءً ، وقد قال صَلَّى اللهُ { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم : « لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللهِ مَا لَا يَخَافُ أَحَدٌ ، وَلَقَدْ أُودِيتُ فِي اللهِ [وَمَا يُؤْذِي] أَحَدٌ ، وَلَقَدْ [أَتَتْ] عَلَيَّ ثَلَاثُونَ يَوْمًا [مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ] وَلَيْلَةٍ [وَمَا لِي وَلِبِلَالٍ] طَعَامٌ [يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ] إِلَّا شَيْءٌ يُوَارِيهِ إِبْطٌ بِلَالٍ » (١) .

وقد قال صَلَّى اللهُ { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم : « إِنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ أَشَدُّ النَّاسِ بَلَاءً ثُمَّ الْأَمْثَلُ بِالْأَمْثَلِ » (٢) ، وقال صَلَّى اللهُ { تعالى } عليه وعلى آله وأصحابه وسلَّم : « أَنَا أَعْرِفُكُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّكُمْ مِنْهُ خَوْفًا » (٣) .

فكيف يتلى المحبوب ويخوَّف المدلِّل المراد ، ولم يكن ذلك إلا ٦٣/ ب لما أشرنا إليه من بلوغ المنازل/ العالية في الجَنَّة عند الله عزَّ وجلَّ ، لأنَّ المنازل في الجَنَّة { لا تشيَّد } وترفع إلا بالأعمال في الدنيا .

فالدُّنيا مزرعة الآخرة ، وأعمال الأنبياء والأولياء بعد أداء الأوامر وانتهاء التَّوَاهِي إنما هي الصَّبْر والرِّضَا والموافقة في حالة البلاء ، ثمَّ يكشف عنهم

(١) أخرجه الترمذِيُّ في « الجامع الصَّحيح » برقم ٢٤٧٢ ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه . وهو حديث صحيح .

(٢) تقدَّم تخريجه ، ص ٩١ ، وهو حديث حسن صحيح .

(٣) تقدَّم تخريجه ، ص ١٠٤ . وهو حديث صحيح .

البلاء ويواصلوا بالتَّعْيِيمَ والْفَضْلَ والدَّلَالَ إلى اللِّقَاءِ أَبَدَ الْآبَادِ .

لكلِّ امرئٍ يومٌ من شأنٍ يقينٍ

قال رضيَّ الله { تعالى } عنه وأرضاه : الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْأَسْوَاقَ مِنْ أَهْلِ الدِّينِ وَالنُّسْكِ فِي مَخْرَجِهِمْ إِلَى أَدَاءِ أَوْامِرِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعِ وَالْجُمَاعَاتِ وَقِضَاءِ حَوَائِجِ { تَسْنَحِ } لَهُمْ فِيهَا عَلَى أَضْرَبِ :
مِنْهُمْ مَنْ إِذَا دَخَلَ السُّوقَ وَرَأَى فِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ تَقِيدُ بِهَا وَعَلَقَتْ بِقَلْبِهِ فَافْتَتَنَ ، وَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ هَلَاكِهِ ، وَتَرَكَ دِينَهُ وَنَسَكَه ، وَرَجُوعَهُ إِلَى مُوَافَقَةِ طَبْعِهِ ، وَاتِّبَاعِ هَوَاهُ ، { إِلَّا } أَنْ يَتَذَكَّرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِرَحْمَتِهِ وَعِصْمَتِهِ { وَحِمِيَّتِهِ } وَإِصْبَارِهِ إِتْيَاهُ عَنْهَا ، فَيَسْلَمَ .

وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا رَأَى ذَلِكَ وَكَادَ أَنْ يَهْلِكَ بِهَا ، رَجَعَ إِلَى عَقْلِهِ وَدِينِهِ وَتَصَبَّرَ وَتَكَلَّفَ وَتَجَرَّعَ مَرَارَةَ تَرْكِهَا ، فَهُوَ كَالْمُجَاهِدَةِ يَنْصُرُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَفْسِهِ وَطَبْعِهِ وَهَوَاهُ وَشَهْوَتِهِ ، وَيَكْتُبُ لَهُ الثَّوَابَ الْجَزِيلَ فِي الْآخِرَةِ .
كَمَا جَاءَ فِي بَعْضِ الْأَخْبَارِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ { تَعَالَى } عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّمَ / أَنَّهُ قَالَ : « يُكْتَبُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِتَرْكِ الشَّهْوَةِ عِنْدَ الْعَجْزِ ٦٤ / أ عَنْهَا أَوْ عِنْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا سَبْعِينَ حَسَنَةً » ^(١) أَوْ كَمَا قِيلَ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَنَاوَلُهُ وَيَتَلَبَّسُ بِهَا ، وَيَحْصُلُهَا بِفَضْلِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّتِي عِنْدَهُ مِنْ سَعَةِ الدُّنْيَا وَالْمَالِ ، وَيَشْكُرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا .
وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَرَاهَا وَلَا يَشْعُرُ بِهَا ، فَهُوَ أَعْمَى عَمَّا سَوَّى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فَلَا يَرَى غَيْرَهُ ، وَأَصَمٌ عَمَّا سِوَاهُ فَلَا يَسْمَعُ مِنْ غَيْرِهِ ، وَعِنْدَهُ شُغْلٌ عَنِ النَّظَرِ إِلَى غَيْرِ مُحِبُّوبِهِ وَأَشْتَهَائِهِ ، فَهُوَ فِي مَعْزَلٍ عَمَّا الْعَالَمَ عَلَيْهِ ، فَإِذَا

(١) لَمْ أَعثرْ عَلَيْهِ فِيمَا لَدَيَّ مِنَ الْمَصَادِرِ .

رأيته وقد دخل السوق فسألته عما رأى في السوق؟ يقول: مارأيت شيئاً.
نعم قد رأى الأشياء، لكن رآها ببصر رأسه لا ببصر قلبه، ونظرها
نظر فجأة لا نظر شهوة، نظر صورة لا نظر معنى، نظر الظاهر لا نظر
الباطن، فبظاهره ينظر إلى ما في الأسواق، وبقلبه ينظر إلى ربّه عزّ
وجلّ، إلى جلاله تارة وإلى جماله تارة أخرى.

ومنها من إذا دخل السوق أمتلاً قلبه بالله رحمة لأهله، فتشغله
الرّحمة { لهم } عن التّظر إلى ما لهم وما بين أيديهم، فهو من حين
دخوله إلى حين خروجه في الدّعاء والاستغفار، وشفاعة أهله، وشفقته
ورحمته، فقلبه محترق عليهم ولهم، وعينه مُغرورةً لأجلهم، ولسانه
في ثناء وحمد لله عزّ وجلّ بما أولى الكافّة من نعمه وفضله، فهذا يسمى
بـ ٦٤/ب شحنة البلاد والعباد، وإن شئت فسمّه عارفاً وبدلاً وزاهداً وعالمياً عيناً
{ وتداً } محبوباً، مراداً نائباً في الأرض { على } عباده، وسفيراً
وجهبذاً هادياً مهدياً دالاً مرشداً. فهذا الكبرى الأحمر وبيضة
{ العقق }^(١). رضوان الله وصلواته عليه، وعلى كلّ مؤمن يريد الله عزّ
وجلّ وصل إلى انتهاء المقام.

في آلاءه ابتلاء، وفي حرمانه اختبار!

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه: قد { يُطلع } الله { تعالى }
وليه على عيوب غيره وكذبه ودعواه وشركه في أفعاله وأقواله وإضمّاره

(١) طائر من الفصيلة الغرابيّة ورتبة الجوائم، له ذنب طويل ومنقار طويل قوي، يعيش على رؤوس الشجر، ويتغذى بالحبوب والأثمار والحشرات وبيض الطيور وصغار الطير، وهو ذكيّ جداً، شرس يعدّ من أخطر الطيور.

ونبيّه ، فيغار ولي الله عزّ وجلّ لرّبّه ولرسوله ودينه ، فيشتدّ غضب باطنه ، ثمّ ظاهره .

كيف يدّعي السّلامة مع العلل والأوجاع الباطنة والظّاهرة ؟

وكيف يدّعي التّوحيد مع الشّرك ، والشّرك كفر مبعد عن قرب الحقّ { عزّ وجلّ } ، وهو صفة العدوّ والشّيطان اللّعين ، والمنافقين المقطوع لهم في الدّرك الأسفل من النّار والخلود فيها ، فيجري على لسان الولي ذكر عيوبه وأفعاله الخبيثة ووقاحته بعريض دعواه وإدعائه أحوال الصّدّيقين ، ومزاحمته للّفانين في قدر الله { عزّ وجلّ } وفعله ، والمرادين على وجه الغيرة لله عزّ وجلّ مرّة ، وعلى وجه الإنكار عليه والوعظ له أخرى ، وعلى وجه الغلبة لفعل الله عزّ وجلّ وإرادته وشدّة غضبه على الكذاب والمكذّب أخرى .

فيضاف ذلك إلى ولي الله عزّ وجلّ غيبته ، فيقال : / أيغتَاب الولي ١/٦٥ وهو يمنع منها ، أو يذكر الغائب والحاضر بما لم يظهر عند العوام والخواص .

فيصير ذلك الإنكار في حقّهم كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ .. وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا .. ﴾ [سورة البقرة ٢ / ٢١٩] .

في الظّاهر إنكار ، والمنكر في الباطن إسقاط الرّبّ { عزّ وجلّ } والاعتراض عليه ، فيصير حاله الحيرة ، فيكون { فرضهم } فيها السّكوت والتّسليم وطلب المساغ لذلّك في الشّرع ، والجواز لا للاعتراض على الرّبّ عزّ وجلّ والولي والطّعان لافتراءه وكذبه ، وقد يكون ذلك سبباً لإقلاعه وتوبته ورجوعه عن جهله وحيرته ، فيكون كرهاً للولي ونفعاً للمغرور الهالك بغروره ورعونته . ﴿ .. وَاللّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ .. ﴾

يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ [سورة التور ٢٤ / ٤٦] .

إنما يدلُّ النُّورُ على المصباح والأرتج على الأزهار

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : أوَّل ما ينظر العاقل في صفة نفسه وتركيبه ، ثمَّ في جميع المخلوقات والمبدعات فيستدلُّ بذلك على خالقها ومبدعها ، لأنَّ في الصَّنعة دلالة على الصَّانع ، وفي القدرة المحكمة آية تدلُّ على الفاعل الحكيم ، فإنَّ الأشياء كلها موجودة به .

وفي معناه ما ذكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ . . ﴾ [سورة الجاثية ١٣ / ٤٥] ، فقال : في كلِّ شيء أسم من أسمائه ، وأسم كلِّ شيء من أسمه تعالى^(١) .

فإنَّما أنت بين أسمائه وصفاته وأفعاله ، باطنًا بقدرته وظاهرًا بـ / ٦٥ بحكمته ، ظهر بصفاته وبطن بذاته ، حجب / الذات بالصفات ، وحجب الصفات بالأفعال ، وكشف العلم بالإرادة ، وأظهر الإرادة بالحركات ، وأخفى الصَّنعة والصَّنِيعَة ، وأظهر الصَّنعة بالإرادة ، هو باطن في غيبه وظاهر في حكمته وقدرته ﴿ . . لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [سورة الشورى ١١ / ٤٠] .

ولقد أظهر في هذا الكلام من أسرار المعرفة ما لا يظهر إلا من مشكاة فيها مصباح ، أمره برفع يد العصمة بابتهاال : اللَّهُمَّ فقهه في الدين وعلمه التأويل .

(١) راجع كتاب روح المعاني ، ج ٢٥ / ١٤٥-١٤٦ .

آنالنا الله تعالى بركاتهم وحشرنا في زميرتهم آمين .

لكل أمر حقيقة ولكل بيان أركانه

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه في وصية له : أوصيك بتقوى الله وطاعته ، ولزوم ظاهر الشرع وسلامة الصدر ، وسخاء النفس ، وبشاشة الوجه ، وبذل الندى ، وكف الأذى ، وتحمل الأذى والفقر ، وحفظ حرمان المشايخ ، وحسن العشرة مع الإخوان ، والنصيحة للأصاغر { والأكابر } ، وترك الخصومة { والشقاق } ، وملازمة الإيثار ومجانبة الدخار ، وترك صحبة من ليس من طبقتهم ، والمعاونة في أمر الدين والدنيا .

وحقيقة الفقر ألا تفتقر إلى من هو مثلك ، وحقيقة الغنى أن تستغني عما هو مثلك .

والتصوف { ليس } ما أخذ من القيل والقال ، ولاكن أخذ من الجوع وقطع المألوفات والمستحسنات ، ولابتداء الفقر بالعلم وأبتداؤه بالرفق / ، فإن العلم يوحشه والرفق يؤنسه .

٦٦/أ

والتصوف مبني على ثمان خصال : السخاء لإبراهيم [عليه الصلاة والسلام] .

والرضا لإسحاق [عليه الصلاة والسلام] .

والصبر لأيوب [عليه الصلاة والسلام] .

والإشارة لذكريا [عليه الصلاة والسلام] .

والغربة ليحيى [عليه الصلاة والسلام] .

ولبس الصّوف لموسى [عليه الصّلاة والسّلام] .
والسّياحة لعيسى [عليه الصّلاة والسّلام] .
والفقر [لسيدنا ونبيّنا] محمّد صلّى الله { تعالى } عليه وعلى آله
وأصحابه وسلّم .

وصاحب النّاس بنخلق حسن

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : أوصيك أن تصحب الأغنياء
بالتّعزّز ، والفقراء بالتّدلّ ، وعليك بالتّدلّ والإخلاص ، وهو دوام رؤية
الخالق ، ولا تتهم الله عزّ وجلّ في الأسباب ، { وأستكن } إليه في كلّ
الأحوال ، ولا تُضع حقّ أخيك اتّكالاً على ما بينك وبينه من المودّة .
وعليك بصحبة الفقراء بالتّواضع وحسن الأدب والسّخاء ، وأمت
نفسك حتى تحيي ، وأقرب الخلق من الله تعالى أوسعهم خُلُقاً ، وأفضل
الأعمال رعاية السرّ عن الالتفات إلى ما سوى الله تعالى .
وعليك بالتّواصي بالحقّ وبالصّبر ، وحسبك { من الدّنيا شيئان } :
صحبة فقير وخدمة ولي ، والفقير { هو } الذي لا يستغني بشيء دون الله
تعالى .
والصّولة على من هو دونك ضعف ، وعلى من هو فوقك { فخر } ،
وعلى من هو مثلك سوء خلق .
الفقر والتّصوّف كلّهُ جدّ ، فلا تخلطهما بشيء من الهزل ، وفّقنا الله
وإياكم .

رُضْ نَفْسَكَ تَصْبِحْ رَوْضَهُ

قال رضي الله [تعالى] عنه [وأرضاه] : يا ولي عليك بذكر الله على كل حال ، فإنه للخير جامع ، وعليك بالاعتصام بحبل الله ، فإنه للمضمار دافع ، وعليك بالتأهب لتلقي موارد القضاء بالرضا ، / فإنه واقع ٦٦/ ب والرضا نافع .

وأعلم أنك مسؤول عن حركاتك وسكناتك ، فاشتغل بما هو أولى في الوقت ، وإيتاك وفضول تصرفات الجوارح .
وعليك بطاعة الله ورسوله ومن والاه ، وأد إليه حقه ، ولا تطالبه بما يجب عليه ، وأدع في كل حال .

وعليك بحسن الظن للمسلمين وإصلاح النية لهم ، والسعي بينهم في كل خير ، وألا تبيت ولأحد في قلبك شر ولا شحناء ولا بغض ، وأن تدعوا لمن ظلمك ، وراقب الله عز وجل .

وعليك بأكل الحلال ، والسؤال لأهل العلم بالله فيما لا تعلم ، وعليك بالحياء من الله عز وجل .

وأجعل صحبتك مع الله ، وأصحب من سوى الله بصحبته ، وتصدق في كل صباح بقرصك ، وإذا أمسيت فصل صلاة الجنابة على من مات من المسلمين في ذلك اليوم ، وإذا صليت المغرب فصل صلاة الاستخارة ، وتقول بكرة وعشية سبع مرّات : (اللَّهُمَّ أَجِرْنَا مِنَ النَّارِ) .

وحافظ على قول أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم : ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾

[سورة الحشر ٢٢/٤٥] . إلى آخر السّورة ، والله الموفّق والمُعِين ،
{ إذ لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم } .

أقبل على المحبوب فرداً

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : كُنْ مع الله عزّ وجلّ كأنّ
لا خلق ، ومع الخلق كأنّ لا نفس ، فإذا كنتَ مع الله عزّ وجلّ بلا خلق
٦٧/أ { وحَدَّث } ، وعن الكلّ فنيْتُ / ، وإذا كنتَ مع الخلق بلا نفس عدلت
وأتّقيت ومن التّبّعات سلّمت .

وأترك الكلّ على باب خلوتك ، وأدخل وحدك ترى مؤنسك في
خلوتك بعين سرّك ، وتشاهد ما وراء الأعيان ، وتزول النّفس ويأتي
مكانها أمر الله تعالى وقربه ، فإذا جهلك علم ، وبعدك قرب ، وصمتك
ذكر ، ووحشتك أنس .

يا هاذا : ما ثمّ إلّا خلقٌ وخالق ، فإنّ اخترت الخالق ، فقلّ لهم :
﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [سورة الشعراء ٢٦ / ٧٧] .

الثمرّة المشتهاة !

ثمّ قال [رضي الله تعالى عنه وأرضاه] : من ذاقه عرفه ، فقلّ له
من غلبت عليه مرارة صفّته كيف يجد حلاوة الدّوق ؟
فقال : [يعمل على] إزالة الشّهوات من قلبه .

يا هاذا : المؤمن إذا عمل صالحاً أنقلبَت نفسه قلباً ، ثمّ أنقلب [قلبه
سرّاً] ، ثمّ أنقلب السّرّ فصار فناءً . ثمّ أنقلب الفناء فصار وجوداً .

سَلَّمَ

ثُمَّ قَالَ [رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ] : الْأَحْبَابُ يَسْعُهُمْ كُلُّ بَابٍ .
يَا هَذَا : الْفَنَاءُ إِعْدَامُ الْخَلَائِقِ ، وَأَنْقِلَابُ طَبْعِكَ إِلَى طَبْعِ
الْمَلَائِكَةِ ، ثُمَّ الْفَنَاءُ عَنْ طَبْعِ الْمَلَائِكَةِ . ثُمَّ لِحُوقِكَ بِالْمَنْهَاجِ الْأَوَّلِ ،
وَحِينَئِذٍ يَسْقِيكَ رَبُّكَ مَا يَسْقِيكَ ، وَيَزْرَعُ فِيكَ مَا يَزْرَعُ .
إِنْ أَرَدْتَ هَذَا فَعَلَيْكَ بِالْإِسْلَامِ ثُمَّ بِالْإِسْتِسْلَامِ ، ثُمَّ الْعِلْمَ بِاللَّهِ ، ثُمَّ
الْمَعْرِفَةَ ، ثُمَّ الْوُجُودَ ، وَإِذَا كَانَ وَجُودُكَ لَهُ كَانَ كَلِّكَ لَهُ .
الرُّهْدُ عَمَلُ سَاعَةٍ ، وَالْوَرَعُ عَمَلُ سَاعَتَيْنِ ، وَالْمَعْرِفَةُ عَمَلُ الْأَبَدِ .

مَارِجُ الْكَمَالِ^(١)

[قَالَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَأَرْضَاهُ : لِأَهْلِ الْمَجَاهِدَةِ وَالْمَحَاسِبَةِ
وَأُولَى الْعِزِّ عَشْرُ خِصَالٍ جَرَّبُوهَا ، فَإِذَا أَقَامُوهَا وَأَحْكَمُوهَا بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى
وَصَلُّوا إِلَى اللَّهِ الْمَنَازِلَ الشَّرِيفَةَ :
الْأُولَى : أَلَّا يَحْلِفَ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ صَادِقًا وَلَا كَاذِبًا ، عَامِدًا
وَلَا سَاهِيًا ، لِأَنَّهُ إِذَا أَحْكَمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَعَوَّدَ لِسَانَهُ ، رَفَعَهُ ذَلِكَ إِلَى
تَرْكِ الْحَلْفِ سَاهِيًا وَعَامِدًا .

فَإِذَا أَعْتَادَ ذَلِكَ فَتَحَ اللَّهُ بَابًا مِنْ أَنْوَارِهِ يَعْرِفُ مَنْفَعَةَ ذَلِكَ فِي قَلْبِهِ ،
وَرَفَعَهُ فِي دَرَجَةٍ وَقُوَّةٍ فِي عِزِّهِ وَفِي صَبْرِهِ وَالثَّنَاءِ عِنْدَ الْإِخْوَانِ ، وَالْكَرَامَةِ

(١) هَذَا الْبَحْثُ غَيْرُ مُوجُودٍ فِي النُّسخِ الْخَطِيَّةِ ، وَإِنَّمَا هُوَ زِيَادَةٌ مِنَ النُّسخِ الْمَطْبُوعَةِ .

عند الجيران ، حتّى يأتّم به من يعرفه ، ويهابه من يراه .

والثانية : يجتنب الكذب لا هازلاً ولا جاداً ، لأنّه إذا فعل ذلك وأحكمه من نفسه وأعتاده لسانه ، شرح الله تعالى به صدره ، وصفاً به علمه ، كأنّه لا يعرف الكذب ، وإذا سمعه من غيره عاب ذلك عليه وعيّر به في نفسه ، وإن دعا له بزوال ذلك كان له ثواب .

الثالثة : أن يحذر أن يعدّ أحداً شيئاً فيخلفه ، ويقطع العدة ألبته ، فإنّه أقوى لأمره وأقصد بطريقه ، لأنّ الحلف من الكذب ، فإذا فعل ذلك فتح له باب السّخاء [وباب] الحياء ، وأُعطي مودة في الصّادقين ، ورفعاً عند الله جلّ ثناؤه .

الرابعة : أن يجتنب أن يلعن شيئاً من الخلق ، أو يؤذي ذرّةً فما فوقها ، لأنّها من أخلاق الأبرار والصّديقين ، وله عاقبة حسنة في حفظ الله تعالى في الدّنيا ، مع ما يدّخر له من الدّرجات ، ويستنقذه من مصارع الهلاك ، ويسلّمه من الخلق ، ويرزقه رحمة العباد ، ويقرّبه منه عزّ وجلّ .

الخامسة : أن يجتنب الدّعاء على أحدٍ من الخلق ، وإن ظلمه فلا يقطعه بلسانه ، ولا يكافئه بقول ولا فعل ، فإنّ هاذي الخصلة ترفع صاحبها إلى الدّرجات العلى .

وإذا تأدّب بها ينال منزلة شريفة في الدّنيا والآخرة ، والمحبة والمودة في قلوب الخلق أجمعين من قريب وبعيد ، وإجابة الدّعوة والغلوة في الخلق ، وعزّ في الدّنيا في قلوب المؤمنين .

السادسة : ألاّ يقطع الشّهادة على أحد من أهل القبلة بشرك ولا كفر ولا نفاق ، فإنّه أقرب للرّحمة ، وأعلى في الدّرجة ، وهي تمام السّنة ،

وأبعد عن الدُّخول في علم الله ، وأبعد من مقت الله ، وأقرب إلى رضا الله تعالى ورحمته ، فإنه باب شريف كريم على الله تعالى يورث العبد الرَّحمة للخلق أجمعين .

السَّابعة : أن يجتنب النَّظر إلى المعاصي ، ويكفَّ عنها جوارحه ، فإنَّ ذلك من أسرع الأعمال ثواباً في القلب والجوارح في عاجل الدُّنيا ، مع ما يدَّخره الله من خير الآخرة .

نسأل الله أن يَمُنَّ علينا أجمعين ، ويعلمنا بهاذه الخصال ، وأن يُخرج شهواتنا عن قلوبنا .

الثَّامنة : يجتنب أن يجعل على أحد من الخلق منه مؤنة صغيرة [أو] كبيرة ، بل يرفع مؤنته عن الخلق أجمعين ، ممَّا أحتاج إليه وأستغنى عنه ، فإنَّ ذلك تمام عزَّة العابدين وشرف المتَّقين ، وبه يقوى على الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، ويكون الخلق عنده أجمعين بمنزلة واحدة .

فإذا كان ذلك نقله الله إلى الغناء واليقين والثَّقة به عزَّ وجلَّ ، ولا يرفع أحد سواه ، وتكون الخلق عنده في الحقِّ سواء ، ويقطع بأنَّ هاذِه أسباب عزِّ المؤمنين وشرف المتَّقين ، وهو أقرب باب الإخلاص .

التَّاسعة : ينبغي له أن يقطع طمعه من الآدميين ، ولا يطمع نفسه فيما في أيديهم ، فإنه العزُّ الأكبر ، والغنى الخاص ، الملك العظيم ، والفخر الجليل ، واليقين الصَّافي ، والتَّوَكُّل الشَّافي الصَّريح ، وهو باب من أبواب الثَّقة بالله عزَّ وجلَّ ، وهو باب من أبواب الرُّهد ، وبه ينال الورع ويكمل نسكه ، وهو من علامات المنقطعين إلى الله عزَّ وجلَّ .

العاشرة : التَّواضع لأنَّ به يشيد محل العابد وتعلو منزلته ، ويستكمل

العزَّ والرَّفعة عند الله سبحانه وعند الخلق ، ويقدر على ما يريد من أمر الدنيا والآخرة ، وهذه الخصلة أصل الخصال كلّها وفرعها وكمالها ، وبها يدرك العبد منازل الصّالحين الرّاضين عن الله تعالى في السّراء والضّراء ، وهي كمال التّقوى .

والتّواضع : وهو ألاّ يلقى العبد أحداً من النّاس إلّا رأى له الفضل عليه ، ويقول عسى أن يكون عند الله خيراً منّي وأرفع درجة .

فإن كان صغيراً قال هذا لم يعص الله تعالى ، وأنا قد عصيت ، فلا شكّ أنّه خير منّي . وإن كان كبيراً قال هذا عبّد الله قبلي . وإن كان عالماً قال هذا أعطي ما لم أبلغ ، ونال ما لم أنل ، وعلم ما جهلت ، وهو يعمل بعلمه . وإن كان جاهلاً قال هذا عصي الله بجهل ، وأنا عصيته بعلم ، ولا أدري بمَ يختم لي وبم يختم له . وإن كان كافراً قال لا أدري عسى أن يسلم فيختم له بخير العمل ، وعسى أكفر فيختم لي بسوء العمل . وهذا باب الشّفقة والوجل ، وأولى ما يصحب وآخر ما يبقى على العباد .

فإذا كان العبد كذلك سلّمه الله تعالى من الغوائل ، وبلغ به منازل النّصيحة لله عزّ وجلّ ، وكان من أصفياء الرّحمان وأحبائه ، وكان من أعداء إبليس عدوّ الله - لعنه الله - وهو باب الرّحمة .

ومع ذلك قد يكون قطع باب الكبر وجبال العجب ، ورفض درجة العلو في نفسه في الدّين والدّنيا والآخرة ، وهو مخّ العبادة ، وغاية شرف الرّاهدين ، وسيماء النّاسكين ، فلا شيء منه أفضل .

ومع ذلك يقطع لسانه عن ذكر العالمين وما لا يعني ، فلا يتمّ له عمل إلّا به ، ويخرج الغل والكبر والبغي من قلبه في جميع أحواله ، وكان

لسانه في السِّرِّ والعلانية واحداً ، ومشيته في السِّرِّ والعلانية واحدة ،
 وكلامه كذلك ، والخلق عنده في التَّصْبِيحَةِ واحد ، ولا يكون من
 النَّاصِحِينَ ، وهو يذكر أحداً من خلق الله بسوء أو يعيِّره بفعل ، أو يحب
 أن يذكره عنده واحد بسوء . وهذا آفة العابدين ، وعطب الثُّسَاك ،
 وهلاك الزَّاهِدِينَ ، إلّا من أعانه الله تعالى وحفظ لسانه وقلبه برحمته
 وفضله وإحسانه] .

إِنَّمَا الرَّسِيُّ بِالْمَاءِ !

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه لمّا مرض مرضه الَّذِي / مات ٦٧/ ب
 فيه .

قال له أبنه عبد الوهّاب : أوصني بما أعمل به بعدك ، فقال : عليك
 بتقوى الله عزَّ وجلَّ ، ولا تخف أحداً سوى الله ، ولا ترجُ سوى الله ،
 وَكِلِ الحَوَائِجِ إِلَى الله عزَّ وجلَّ . ولا تعتمد إلّا عليه ، وأطلبها جميعاً
 منه ، ولا تثق بأحد غير الله ، التَّوْحِيدُ التَّوْحِيدُ إجماع الكلّ .

اللَّهُمَّ إِنِّي أَحِبُّ لِقَاكَ فَاحِبِّ لِقَائِي

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : إذا صحَّ القلب مع الله عزَّ
 وجلَّ لا يخلو منه شيء ولا يخرج منه شيء .

وقال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : أَنَالِبُ بلا قشر .

وقال لأولاده : أبعادوا من حولي ، فَإِنِّي معكم بالظاهر ومع غيركم
 بالباطن .

وقال : قد حضر عندي غيركم فأوسعوا لهم ، وتأدّبوا معهم ، ها هنا
{ رحمة عظيمة } ، ولا تضيقوا عليهم المكان .

وكان يقول : السّلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، غفر الله لي ولكم ،
تاب الله عليّ وعليكم ، بسم الله غير مودّعين .
قال ذلك يوماً وليلة .

وقال : ويلكم أنا لا أبالي بشيء ، لا بملك ولا بملك الموت ،
[لا تدع أحداً يتولّانا سواك] ، وصاح صيحة عظيمة .

وذلك في اليوم الذي مات في عشيته .

وأخبرني ولداه عبد الرزاق وموسى : أنّه كان يرفع يديه ويمدّهما
ويقول : وعليكم السّلام ورحمة الله وبركاته ، توبوا وأدخلوا في الصّف
هوذا جيء إليكم .

٦٨/أ وكان يقول : أرفقوا/ ثمّ أتاه الحقّ وسكرة الموت .

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : بيني وبينكم وبين الخلق
كلّهم بعد ما بين السّماء والأرض ، فلا تقيسوني بأحد ، ولا تقيسوا عليّ
أحد .

ثمّ سأله ولده عبد العزيز عن ألمه وحاله فقال رضي الله { تعالى } عنه
وأرضاه : لا يسألني أحد عن شيء ، أنا أتقلّب في علم الله عزّ وجلّ .

قال رضي الله { تعالى } عنه وأرضاه : وقد سأله ولده عبد العزيز عن
مرضه ، فقال : إنّ مرضي لا يعلمه أحد ، ولا يعقله أحد ، إنسي
ولا جنّي ولا ملك ، ما ينقص علم الله بحكم الله ، الحكم يتغيّر والعلم
لا يتغيّر ، الحكم ينسخ والعلم لا ينسخ ﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ

وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿ [سورة الرّعد ١٣ / ٣٩] ، ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلَوْنَ ﴾ [سورة الأنبياء ٢١ / ٢٣] ، أخبار الصّفات تمرُّ كما جاءت .

وسأله ولده عبد الجبّار : ماذا يؤلمك من جسمك ؟ فقال : جميع أعضائي تؤلمني إلّا قلبي فما به ألم ، وهو صحيح مع الله عزّ وجلّ .

ثمّ أتاه الموت فكان يقول : أستعنت بلا إله إلّا الله سبحانه وتعالى الحيّ الذي لا يخشى الفوت . سبحان من تعزّز بالقدره ، وقهر العباد بالموت ، لا إله إلّا الله محمّد رسول الله .

وأخبرني ولده موسى أنّه قال : تعزّز ولم يؤدّها على الصّحة ، فما زال يكرّرها حتّى إذا قال تعزّز ومدّ بها صوته وشدّ بها ، حتّى صَحَّ لسانه ، ثمّ قال : الله الله ، ثمّ خفيّ صوته ولسانه ملتصق بسقف حلقه ، ثمّ خرجت / روحه الكريمة رضوان الله { تعالى } عليه .

٦٨/ب

{ أعاد الله } علينا من بركاته وختم لنا بخير ولجميع المسلمين ، وألحقنا بالصّالحين غير خزايا ولا مفتونين ، والحمد لله ربّ العالمين .

تمّ الكتاب بعون الله وفضله

فهرس الكتاب

٧.....	تقديم بقلم الأستاذ محمد زكريا الزعيم
١٣.....	مقدمة التحقيق
٢٠.....	- نسخ الكتاب
٢٤.....	- عملي في الكتاب
٢٦.....	ترجمة الشيخ عبد القادر الجيلاني
٤١.....	صور المخطوطات المعتمدة
٤٣.....	تذكير لما مضى
٤٥.....	آداب السلوك والتوصل إلى منازل الملوك
٤٧.....	- إسناد الكتاب
٤٩.....	مقدمة الكتاب
٥١.....	قوت القلوب وزاد الرحلة
٥١.....	بالعمل تحنى الرغائب
٥٢.....	في الابتلاء صحوة الأرواح ويقظة البصائر
٥٤.....	إقتلع أعشاب الهوى تنامى دوحة الكمال
٥٥.....	سراب يحسه الظمان ماء !
٥٦.....	أحب قُربك وأوثر هواك
٥٩.....	آفة القلب الهوى
٦٣.....	أفضل المنازل ما ارتضاه الخالق
٦٤.....	أهابك حياً وإجلالاً
٦٦.....	وخالف النفس والشيطان واعصهما
٧٠.....	أحمد شهوتك وإلا أحرقتك !
٧١.....	لا تشغلك النعمة عن النعم
٧١.....	الخير ما اختاره الله
٧٥.....	ومن ذلك فليتنافس المتنافسون
٧٦.....	جناح الإيمان خوف ورجاء
٧٧.....	توكل على الله تجده تجاهك
٨٠.....	إرحل من الخلق إلى الخالق ومن الكون إلى المكون
٨٣.....	جرح الأجابة غير ذي ألم
٨٦.....	وف بوعدك وانظر من تعاهد !
٨٨.....	إنما الإيمان عزيمة ويقين

- ٩٠..... الجبر نفثة حرّى من حمم الشَّيْطَان
- ٩٠..... ابتلاؤك على قدر مقامك
- ٩٢..... قليلة كثير ، غيظه فيض ، حرمانه عطاء
- ٩٤..... الزم رحاب مَنْ لا يُغلق بابه
- ٩٥..... حسبك بحبه نعيماً
- ٩٧..... القلب دارٌ لا تسع اثنان
- ١٠١..... تحيّر من الثمر أطيبه
- ١٠٥..... دع ثمرك على غصنه تقطّفه يانعا
- ١٠٧..... قد يُجنى من الفقر غنى
- ١٠٩..... أما الصبر فمذاقه مرٌّ وعاقبته شهيد !
- ١١٠..... ميزان الحبّ الهوى
- ١١١..... ما الحبُّ إلا للحبيب الأوحد
- ١١٢..... مقامات الخلق ومنازل الرجال
- ١١٦..... لكلّ أجل كتاب
- ١١٩..... من حام الحمى يوشك أن يقع فيه
- ١٢١..... طلاق الدنيا مهر الجنة
- ١٢٦..... كأنّ الحاسد إنما خلق ليغتاط
- ١٢٩..... الصّدق دليل التقوى وجمال النجوى وكمال الدين والدنيا
- ١٣٠..... الهوى موطن الداء
- ١٣٠..... ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل
- ١٣١..... الولاية مرة الفطام !
- ١٣٤..... في الشَّهَد والحنظل دواء !
- ١٣٦..... إذا سألت فاسأل الله
- ١٣٧..... طيرٌ إليه يجتأحي الخوف والرجاء
- ١٣٨..... حبيب - على ما كان منه - حبيب !
- ١٤٢..... إذكره تكفى ما أغمك
- ١٤٤..... صوّى على درب الهوى
- ١٤٤..... لو صحّ منك الهوى أرشدت للعمل
- ١٤٥..... لا كُحلّ للعاشق إلا السُّهاد !
- ١٤٦..... هوى كلّ نفس حيث حلّ حبيبها
- ١٤٨..... في ظاهر الزُّهد شرف الدنيا ، وفي باطنه شرف الآخرة
- ١٤٩..... حرمانه عطاء وابتلاؤه رحمة !
- ١٥٠..... شكرُ المولى هو الأولى

- ١٥٢..... إرحل إليه فتمَّ ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر !
- ١٥٣..... إترك نفسك وتعال !
- ١٥٥..... أخرج الهوى من صدرك تحلُ القيودُ من رجلك
- ١٥٧..... القضاء غالب والأجل طالب
- ١٥٨..... لا نورَ إلا من مشكاته !
- ١٥٩..... الشُّكرُ لشواردِ النِّعمة أو تُنقِ عقال
- ١٦٣..... مواقعُ أقدارِ الله خيرٌ لك من مواقعِ آمالك
- ١٦٥..... لكلِّ ملكٍ حمى فاحذر حمى الرَّحمان
- ١٦٧..... وهل بعدَ الحبيبِ مطلبُ ؟
- ١٦٩..... من شِعْبِ المعرفة
- ١٦٩..... أمتَ نفسك حتى تحيا !
- ١٧٠..... آية الحبِّ الرِّضا !
- ١٧٢..... تنزل الطَّير حيثُ ينثر الحبُّ
- ١٧٤..... إفطم نفسك قبل أن تفتزسك
- ١٧٦..... ما أحكمَّ من يسوقُ المقاديرَ إلى المواقيت !
- ١٧٨..... لا تطلبُ من الجوادِ إلا ثميناً
- ١٧٩..... ما رميت إذ رميتَ ولا كنَّ الله رمى
- ١٨١..... وهل يناسبُ قدكُ إلا ما خلَعَ عليك ؟
- ١٨٣..... لكلِّ امرئٍ يومئذٍ شأنٌ يغنيه
- ١٨٤..... في آلائه ابتلاء ، وفي حرمانه اختبار !
- ١٨٦..... إنما يدكُ النورُ على المصباح والأريج على الأزهار !
- ١٨٧..... لكلِّ أمرٍ حقيقته ولكلِّ بنية أركانه
- ١٨٨..... وصاحبُ الناسِ يخلقُ حسن
- ١٨٩..... رُضْ نفسك تصبُحُ روضة
- ١٩٠..... أقبل عليَّ المحبوب فردا
- ١٩٠..... الثمرة المشتهاة !
- ١٩١..... سلِّمْ تسلِّمْ
- ١٩١..... معارج الكمال
- ١٩٥..... إنما الرِّيُّ بالماء !
- ١٩٥..... اللهمَّ إني أحبُّ لقاءَكَ فأحبَّ لقاءِي
- ١٩٧..... فهرس الكتاب

في طيات هذا الكتاب آدابُ سلوكٍ ومنهجُ حياةٍ
يسير المرءُ على هديها في رحلة الحياة راسخ القدم
ثابت الفؤاد على صراطٍ مستقيم لا تنبهمُ أمامه
المسالكُ ولا تخفى عليه الدروب . فلا عجب أن
يجد القارئ في كلِّ فصلٍ من فصوله مَعْرَساً
وفي كلِّ خاطرةٍ مُستراحاً ومَقِيلاً ، فيخال نفسه
يطوف على مقامات الإيمان ومنازل الفضيلة . كما
تطوف الشمس على منازل الكمال في آفاق السماء
وينتقل الطير على الأفنان في رحاب الرياض .

الناشر